

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إخراج الأمة المسلمة وعوامل صحتها ومرضاها

الدكتور ماجد عرسان الكيلاني

الطبعة الأولى

حقوق الطبع محفوظة
لرئاسة المحاكم الشرعية والشؤون الدينية
بدولة قطر

ما ينشر في هذه السلسلة يعبر عن رأي مؤلفيها.



كتاب
الأمم
Al Ummah

صدر منه :

● مشكلات في طريق الحياة الإسلامية

● الصحوة الإسلامية بين الجحود والتطرف

● العسكرية العربية الإسلامية

● حول إعادة تشكيل العقل المسلم

● الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري

● المذهبية الإسلامية والتغيير الحضاري

● الحرمان والتخلف في ديار المسلمين

● نظرات في مسيرة العمل الإسلامي

● أدب الاختلاف في الإسلام

● التراث والمعاصرة

● مشكلات الشباب : الحلول المطروحة والحل الإسلامي

● المسلمون في السنغال - معالم الحاضر وآفاق المستقبل

● البنوك الإسلامية

● مدخل إلى الأدب الإسلامي

● المخدرات من القلق إلى الاستعباد

« طبعة ثالثة »

الشيخ محمد الغزالي

« طبعة ثالثة »

الدكتور يوسف القرضاوي

« طبعة ثالثة »

اللواء الركن محمود شيت خطاب

« طبعة ثالثة »

الدكتور عماد الدين خليل

« طبعة ثالثة »

الدكتور محمود حمدي زقزوق

« طبعة ثالثة »

الدكتور محسن عبد الحميد

« طبعة ثالثة » « طبعة انجليزية »

الدكتور نبيل صبحي الطويل

« طبعة ثانية »

عمر عبيد حسنة

« طبعة ثانية »

الدكتور طه جابر فياض العلواني

« طبعة ثانية »

الدكتور أكرم ضياء العمري

« طبعة ثانية »

الدكتور عباس محجوب

« طبعة أولى »

عبد القادر محمد سيلا

« طبعة أولى »

الدكتور جمال الدين عطية

« طبعة أولى »

الدكتور نجيب الكيلاني

« طبعة أولى »

الدكتور محمد محمود الهواري

● الفكر المنهجي عند المحدثين

« طبعة أولى » - الدكتور همام عبد الرحيم سعيد

● فقه الدعوة ملامح وآفاق في حوار

الجزء الأول والثاني « طبعة أولى » + طبعة خاصة بمصر - الأستاذ عمر عبيد حسنة

● قضية التخلف العلمي والتقني في العالم الإسلامي المعاصر

« طبعة أولى » - الدكتور زغلول واغب النجار

● دراسة في البناء الحضاري

« طبعة أولى » + طبعة خاصة بمصر وطبعة خاصة بالمغرب - الدكتور محمود محمد سفر

● في فقه التدين فهما وتنزيلا

الجزء الأول والثاني « الطبعة الأولى » + طبعة خاصة بمصر وطبعة خاصة بالمغرب - الدكتور عبد المجيد النجار

● في الاقتصاد الإسلامي (المرتكزات - التوزيع الاستثمار - النظام المالي)

« طبعة أولى » + طبعة خاصة بمصر وطبعة خاصة بالمغرب - الدكتور رفعت السيد العوضي

● النظرية السياسية الإسلامية في حقوق الإنسان الشرعية دراسة مقارنة

« طبعة أولى » + طبعة خاصة بمصر وطبعة خاصة بالمغرب - الدكتور محمد احمد مفتي والدكتور سامي صالح الوكيل

● أزمنا الحضارية في ضوء سنة الله في الخلق

« طبعة أولى » + طبعة خاصة بمصر وطبعة خاصة بالمغرب - الدكتور احمد محمد كنعان

● المنهج في كتابات الغربيين عن التاريخ الإسلامي

« طبعة أولى » + طبعة خاصة بمصر وطبعة خاصة بالمغرب - الدكتور عبد العظيم محمود الديب

● مقالات في الدعوة والإعلام الإسلامي

« طبعة أولى » + طبعة خاصة بمصر وطبعة خاصة بالمغرب - نخبة من المفكرين والكتاب

● مقومات الشخصية المسلمة أو الإنسان الصالح

« طبعة أولى » + طبعة خاصة بمصر وطبعة خاصة بالمغرب - الدكتور ماجد عرسان الكيلاني

**إخراج الأمة المسلمة
وعوامل
صحتها ومرضها**

صفر ١٤١٢ هـ

قال تعالى :

كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف
وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ولو آمن أهل
الكتاب لكان خيرا لهم منهم المؤمنون وأكثرهم
الفاسقون .

(سورة آل عمران - آية ١١٠)

تقديم

بقام: عمر عبيد حسنه

الحمد لله الذي لم يسلط على الأمة المسلمة عدوها تسليط استئصال وإبادة ، وإنما هي عقوبات ، يوقعها بسبب معاصيها الخلقية والفكرية والسياسية ، ومنبهات حضارية للقضاء على الكيانات الرخوة ، والعناصر الشائخة في جسدها ، تحصنها دون عوامل الموت والفناء ، وتحرك فيها الإمكان الحضاري ، وتوقظ القدرة الكامنة ، وتحرضها على الإقلاع من جديد .

والصلاة والسلام على المرسل بالهدى ودين الحق ، تركنا على المحجة البيضاء ، ليلها كنهارها ، لا يزيغ عنها إلا هالك ، الذي أخرج الأمة المسلمة النموذج ، وناط بها مسؤولية الشهود الحضاري ، بما تمتلك من الرسالة المعيارية ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ (البقرة : ١٤٣) .

وإذا صح لنا أن نقول : بأن نهوض الأمم ومعاودة إخراجها واسترداد دورها ، مرهون إلى حد بعيد باستقراء ظروف وشروط ميلادها الأول ، أدركنا أهمية الاهتمام بقيم الكتاب والسنة ، وتطبيقات السيرة ، في عملية البعث الإسلامي ، أو إخراج الأمة المسلمة من جديد .

وبعد :

فهذا كتاب الأمة الثلاثون : « إخراج الأمة المسلمة » للدكتور ماجد عرسان الكيلاني ، في سلسلة « كتاب الأمة » التي يصدرها مركز البحوث والمعلومات ، برئاسة المحاكم الشرعية والشؤون الدينية في دولة قطر ، مساهمة بإعادة تشكيل شخصية المسلم المعاصر الفاعل ، واسترداد دور الأمة المسلمة في الشهود الحضاري ، وذلك بإعادة بناء نسيجها الاجتماعي ، وإحداث التفاعل بينها وبين

الإسلام ، وتخليصها من الرؤية النصفية والجزئية ، التي تستحوذ عليها ، والتي نأت
بها عن مقاصد الدين وأهدافه ، وعطلت قدرتها على السيرة في الأرض ، والنظر في
سنن الله في الأنفس والأفاق ، واكتشاف القوانين والأقدار التي تنتظم الحياة
والأحياء ، وامتلاك الوسائل التي لا بد منها لتحقيق مقاصد الدين ، والقيام بأعباء
الاستخلاف الإنساني .

ونحن لا ندعي بتقديمنا لهذا الكتاب : « إخراج الأمة المسلمة » الذي يعتبر
مكملًا للكتاب السابق : « مقومات الشخصية المسلمة » ، أو إخراج الفرد
المسلم ، أننا بلغنا ما نريد في المسألة التربوية ، سواء منها ما يتعلق بتربية الفرد ،
أو ما يخص إخراج الأمة المسلمة ، ذلك أننا نعتقد أن ملف المسألة التربوية ، يجب
أن يبقى مفتوحًا ، حيث تتجدد الأساليب والأوعية التربوية بتجدد الحياة ، وتنوع
المشكلات والقضايا التي يعرض لها الإنسان مع تطور المكتسبات المعرفية والعلمية ،
التي لا بد لها من تطوير مرافق لأبنية أخلاق المعرفة ، أو لمناهج إسلامية المعرفة .
ويمكن لنا اعتبار الكتائين مساهمة متقدمة ، في إطار التأصيل المنهجي التربوي ،
كما يمكن من وجه آخر ، اعتبارهما خامات ومعادن تربوية ، تحتاج إلى الكثير من
التصنيع والصياغة ، والتجسيد العملي في البناء المؤسسي ، في المجالات المتعددة ،
في محاولة جريئة لتجاوز (الأبنية الفكرية والمؤسسية المسبقة) ، التي استمدت
قداستها من الإلف ، وقوة الاستمرار ، والوراثة ، التي قد يتقبلها العقل ،
وتتسرب إلى الثقافة ، بدون فحص واختبار ، كما تورث الأشياء المادية عن الأسلاف
والآباء .

وكنت أتمنى أن نتاح فرصة للمساهمة ببعض الملاحظات والمفاهيمات حول إخراج
الأمة المسلمة ، وما تتمتع به من الإمكان الحضاري ، وامتلاك الرسالة المعيارية ،
والتواصل الثقافي بين أجيالها ، الأمور التي تقتضيها خاصيتها الخلود ، وختم النبوة ،
والتي تعتبر من لوازمها ، وكيف أن الدورات الحضارية ، التي عرض لها علماء التربية
والاجتماع والتاريخ ، لم تنطبق بشكل رياضي صارم على الأمة المسلمة ، وأن
حسابات أعدائهم لم تصدق تمامًا عليها ، لأن لهذه الأمة دائمًا مفاجآت ، التي لا تزال
تستعصي على تقديرات خصومها ، وإن لم تنج بعمومها منها ، لأن سنن الله في الكون

وأقداره لا تحايي أحدًا . ذلك أن موثيق الله لحملة الرسالة الخاتمة ، واستقراء التاريخ ، يؤكدان أن الطائفة القائمة على الحق لا يمكن أن تتوقف ، أو تغيب ، لأن ذلك يعنى - فيما يعنى - إصابتها مهمة البلاغ المبين ، وقضية التكليف نفسها ، إذ كيف يمكن أن تتوقف الأمة القائمة على الحق ، التي تمتلك خطابه ومعياره ، بعد توقف نسخ الشرائع . . الأمة التي تتحمل مسؤولية منهج النقل لتعاليم النبوة . . لذلك ، فالقيم تبقى محفوظة بحفظ الله ، وإن أصيب منهج العقل والاجتهاد ، هذا من جانب ، ومن جانب آخر ؛ فإن عصمة عموم الأمة (لا تجتمع أمي على خطأ ، وفي رواية : على ضلالة) ، تعتبر من الضمانات النصية والعملية على امتلاك القدرة على النهوض دائمًا ، والحيلولة دون الإصابات الموصلة إلى الوفاة ، وإن كان ذلك لا يمنع عنها المرض والتوعك . . ومن مظاهر المرض والتوعك : عجز المؤسسات التربوية الحالية عن وضع الأوعية الصحيحة لحركة الأمة ، وعجز المؤسسات التقليدية الموروثة عن الآباء - خاصة في عصور الجمود والتقليد الجماعي - عن تجاوز القراءة النصفية للحياة ، حيث غابت فيها علوم الإنسان ، التي تشكل المدخل الطبيعي والأساسي للتعامل معه ، وتقدير موقعه بدقة ، من البناء الاجتماعي وتقويم سلوكه بمنهج الله ، كما غابت فيها دراسة السنن الاجتماعية في الأنفس والآفاق ، وإدراك قوانين الحركة التاريخية في نهوض وسقوط الأمم ، الأمر الذي لا بد من الإحاطة به في عملية التحويل الثقافي ، وإعادة النسيج الاجتماعي .

إن عدول المؤسسات التربوية عن فقه كتاب الكون والاجتماع البشري ، انعكس على قراءتها للكتاب والسنة ، وحاصر قدرتها على تعدية الرؤية ، والامتداد والخلود لقيم القرآن نفسه ، الأمر الذي جعل العمل والعاملين في الحقل الإسلامي ، خارج سياق الحياة والواقع .

وقضية أخرى كانت ولا تزال جديرة بالبحث أيضاً ، ونحن بصدد تأصيل منهج إخراج الأمة المسلمة ، وهي غياب الأبعاد الحقيقية لمفهوم فروض الكفاية ، وموقعها كواجبات اجتماعية ، تساهم بتناسك نسيج الأمة الاجتماعي ، وتشعرها بالمسؤولية التضامنية ، وتنبهي بها إلى مرحلة الاكتفاء الذاتي ، على مختلف الأصعدة .

لقد هُمشت فروض الكفاية ، حتى كادت تقتصر على قضايا المصير ، وكل

ما يتعلق بحالات الوفاة ولوازمها من التغليف والتكفين ، وحمل الجنازة ، ودفنها ، بعيداً عن إبراز دورها في آفاق الحياة المتعددة ، في كل ما له علاقة بمهمة الاستخلاف الإنساني ، والتعمير الحضاري ، وأهمية تقديمها على الفروض الفردية ، وإدراك دورها في حياة الأمة ، وتأمين حاجاتها من مختلف التخصصات المطلوبة ، والتي تصبح بعد اختيارها فروضاً عينية على أصحابها ، هذا إضافة إلى انكماش مفهومها ، في الذهن المسلم المعاصر ، فالمعروف من مفهوم فرض الكفاية أنه إذا قام به بعضهم ، سقط الإثم عن الباقي ، ومعنى قام به : أداه على الوجه الأكمل إلى درجة الكفاية الاجتماعية ، ولا يعني ذلك بحال من الأحوال مباشرته فقط ، كما هو شائع ، سواء وصل إلى درجة الكفاية وتحقيق الاكتفاء ، أم لا .

ومن الأمور اللافتة للنظر أيضاً - ونحن بصدد طرح قضية فروض الكفاية وأهمية تحرير القول في أبعادها ، ودورها الهام في تشكيل نسيج الأمة ، والإسهام بحصانتها وعافيتها - أن الآلية الفقهية التي تشكل الأوعية الشرعية لحركة الأمة ، ومسالكها بشكل عام ، وخاصة في عصور الجمود ، والعصية المذهبية ، والتقليد الجماعي ، جعلت للاجتهاد البشري القابل للخطأ ، قدسية النص الديني المعصوم ، الأمر الذي قاد إلى الكثير من الصراعات والتمزقات المذهبية ، كما انتهت إلى تجريدات ذهنية ، وآلية ميكانيكية لإنتاج الأحكام الفرعية ، التي قد تنأى عن مقاصد الدين العامة ، ولا أدل على ذلك من شيوع فقه الحيل الشرعية الذي يمكن اعتباره فقه مخرج ، وليس فقه مقصد ، وصاحبه حامل فقه وحافظ ، وليس بفيقيه . . ولذلك قرر بعض الفقهاء أن تطبيق القياس - أحد مصادر التشريع - على إطلاقه ، قد يفوت مصلحة شرعية معتمدة ومقصداً من مقاصد الدين ، لذلك كان لا بد من العدول إلى الاستحسان كمصدر للأحكام لتحقيق المصلحة الشرعية . . ويمكن أن نصنف في هذا الإطار - « فقه المقاصد » - الكثير من اجتهادات الأئمة : ابن تيمية والشاطبي ، والشوكاني ، والطاهر بن عاشور ، وغيرهم ، من الذين تنبهوا لأهمية البعد الاجتماعي لمقاصد الشريعة ، الذي يجب أن يشكل المحور الذي تدور حوله الأحكام الفقهية .

ومن الإصابات الفكرية والتربوية في نطاق الأمة ، والتي لا بد من تسجيلها هنا :

أن لا يكون في مكتبتنا الفقهية التي تمثل القسم الأعظم من المكتبة الإسلامية والثروة التراثية الكبرى ، إلا بعض الكتب التي لا تتجاوز أصابع اليد في مقاصد الشريعة وأهداف الدين العامة !

ولعل ذلك بسبب الخلل التربوي ، الذي أدى إلى نمو الفقه الفردي ، وانقطاع الفقه عن مجرى الحياة العامة ، وعزلته عن الواقع المعاش ، وإغلاق بابه ، الأمر الذي جعل الحياة تدخل من أبواب أخرى بعيداً عنه . حيث بقيت مؤسسات التربية والتعليم ، تبنى وتعيد في المشكلات التاريخية على الرغم من تطور العصر ، وتغير المشكلات ، وتجدد الحياة .

وقضية أخرى قد تكون جديرة بلفت النظر أيضاً : وهي أن اعتماد أنظمة الحكم والأشكال السياسية فقط ، معياراً للنظر إلى الأمم ، والحكم عليها ، وتقويمها ، فيه الكثير من التجاوز والمجازفة ، والبعد عن الحقيقة والواقع ، ونحن هنا لا ننكر لمدلول قوله الرسول صلى الله عليه وسلم : « كما تكونوا يول عليكم » ، وأن أنظمة الحكم تشكل إلى حد بعيد بعض النوافذ التي يُنظر من خلالها إلى طبيعة تركيب الأمم والحكم عليها ، وإنما نرى جوانب أخرى لمدلول قول الرسول صلى الله عليه وسلم ، تخص الجانب التربوي الذي يلفت النظر إلى أن التغيير والتحويل لواقع الأمة ، لا يبدأ من رأس السلطة ، التي لا تعدو أن تكون ثمرة طبيعية ، لبذرة الواقع ، وشجرته ، وإنما يبدأ التحويل من العكوف على الذات ، والبعد عن أغوار النفس بإعادة التربية والصياغة ، وتغيير البذور الفكرية ، لتنتج ثماراً أخرى في رأس السلطة فالله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بانفسهم ، هذا إضافة إلى أن الواقع يدل على امتداد الأمة المسلمة الثقافي والفكري التاريخي ، على الرغم من الكثير من الإصابات والتمزقات السياسية ، حيث الكثير من الأنظمة السياسية - في عالم المسلمين - تاريخياً عاشت معزولة إلى حد بعيد عن ضمير الأمة المسلمة ، ولعل في طلب الرسول صلى الله عليه وسلم للمسلمين ملازمة القرآن ، عندما ينفصل عنه السلطان ، دليل من وجه آخر على امتداد أمة الرسالة والدعوة ، ولو توقفت مؤسسات السياسة والحكم .

ونحن هنا لا ننكر أثر وتأثير النظام السياسي في نسيج الأمة ومؤسساتها التربوية التي

يجولها لتنتج على هواه ، إلا أننا نعتقد أن إعداد الفرد ، وحسن إخراجه طبقاً لتعاليم النبوة ، وتغيير ما بنفسه يبقى اللبنة الأولى ، والأساس في البناء ، وأن الخلل في وسائل ومؤسسات التربية في إخراج الفرد الصالح غير المصلح ، لا يلغي دوره وأهميته ، وإنما لا بد أن يعود بالإلغاء على الوسيلة المخطئة ، علماً بأن القيم الإسلامية ، والتطبيقات النبوية ، ضبطت النسب بين كل من دور الفرد ، ودور الأمة ، حتى لا تصاب آلية التغيير الاجتماعي بالتصلب والتكلس ، وتنتهي إلى نوع من الحتمية في إنتاج النماذج المطلوبة والعاجزة عن الخروج على قوالب البيئة الاجتماعية .

ويعد : فهذه ملاحظات سريعة فرضتها مساحة الكتاب ، رأيت تسجيلها ، سائلاً الله سبحانه أن يرزقنا الإخلاص ، ويلهمنا الصواب ، إنه نعم المسؤول .

مقدمة

إخراج الأمة المسلمة هو الهدف الثاني من أهداف التربية الإسلامية . وما لم توجه العناية إلى بلورة هذا الهدف ، وتربية (إنسان التربية الإسلامية) عليه ، فإن الجهود التي تبذل لتحقيق الأول : هدف تربية الفرد المسلم ، لن تكون ذات قيمة ، لأن الأفراد الصالحين هم عنصر واحد من عناصر تفاعل لتجسد (الأمة المسلمة) في بناء اجتماعي واقعي ، يلبي الحاجات والتحديات القائمة ، وإلى هذا البناء كانت الإشارة في الحديث النبوي القائل : « المؤمن للمؤمن كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا »^(١) .

و « المؤمنون في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى »^(٢) .

وكما أن البنيان المرصوص ليس كومة من الحجارة ، وإنما هو جذر متينة من الحجارة المصقولة المشدودة بالإسمنت والحديد ، حسب قوانين هندسة البناء ، وعدد الأعمدة ، والجسور والعقود ، وعمق الأساس ، وسمك الجدار ، ومقدار الارتفاع ، وظروف المناخ المحيط ؛ وكما أن الجسد لا يتداعى أعضاؤه بالسهر والحمى للعنصر المصاب ، إلا إذا كان ذي الجسد قلب نابض بالحياة ، ويدبر أموره دماغ سليم ، وأجهزة معافاة للهضم والتنفس ، وشبكة نشطة من الشرايين والأوردة والأعصاب ، ودم نقي متوازن التركيب ، فكذلك الأمة ليست أكواما بشرية (صالحة أو غير صالحة) ، وإنما هي نسيج اجتماعي ، تحكمه قوانين بناء الأمم ، وصحتها ، ومرضها ، وموتها ، وتتلاحم فيه مكونات الأمة ،

(١) البخاري ، الصحيح ، كتاب المظالم .

(٢) مسلم ، الصحيح ، كتاب البر ، ج ١٦ ، ص ١٤٠ .

وتعمل متكاملة بحيث يكون حصيلة هذا كله : (إخراج الأمة المسلمة) ، وقيامها بوظائفها ، طبقاً لحاجات الزمان والمكان .

وتتكامل المرحلتان : مرحلة تربية الفرد المسلم ، ومرحلة (إخراج الأمة المسلمة) ، بحيث تكون الأولى مقدمة للثانية ، ولا تغني واحدة دون الأخرى ، ولذلك كان التركيز في المرحلة المكينة على تربية الفرد المسلم ، أو الإنسان الصالح المصلح ، بينما كان (إخراج الأمة المسلمة) ، هو محور العملية التربوية في المرحلة المدنية^(١) .

غير أن البحث في المصادر الإسلامية ، يكشف أن لـ « الأمة » في التاريخ الإسلامي مفهومين : مفهوم نظري في القرآن والسنة ؛ وهو مفهوم يقدم النموذج الذي يجب أن تكون عليه الأمة ، وقد اخترت في هذا البحث أن أطلق عليه اسم : « الأمة المسلمة » . . . ومفهوم عملي يمثله كيان « الأمة » الذي برز عبر العصور الإسلامية ، ابتداء من عصر الرسول صلى الله عليه وسلم حتى الوقت الحاضر ، وقد اخترت أن أطلق عليه اسم : « الأمة الإسلامية » . وتبين وقائع التاريخ أن المفهوم العملي للأمة قد تطابق مع المفهوم النظري لزمان معين - هو عصر الرسول وعصر الخلافة الراشدة - ثم أخذ في الابتعاد تدريجياً ، حتى انتهى إلى مخالفته تماماً ، مثبتاً بذلك ما أخبر به الرسول صلى الله عليه وسلم حين قال :

- تدور رحى الإسلام لخمس وثلاثين ، أوست وثلاثين ، أوسبع وثلاثين ، وإن يقيم لهم دينهم يقيم لهم سبعين عاماً^(٢) .

- « خير أمتي قرني ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم ، (قال عمران راو الحديث : فلا أدري أذكر بعد قرنه قرنين أو ثلاثة) ، ثم إن بعدكم قومًا يشهدون ولا يستشهدون ، ويحونون ولا يؤتمنون ، وينذرون ولا يؤفون ، ويظهر فيهم السمن^(٣) .

(١) يرجي من القارئ أن يجمع بين هذا الكتاب ، وكتاب - مقومات الشخصية المسلمة - الذي نشر في سلسلة - كتاب الأمة - رقم (٢٩) في قطر . ليكون الأثنان - استراتيجية العمل الإسلامي - .
(٢) سنن أبي داود ، ح - ٤ ، ص ٩٨ رقم ٤٢٥٤ . مسند أحمد ، ح - ١ ، ص ٢٩٠ ، ٢٩٢ .
(٣) صحيح البخاري ، كتاب فضائل الصحابة .

وهذا يعني - بشهادة رسول الله صلى الله عليه وسلم - أن « الأمة الإسلامية » لم تكن طوال التاريخ « أمة مسلمة » راشدة بشكل كامل ، وإنما أخذت - منذ وقت مبكر - بالانحراف عن نموذج الأمة في القرآن والسنة : والواقع أن مؤسسات التربية الإسلامية في العصور التي تلت عصر النبوة والخلافة الراشدة تركت - أو أجبرت على ترك - « فقه » إخراج الأمة المسلمة ، وما يتطلبه هذا الإخراج من نظم وتشريعات ومؤسسات تقي الأمة من التسلط ، وتحميها من عوامل المرض ، وأخطار الوفاة . ثم نسيت هذا الهدف ، ثم انحسرت لتقتصر على تربية الفرد الصالح (غير المصلح) الذي يُهبأ منذ الطفولة للانتقال إلى الآخرة ، دون التدريب على عبور محطة الدنيا . وهذا النموذج في التربية هو الذي ورثته مؤسسات التربية الإسلامية في العصور الحديثة ، حيث مازالت هذه المؤسسات تعمل على أساس أنه « إذا صلح الفرد صلحت الأمة » . وما زالت مؤسسات التربية الإسلامية التقليدية ، والحركات العاملة في ميدان العمل الإسلامي ، تتقبل هذه المقولة وتتعامل معها ، وكأنها آية من آيات الكتاب ، وليس كفرضية من الفرضيات البشرية التي قد تثبت أو لا تثبت بالاختبار والتجريب في مختبر الآفاق والأنفس . فكانت النتيجة العملية لهذه الممارسات التربوية الخاطئة هي تكديس الأفراد المسلمين في أكوام بشرية ليس لديها علوم محددة عن « فقه » بناء الأمم ، وتنسيق القدرات البشرية والمادية . ولذلك أصبحت لعبة سهلة بأيدي قوى الاحتلال الخارجي ، التي مازالت تصنع من شظايا الأمة المسلمة المريضة مزقاً من الكيانات المهيضة ، التي تطلق عليها اسم - الأمم الإسلامية - وتحدد لها « جنسياتها » و « ثقافتها » ومحاور « الولاء » فيها طبقاً لنظريات عصبية متخلفة ، وتصمم لها تطبيقاتها الخاوية الضعيفة في شؤون السياسة والإدارة والاجتماع .

والمحصلة النهائية لجهل المؤسسات التربوية الإسلامية بإخراج الأمة المسلمة هي : أن هذه المؤسسات مازالت تعمل على إعداد أفراد صالحين (غير مصلحين) لتقذف بهم إلى بيئات غير صالحة ، حيث تدخل فضائلهم الفردية في صراع وعلاقات اجتماعية غير فاضلة ، إلى أن ينتهي بهم الأمر إلى الازدواجية في السلوك وإلى التلاوم والتآكل ، ثم الوقوع ضحية الانفعالات والانفجارات التلقائية ، والجهاد المرتجل ، أو المصطنع ، الذي كثيراً ما ينتهي بهم إلى الانتحار الاجتماعي ، أو السحق تحت ضغط الإيجابيات ، والنكسات ، دون أن ينتبه أحد إلى أن المطلوب هو « فقه » جديد - أو علم جديد - يتكامل فيه علم (إخراج الأمة المسلمة) وعوامل صحتها ومرضاها وموتها وبعثها إلى آخر ما يتعلق بها .

من هذه الحاجة ولدت الأفكار التي تضمنها هذا البحث ، مستهدفة الإسهام في استكشاف - فقه إخراج الأمة المسلمة - وبلورة أصوله ، وتنبيه الباحثين الإسلاميين إلى دخول ميدانه في ضوء الغايات العليا التي ترشد إليها توجيهات القرآن الكريم والسنة الشريفة ، والشؤون المتجددة في الآفاق والأنفس .
والله سبحانه يتولانا بالهداية والتعليم ، فإنه لا علم لنا إلا ما علمنا ، ولا فهم لنا إلا ما فهمنا ، إنه نعم المولى ونعم النصير .

الدكتور ماجد عرسان الكيلاني

الباب الأول

الامة المسلمة : مفهومها ونشأتها وأهميتها

الفصل الأول

مفهوم الأمة المسلمة

١ - معنى الأمة : الأمة مصطلح من المصطلحات التي ولدت بميلاد الرسالة الإسلامية ، مثل مصطلح « الصلاة » و « الزكاة » و « الإيمان » و « الإسلام » و « الكفر » و « النفاق » وهكذا .

والأمة تعني - لغوياً - الجماعة من الناس التي تؤم جهة معينة^(١) . وأما المعنى الاصطلاحي فقد تكررت الإشارة إليه في القرآن والحديث ليدل على معانٍ عديدة أهمها :
المعنى الأول : ورد مصطلح « الأمة » ليدل أن الأمة هي :

إنسان + رسالة

و « الرسالة » هنا هي « مثل أعلى » ، يقدم النموذج الأمثل للجوانب الخيرة في سلوك الفرد والجماعة ، ليأتم به الناس ويسعدوا ، ويقدم الصورة الشاملة للجوانب الشريرة ، ليتجنبها الناس ويسلموا من آثارها . ويشير القرآن الكريم إلى هذه الرسالة في مواضع عديدة باسم - الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر - .

وأما عن « الإنسان » فقد يكون فرداً واحداً ، مثل الإشارة إلى إبراهيم عليه السلام عند قوله تعالى :

﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ (النحل : ١٢٠) .

ومثل قوله صلى الله عليه وسلم في زيد بن عمرو بن نفيل :

(١) القرطبي ، التفسير ، ج ٢ ، ص ١٢٧ .

« بعثت أمة وحده » لأنه لم يشرك في دينه شيئاً^(١) .

ومثل قول عبد الله بن مسعود الذي رواه عنه فروة الأشجعي حين قال :

« كنت جالساً مع ابن مسعود فقال : إن معاذاً كان أمة قانتا لله حنيفاً ولم يك من المشركين .

فقلت : يا أبا عبد الرحمن إنما قال الله : إن إبراهيم كان أمة قانتا لله حنيفاً . . فأعاد قوله : إن معاذاً . . فلما رأيته أعاد عرفته أنه تعمد الأمر فسكت .

فقال : أتدري ما الأمة وما القانت ؟

قلت : الله أعلم !

قال : الأمة الذي يعلم الخير ، ويؤتم به ويقتدى . والقانت : المطيع لله . وكان معاذ بن جبل رضي الله عنه معلماً للخير مطيعاً لله ورسوله^(٢) .

وقد يكون - الإنسان - جماعة من العلماء الدعاة ، الذين يحملون رسالة إصلاحية ، مثل قوله تعالى : ﴿ وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴾ (الأعراف : ١٥٩) .
وقوله تعالى : ﴿ وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ﴾ (آل عمران : ١٠٤) .

وقد يكون - الإنسان - طائفة أو قبيلة لها معتقدها ونهجها ، مثل قوله تعالى : ﴿ وَقَطَعْنَا لَهُمْ آتَنِي عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا ﴾ (الأعراف : ١٦٠) .
وقوله أيضاً : ﴿ وَقَطَعْنَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا مِنْهُمْ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ ﴾ (الأعراف : ١٦٨) .

وقد يكون - الإنسان - جيل له فكر واحد ، ولون حضاري واحد ، مثل قوله تعالى : ﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ ﴾ (البقرة : ١٣٤ ، ١٤١) .

وقوله صلى الله عليه وسلم في جيل الصحابة الذي ربه :

« إن لكل أمة أجلاً . وإن لأمتي مائة سنة ، فإذا مرت على أمتي سنة أتاهها ما وعدتها الله^(٣) .

وقد يكون - الإنسان - مجموعة متميزة بالتزامها مثل الرسالة ومبادئها . مثل قوله تعالى : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ (آل عمران : ١١٠) .

(١) نفس المصدر السابق .

(٢) الطبري ، التفسير ، حـ ١٤ ، ص ١٩٠ .

(٣) كثر العمال ، حـ ١٤ ، ص ١٩٣ نقلاً عن الطبراني في الكبير .

ويسبب هذا التمييز قال عمر بن الخطاب عند ذكر هذه الآية : تكون لأولنا ولا تكون
 لأخرنا ! وفي تفسيرها قال ابن عباس : هم الذين هاجروا من مكة إلى المدينة !^(١) .
 وقد يتسع مفهوم - الإنسان - حتى يشمل الإنسانية كلها ، إذا اجتمعت على فكرة
 واحدة ، ومنهاج واحد . مثل قوله تعالى :

﴿ وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا ﴾ (يونس : ١٩) .

﴿ وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لَبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِنْ فِضَّةٍ
 وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴾ (الزخرف : ٣٣) .

والمعنى الثاني : فقد ورد مصطلح « أمة » ليعني - منهاج حياة - وما يتضمنه هذا المنهاج
 من معتقدات وقيم وممارسات وتقاليد مثل قوله تعالى :

﴿ إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ ﴾ (الزخرف : ٢٢) .

والمعنى الثالث : فقد ورد مصطلح « أمة » ليعني - فترة زمنية - مثل قوله تعالى :

﴿ وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهَا أَذْكَرٌ بَعْدَ أُمَّةٍ ﴾ (يوسف : ٤٥) .

﴿ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَىٰ أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ ﴾ (هود : ٨) .

والمعنى الرابع : حيث ورد مصطلح « أمة » ليعني مجموعة من الناس لها مهنة واحدة .
 مثل قوله تعالى :

﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةٌ مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ ﴾ (القصص : ٢٣) .

والمعنى الخامس : حيث ورد مصطلح « أمة » ليشير إلى المخلوقات الأخرى من
 الحيوانات والطيور والحشرات التي تنتمي إلى جنس واحد . مثل قوله تعالى :

﴿ وَمِمَّنْ دَابَّةٌ فِي الْأَرْضِ وَلَاطَائِرٌ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالَكُم ﴾ (الأنعام :

٣٨) .

ولقد كشف علم الحيوان أن لكل نوع منه لغة تخاطب ، وتقاليد في العمل والقيادة ، ونمط
 في الاجتماع وأسلوب في الحياة .

ولقد تردد شرح مصطلح « الأمة » عند بعض المفسرين ليشير إلى المعاني التي مرت . فهو
 عند الطبري : « الجماعة والقرن من الناس »^(٢) ، وهو « دين وملة »^(٣) ، وهو « الناس

(١) الطبري ، التفسير ، ح ٤ ، ص ٤٣ - ٤٤ .

(٢) الطبري ؛ جامع البيان ، ح ١ ، ط ٣ (القاهرة : مكتبة الحلبي ، بلا تاريخ) ص ٥٦٣ .

(٣) الطبري ؛ نفس المصدر ، ح ٢٥ ، ص ٦٠ - ٦١ .

كانوا على دين واحد فاختلّفوا ، وهو « الإمام يُقتدى به في الخير »^(١) ، وهو « الأجل المحدود ، أو مجيء أمة وانقراض أخرى »^(٢) ، وهو « الطريقة : أي كنتم خير أهل طريقة »^(٣) .

مما مرّ كله يمكن الخروج بالملاحظات التالية حول مفهوم « الأمة » ومعناه :
الملاحظة الأولى : أن المعنى الاصطلاحي المتكامل لـ « الأمة » يتضمن عناصر أربعة :
الأول : العنصر البشري ؛ والثاني : العنصر الفكري ؛ والثالث : العنصر الاجتماعي ؛
والرابع : العنصر الزمني . فالأمة مجموعة من الناس تحمل رسالة حضارية نافعة للإنسانية ، وتعيش طبقاً لمبادئ هذه الرسالة . وتظل تحمل صفة - الأمة - مادامت تحمل هذه الصفات . أما حين تفقدها فقد يطلق عليها اسم « الأمة » ولكنها لن تكون النموذج الإسلامي الكامل للأمة ، كما يطلق اسم « دين » على أي دين ، ولكن الدين المقبول عند الله هو الإسلام .

والملاحظة الثانية : أن العنصر الرئيس في مفهوم الأمة ، هو عنصر - الرسالة - أي العطاء الذي تقدمه جماعة من الناس إلى بقية مجموعات الإنسانية ليساعد على بقاء النوع البشري ورفقه .

والملاحظة الثالثة : لا يشترط في العنصر البشري - أو المكون الأول للأمة - الروابط الدموية ، أو الجغرافية ، ولا الكم العددي . فقد يكون هذا العنصر فرداً واحداً ، وقد يكون فئة ، أو جماعة ، أو جيلاً أو أجيالاً ، أو الإنسانية كلها ، مادامت تحمل رسالة ، ويوحدها فقه شامل لهذه الرسالة ، وتطبيقات فاعلة ، تنتج عنها نظم وتطبيقات حضارية ، في ميادين الحياة المختلفة ، تسهم في بقاء النوع البشري ورفقه .

والملاحظة الرابعة : أن الأمة تتدرج في نشأتها ونموها كتدرج نمو الجسد الإنساني . فكما يبدأ الجسد نطفة ثم علقة ثم يولد طفلاً ثم يصبح صبياً ، ثم يقوى شاباً ، ثم يبلغ رجلاً ، ثم يعود شيخاً ، وكما أن الإنسان الكامل هو الذي يبلغ النضج الجسدي والنفسي والعقلي ويقوم بوظائفه كاملة . فكذلك الأمة تبدأ فرداً واحداً ثم تصبح مجموعة صغيرة ، ثم قوماً ، ثم شعباً ، حتى تنتهي بالدائرة الإنسانية كلها . والأمة الراشدة هي التي تبلغ درجة الرشد

(١) الطبري ؛ نفس المصدر ، ح - ٢ ، ص ٣٣٤ - ٣٣٦ .

(٢) القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن ، ح ٢ ، تفسير آية ١٢٨ من سورة البقرة ، ص ١٢٧ .

(٣) الطبري ، التفسير ، ح - ٤ ، ص ٤٦ .

الحضاري والنوعي ، وأبرز شارات هذا النضج هو حمل رسالة الدعوة للخير ، بمعناه الواسع وإشاعته ، والنهي عن المنكر بمعناه الواسع ومحاربه .

والملاحظة الخامسة : أن الأمة الراشدة لا ينال من وحدتها تنوع الشعوب والقبائل فيها ، ولا اختلاف الألوان والمهن والأماكن ، مادامت هذه التنوعات لا تخرج عن وظيفتها في تسهيل التعارف ، ومادامت ولاءاتها تدور في فلك الرسالة وحدها ، ولا تندور في فلك الأشخاص والأشياء . ومادام يعمل هذا التنوع كما يعمل التنظيم الإداري ، القائم على الوحدة في الغاية ، والتنوع في الاختصاصات والوسائل .

والملاحظة السادسة : أن الأمة كيان صناعي يمكن بناؤه وهدمه . فهي تخرج إخراجاً للقيام بوظيفة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . وهذا الإخراج يقتضي منها بذل الجهد والمقدرات لتطوير المؤسسات التربوية والإدارية ، للقيام بالدراسة والتخطيط المستمر ، لإحكام تطوير الأمة وإخراجها ، بما تتطلبه وظيفتها حسب حاجات الزمان والمكان . وإلى إخراج هذه المؤسسات ، كان التوجيه الإلهي ، مثل قوله تعالى :

﴿ وَتَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (آل عمران : ١٠٤) .

والملاحظة السابعة : أن استمرار الأمة في الحياة مرهون باستمرار حملها للرسالة وما يتفرع عنها من تطبيقات في مجالات الحياة المختلفة ، فإذا ضعفت عن حمل هذه الرسالة ، أو توقفت فاعليتها ، أو تقلصت تطبيقاتها ، انتهى وجود الأمة ، وحل محلها أمة أخرى ، لا علاقة لها بسابقتها ، وإن ربطتها بها روابط الدم والأرض واللغة والثقافة . وهذا ما فهمه كبار الصحابة الذين عايشوا بدء الرسالة وتطبيقاتها من قوله تعالى :

﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ (آل عمران : ١١٠) .

ولقد كان الخليفة عمر حريصاً على تأكيد هذا الفهم والتصور عن الأمة المسلمة حين قال في شرح الآية المذكورة :

« لو شاء الله لقال أنتم ، فكنا كلنا ، ولكن قال : (كنتم) في خاصة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومن صنع مثل صنيعهم ، كانوا خير أمة أخرجت للناس يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر » .

وفي مناسبة أخرى قال : « كنتم خير أمة أخرجت للناس ، تكون لأولنا ولا تكون لأخرنا » .

وفي حجة حجها قرأ هذه الآية ثم قال : يا أيها الناس من سره أن يكون من تلك الأمة فليؤد

شرط الله فيها .

وعن ابن عباس في تفسير الذين هم خير أمة أخرجت للناس ، قال : هم الذين هاجروا من مكة إلى المدينة .

وعن أبي هريرة في تفسير الآية المذكورة : كنتم خير الناس للناس ، تجيئون بهم في السلاسل تدخلونهم في الإسلام^(١) ، ليدخلوا الجنة .

والملاحظة الثامنة : أن سعة دائرة الأمة يحددها - مدى التواصل والاتصال - الذي تحدده تكنولوجيا العصر . فحين كان الإنسان يسير على قدميه ، ويتواصل مشافهة مع بني جنسه ، تحددت دائرة الأمة بالحدود الجغرافية التي أمكنه التحرك داخلها . وحين ركب الحمير والخيول اتسعت الدائرة لتشمل أكثر من قرينته ، وحين اكتشف العربات التي تجرها الخيول ، ورموز الكلمات والكتابة ازدادت سعة دائرة الأمة ، لتشمل القارة ، حتى إذا وقف على عتبة ركوب الفضاء والتواصل بالتلكس والتلفون والفاكس ، رسمت الرسالة الإسلامية للأمة دائرة تتسع للإنسانية كلها .

ويرتبط بهذا التطور الجغرافي لسعة رقعة الأمة تطور اجتماعي مواز يوسع دائرة القيم في كل طور ، فينقلها من القيم الأسرية ، إلى القبلية ، ثم القومية ، ثم العرقية ثم العالمية . وإلى هذا التدرج في الاتساع كانت الإشارة النبوية في أن كل رسول بُعث إلى قومه ، وأنه صلى الله عليه وسلم بُعث إلى الناس كافة .

ولكن المشكلة في التطور المشار إليه ، أن البشرية كانت - وما زالت - تعجز عن مواكبته فتقع في خطأين اثنين . . الأول : أن فئات كثيرة من البشر كانت وما زالت تمارس الرفض والحران ، فترفض الانتقال من قيم طور انتهى أمدته إلى قيم طور حل زمنه . والثاني : أن نوازع الهوى المرتبطة بمصالح بعض أهل المال والسلطان كانت وما زالت تشوه مفهوم الأمة فتنتقل - الرسالة أو الفكرة - من المحور إلى الهامش ، وتحل محلها روابط الدم أو الوطن أو المصالح المادية ، وبذلك يطلق مصطلح « الأمة » على من لا ينطبق عليه مواصفات الأمة كما حددها القرآن والحديث .

لذلك كان من أبرز مسؤوليات المؤسسات التربوية الإسلامية : أن تقوم في كل جيل بمراجعة المفاهيم المنحدرة من الآباء عن معنى - الأمة - ومكوناتها وروابطها بغية تجديد المفاهيم - الصائبة ، وتزكية المفاهيم المتداولة ، مما علق بها من نقص أو تشويه .

(١) الطبري ، التفسير ، ح - ٤ ، ص ٤٣ - ٤٤ .

الفصل الثاني

بدء ظاهرة « الأمة المسلمة » ونشأتها

بدأ الإعداد لظاهرة « الأمة المسلمة » برسالة إبراهيم عليه السلام الذي وصفه القرآن الكريم : ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَّلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ (النحل : ١٢٠) .

ولقد جاء مفهوم « الأمة المسلمة » كحلقة في سلسلة الرسائل المساوية التي توازت مع تطور المجتمعات البشرية . فحين بدأ الاجتماع البشري بطور الأسرة جاءت الرسالة أسرية ، كرسالة آدم عليه السلام . وحين انتقل الناس إلى طور القبيلة والقرية جاءت الرسائل قبلية وقروية ، كرسالات صالح وهود . وحين انتقلت المجتمعات إلى طور القوم - جاءت الرسائل قومية كرسالة نوح عليه السلام .

ومفهوم « القوم » هذا يقابله في اللغة الانكليزية مصطلح People وهو مفهوم دموي ، يستمد محتواه من روابط الدم ، حين بدأ الإنسان ينتقل من حياة التجوال الفردي إلى طور التجوال الأسري والقبلي ، وتكونت نتيجة لذلك ظاهرة « القوم » في الطور الرعوي للبشرية .

أما مفهوم « الشعب » فيقابلة في اللغة الانكليزية مصطلح Nation ، وهو مفهوم جغرافي ، يستمد محتواه من الروابط الجغرافية ، حين بدأت القبائل والأقوام تنتقل من طور الرعي إلى طور الزراعة والاستقرار في رقعة الأرض التي تحددها قوة الأقوام المتجمعة . وانتقال المجتمعات البشرية من طور إلى طور كان يتسم لفترات طويلة جداً بالتناقض والاضطراب والتمزق ، بين قيم ومفاهيم الطور السابق المنحدرة من « الآباء » ، وبين قيم ومفاهيم الطور الجديد الذي يدلف إليه « الأبناء » . ولذلك كان عمل الرسائل هو القضاء على التناقض والاضطراب والتمزق المذكور ، ثم تسهيل الانتقال إلى الطور الجديد وتنظيمه .

ثم جاء طور « الأمة » حينما بدأت الحدود الإقليمية تنهدم وبدأ انسياح الأقوام والشعوب بعضهم على بعض . ولكنه انسياح سلمي مدمر ، اتخذ طابع الغزو والعدوان على الأبدان

والنفوس والعقول والممتلكات ، كما تمثل في الفراعنة والأشوريين والكلدانيين وغيرهم ، فجاءت الرسائل الموازية لهذا الطور ابتداء من - إبراهيم الكلداني عليه السلام - بمفهوم « الأمة » وهو مفهوم فكري - نفسي يستمد محتواه من روابط الفكر والعقيدة ، ويتخطى روابط الدم والأرض السابقة .

ولقد سبق اختيار إبراهيم عليه السلام للبدء بالإعداد (لإخراج الأمة المسلمة) ، اختباراً لقدرته على القيام بهذه المهمة ، ومدى استعداده لتقديم تكاليفها ومتطلباتها . وإلى هذا الاختبار يشير القرآن الكريم بقوله تعالى :

﴿ وَإِذْ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ، قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ، قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي ، قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴾ (البقرة : ١٢٤) .

والكلمات التي ابتلي بها إبراهيم عليه السلام هي الحوادث التي اختبره الله بواسطتها وهي :

أولاً : استعداده للتضحية بنفسه .

والثانية : استعداده للهجرة والتخلي عن روابط الأسرة والدم والوطن .

والثالثة : استعداده لمحاربة العقائد القائمة ورموز الثقافة المعاصرة المتخلفة .

الرابعة : استعداده للتضحية بولده وأسرته .

وتشير الآيات القرآنية إلى أن إبراهيم عليه السلام اجتاز هذه الاختبارات بنجاح ، وأنه استحق رتبة الإمامة للناس ، وأنه سألها لذريته من بعده ، فجاءه الجواب بالموافقة مع الاشرط إلى أن هذه الإمامة عهد ، لا يناله الظالمون المقصرون من ذريته ، الذين لا يقومون بتكاليفها ويفشلون باختباراتها .

ثم مضى إبراهيم مصحوباً بأبنائه وأسرته في التمهيد لإخراج « الأمة المسلمة » ، فابتدأ بتحديد موطنها ومؤسساتها ، حيث اختار لها موطناً منطقة وسطاً ، تقع في ملتقى المواصلات العالمية وتفاعل الحضارات ، وهي منطقة تمتد من بلاد الشام عبر دلتا مصر والحجاز ، كذلك أقام مؤسستين تربويتين . . الأولى : للتربية والتركية : وهي الكعبة والمسجد الحرام ، والثانية : للدعوة والنشروهي : المسجد الأقصى ، ثم انقسمت الأسرة إلى جوار المسجدين ليقوم كل فريق بالإشراف على المهمة الموكلة إليه في منطقته ، وإعداد الأجواء لفكرة « الأمة » الجديدة . وإلى هذا الإعداد الإبراهيمي كانت الإشارة القرآنية التالية :

﴿ وَوَصَّيْنَا بَهَا إِبْرَاهِيمَ بَيْنَهُ وَيَعْقُوبَ ، يَا بُنَيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمْ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ (البقرة : ١٣٢) .

ثم كانت الانطلاقة الأولى لإخراج « أمة الرسالة » ، برسالة موسى التي جرى التمهيد لها برحيل يوسف وأسرة يعقوب إلى مصر ، وإشاعة جو من الثقافة الملائمة للأمة ، التي يراد إخراجها . وكان الخروج - أو الهجرة - بالمؤمنين بالرسالة الجديدة ، مروراً بشمال منطقة المسجد الحرام ، والتوجه إلى منطقة المسجد الأقصى ، لتطهير أرض « أمة الرسالة » التي رسم حدودها إبراهيم ، ولبداء الدعوة والنشر فيها .

وكانت جماعة المهاجرين هذه تحمل في تشكيلها صفة العالمية وتعدد الأجناس . وليس صحيحاً أنها اقتصرت على جنس واحد هو سلالة إسرائيل الدموية . فالقرآن يشير إلى أن أتباع موسى كان فيهم ﴿ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ ﴾ وأنه قال في اجتماع يرأسه فرعون : ﴿ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ ؟ . . وأن فرعون ردّ على هذا الرجل : ﴿ مَا أَرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴾ (غافر : ٢٨ - ٢٩) .

ويروي القرآن كذلك قصة السحرة - أو الإعلاميين عند فرعون - الذين - حين رأوا الآيات البيّنات - تحدوا فرعون حين هددهم بالصلب وتقطيع الأعضاء وقالوا له : ﴿ فَأَقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴾ . (طه : ٧٢) .

ويذكر القرآن أيضاً أن دعوة موسى دخلت دوائر القصر الفرعوني ، حتى ضمت زوجة فرعون ، التي ضحّت بنعيم القصر ، ودعت الله أن يعوضها قصرأً بدله في الجنة .

وفي المقابل يروي القرآن الكريم أن عصابة فرعون ، التي عارضت دعوة موسى ، قد ضمت في قيادتها متراً عاتياً من قوم موسى ، ومن سلالة إسرائيل الدموية هو قارون الذي وقف مع فرعون وهامان صفاً واحداً : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ . إِلَى فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ﴾ (غافر : ٢٣ - ٢٤) . ويضيف القرآن تفاصيل دقيقة عن قارون هذا فيقول : ﴿ إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ ﴾ ، وأنه كان لديه ﴿ مِنْ الْكُنُوزِ مَا إِنْ مَفَاتِحُهَا لَتَنُوتُوا بِالْعِصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ ﴾ ، وإن قومه قالوا له حين أظهر البطور والطغيان : ﴿ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ . وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُسْفِينِ ﴾ . فرد عليهم بصفافة وصلف : ﴿ إِنَّمَا أُوتِيْتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي ﴾ أي خبرة بأعمال التجارة والاستثمار ، وأنه استمر في طغيانه حتى نزل به عقاب الله وخسفه ، فدمرت قصوره وهلكت نفسه . (القصص : ٧٦ - ٨٢) .

وإذا كان القرآن يسمي الخارجين مع موسى : بني إسرائيل ، فلأن المدلول القرآني لـ « بنو » و « آل » تعني أتباع المعتقد ، لا سلالة الدم ، كما ذكر ذلك الطبري في تفسيره

نقلا عن الصحابة والتابعين الذين قالوا : إن آل الرجل هم أتباعه ، وقومه هم من على دينه . ونقل الطبري عن ابن عباس أنه قال في الآية : هم المؤمنون من آل إبراهيم وآل عمران وآل ياسين وآل محمد . يقول الله عز وجل ﴿ إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لِلدِّينِ أَتْبَعُوهُ ﴾^(١) (آل عمران : ٦٨) .

ولكن آثار البيئة التي نشأ فيها أتباع موسى - بيئة الثقافة الفرعونية - فعلت فعلها في هذه الانطلاقة الأولى لأمة الرسالة ، ومن هذه الآثار أن أتباع موسى حين كانوا في طريقهم لأرض أمة الرسالة ، تأثروا بالتراث الديني الفرعوني ، الذي يقوم على عبادة العجل (أيبس)^(٢) . كذلك تأثروا بأخلاق أهل الزراعة ، فحنوا إلى الراحة ، وإلى تقاليد الطعام المصري ، من البقل والقثاء والبصل والثوم والعدس . وظهرت فيهم أيضاً آثار بيئة الاستبداد الفرعوني ، وماتفرزه في أخلاق المحكومين من ضعف الإرادة ، ونكوص عن التضحية ، وضجر من المسؤولية .

ولكن أخطر هذه الآثار التي ظلوا يعانون منها حتى الوقت الحاضر هي تأثرهم بـ « العنصرية » الفرعونية ، وتطوير « عنصرية » خاصة بهم ، وقفت حائلاً بينهم وبين الخروج إلى روابط أخوة الرسالة ، التي يتقضيها الطور الجديد ، ثم أبقتهم حبيسي روابط الدم ، التي تعود إلى الأطوار الماضية ، بعد أن ظلوا بطلاء ديني ، تحت اسم جديد هو « شعب الله المختار » . ولقد نتج عن ذلك إغلاق باب الانتماء إلى الأمة الجديدة أمام غير ذرياتهم ، وتعطيل وظيفة المؤسسات التربوية في الأرض المباركة .

ثم جاء عيسى عليه السلام ، لإصلاح ما أصاب نواة الأمة الوليدة ، ولإخراجها من مفهوم « القوم People » إلى مفهوم « عالمية أمة الرسالة » ، فاستخلص نفراً من الحواريين الذين تخللوا عن مفهوم « شعب الله المختار » ومضوا في الدعوة إلى - العالمية - بشكل أفراد لا بشكل « أمة » . أما بقية الجماعات الإسرائيلية ، فقد ظلت حبيسة الأغلال والأصار الاجتماعية والفكرية ، التي ورثتها عن بيئة الفراعنة ، وطورها الأحرار الإسرائيليون بعد أن ألبسوها لباساً توراتياً . ولذلك ناصبت دعوة عيسى عليه السلام العدا ، وتسببوا في مزيد من تمزيق « الأمة » الوليدة ، وانقسامها إلى قسمين رئيسين أطلقوا عليهما اسم « اليهود » ، واسم « النصارى » .

(١) الطبري ، التفسير ، ج ٢ ، ص ٢٣٤ .

(٢) د . أحمد فخري ، مصر الفرعونية ، ط ٣ (القاهرة : مكتبة الانجلو المصرية ، ١٩٧١) ، ص ٤٣٣ .

ثم كانت الانطلاقة العملية الثانية التي قادها محمد صلى الله عليه وسلم في الفرع الثاني من أسرة إبراهيم - فرع إسماعيل - ، والمقيمة في منطقة المسجد الحرام ، فبلورت مفهوم « الأمة » وأصبح الشعار المميز لرسالتها ، ولما يزل مصطلحاً متميزاً ، لا يقابله في اللغات الأخرى مصطلح مواز . كذلك أصبح اسم « الأمة » مصدراً اشتقت منه أسماء مؤسسات الرسالة الجديدة ، والعاملين فيها ، والممارسات الجارية مثل : « الإمامة » و « الإمام » للصلاة أو الحكم ، و « آمين البيت الحرام » أي الحج . و « آمين » أي مقتدين . لذلك كانت ترجمة هذا المصطلح تشويهاً لمحتواه ، ومن الواجب أن يبقى كما هو في أصله العربي في أية ترجمة كانت .

ولقد كان جوهر هذه الانطلاقة الجديدة تصحيح الاعوجاج الذي لحق بالمنهج الذي مهد له إبراهيم وبدأه موسى وعيسى ، ثم استئناف المسيرة المستقيمة لهذا المنهج ، نحو غاياته العليا . ولذلك ركزت توجهات الرسالة الجديدة على مايلي :

١ - إصلاح ما انحرف من منهاج إبراهيم عليه السلام ، وذلك بدعوة فرع ذرية إسماعيل من قريش وفروعها إلى التخلص من طابع « أمة السدنة » ونوازع التكسب بالمقدسات ، وما أدخلته حمية العصبية القبلية من مظاهر الشرك والوثنية . ثم دعوة فرع ذرية إسحق من اليهود والنصارى للتخلص من طابع « شعب الله المختار » ، وما رافقه من تشويحات لأصول العقيدة والرسالة ، لصالح المترفين ، وأرباب الجاه والسلطان والكهانة ، ثم دعوة الفريقين للاجتماع في صفوف « أمة الرسالة » الجديدة ، لاستئناف المهمة الأساسية ، مهمة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والإيمان بالله بين الناس كافة .

٢ - القضاء على الانشقاقات التي حدثت في ذرية إبراهيم ، وتسببت في تقسيم نواة « الأمة المسلمة » إلى يهود ونصارى ، وماتلا هذا الانشقاق من انشقاقات أخرى تتنافى مع الغاية الكبرى التي بدأها - إبراهيم - لإخراج « أمة الرسالة » التي تعمل على جمع البشرية كلها على منهاج واحد ، في الفكر والاجتماع ، فتتوثق روابطها ، ويرقى نوعها ، وتعود إلى سابق عهدها : أمة واحدة ، ورتباً واحداً .

ولتحقيق هذا الهدف تكررت الدعوة في القرآن إلى أهل الكتاب للإقبال إلى - كلمة سواء - أي منهج موحد مستقيم أساسه « ملة إبراهيم الحنيف » .

٣ - اتخاذ الخطوات العملية التي تسهل هذه الوحدة المنشودة ، بين الانشقاقات التي أصابت مفهوم الرسالة ، بعد إبراهيم عليه السلام . ومن أجل هذه الوحدة كانت قبلة الصلاة نحو أول بيت بناه إبراهيم ، وكان الحج إليه ، ليكون مؤسسة للتربية العالمية ، وكانت حادثة الإسراء من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ، لإعادة الربط بين رسالة المسجدين ،

وتكامل دورهما في التربية والدعوة والتعليم .

ولترسيخ هذه المعاني ، كان الحديث عن تجربة قوم موسى في منطقة المسجد الأقصى - في مطلع سورة الإسراء - ليكون هذا الحديث تحذيراً لـ « أمة الرسالة » الجديدة لثلاثا تقترف ما اقترفته سابقتها من - أمة موسى - التي غفلت عن الوظيفة الأساسية للمقيمين حول المسجد الأقصى ، وانحرفت لاستغلال بركات المنطقة الجغرافية والطبيعية في الترف والشهوات والمفاسد والصراعات ، وبذلك استحققت أن يبعث الله عليها عبداً أولي بأس شديد فجاسوا خلال الديار ، ودمروا مؤسسات اللهو الدنيوي ، التي أهتهم عن وظيفة الدعوة وتبليغ الرسالة . وهذا ما فهمه أبو بكر الصديق حين حذر جيوش الفتح الإسلامي التي وجهها إلى منطقة ماحول الأقصى من الانحراف عن أهداف الرسالة الإسلامية فقال : « إنكم تقدمون الشام وهي أرض شبيعة ، وإن الله يمكنكم حتى تتخذوا فيها مساجد فلا يعلم أنكم إنما تأتونها تلهيا ، وإياكم والأشر »^(١) .

٤ - تقديم التفاصيل الكاملة لما يجب أن يكون عليه تنظيم « أمة الرسالة » ومؤسساتها وقيمها السياسية والاجتماعية والاقتصادية ونشاطاتها المختلفة في الداخل ثم تنظيم علاقاتها بالجماعات البشرية في الخارج .

وكان التحدي الأكبر الذي واجهه الرسول صلى الله عليه وسلم بعد هجرته إلى المدينة ، وشروعه في بناء أمة عالمية ، يتعايش فيها مختلف الأجناس والأعراق ، هو - قيم العصبية القبلية الجاهلية - ولقد اتخذت جهوده لمجابهة هذا التحدي مظاهر عدة منها :
المظهر الأول : هو تزكية أعضاء الأمة المسلمة الجديدة من قيم العصبية القبلية باعتبارها قيما جاهلية تنته بالية لاتصلح لهم بحال ، وتنظيم علاقاتهم طبقاً لقيم التقوى الملائمة لطور العالمية الجديد .

والثاني : هو التحذير من الردة إلى قيم العصبية الجاهلية وإدراج هذه الردة في قائمة الكبائر المخدلة في النار^(٢) .

والثالث : التنبيه إلى دور قيم العصبية في فتن المستقبل ، وما ستجره على الأمة المسلمة من كوارث ومذابح ودمار ، وهو ما تقدم تفصيلاته الأحاديث النبوية الواردة تحت - كتاب الفتن - في مصنفات الحديث المختلفة .

(١) عبد الله بن المبارك المروزي ؛ كتاب الزهد والرقائق ، تحقيق عبد الرحمن الأعظمي ، (بيروت : مؤسسة الرسالة ، بلا تاريخ) ص ١٤١ .

(٢) صحيح البخاري ، باب الفتن . صحيح مسلم ، باب الإمارة .
مسند أحمد ، ح ١ ، ص ٤٠٩ ، ٤٣٠ .
سنن النسائي ؛ كتاب البيعة ، وكتاب الزينة .

الفصل الثالث

أهمية إخراج الأمة المسلمة

الإطار العام الذي يحدد أهمية إخراج الأمة المسلمة ويحدد مكوناتها هو قوله تعالى :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ . وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَهِجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجَرُوا ، وَإِنْ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمْ النَّصْرُ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ . وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِعَهْدِهِمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٌ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ . وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا هُمْ مُعْفَرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ . وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدِ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ (الأنفال - ٧٢ : ٧٥) .

هكذا يبدو واضحاً من الآية الأولى (رقم ٧٢) أن التربية الإسلامية لا تتوقف عند إعداد الأفراد المؤمنين ، وإنما تتخذ من هذا الإعداد وسيلة لهدف آخر هو إخراج « أمة المؤمنين » التي يتلاحم أفرادها عبر شبكة من الروابط الاجتماعية التي تندرج تحت أسماء : الهجرة ، والجهاد ، والإيواء ، والنصرة ، والتي تكون محصلتها النهائية هي - الولاية - أي أن يتولى كل عضو رعاية شؤون الأعضاء الآخرين . أما الأفراد المؤمنون الذين يبقون خارج - مهجر - الأمة المؤمنة ، فهؤلاء لا فاعلية لإيمانهم ، ولا روابط ، ولا ولاية بينهم ، وبين « أمة المؤمنين » .

ومع أن الآيات المذكورة أعلاه تتضمن - كما قلنا - أهمية (إخراج الأمة الإسلامية) ، وتتضمن المكونات الرئيسة لهذه الأمة ، إلا أن الحديث في هذا الفصل سوف يقتصر على أهمية (إخراج الأمة المسلمة) بينما يؤول الحديث عن مكوناتها إلى الباب الذي يليه . أما مظاهر هذه الأهمية فهي كما يلي :

الأهمية الأولى : هي ماتبة إليه الآية الثانية - آية ٧٣ من السورة - حول الأضرار التي تنجم عن عدم (إخراج الأمة المسلمة) ، وتمثل هذه الأضرار في ضررين رئيسيين هما :

الضرر الأول : هيمنة - قيم الكفر - في الأرض ، وإخراج « أمة الكفر » ، حيث لا يقتصر الكافرون على ممارسة كفرهم كأفراد متناثرين وإنما يتجمعون في أمة يوالي بعضها بعضاً . فإذا لم تقم « أمة الإيمان » فسوف تتولى « أمة الكفر » القيادة في الأرض ، وتهيمن على مقاليد التوجيه والتخطيط والتنفيذ في كل ما يتعلق بشؤون السلم والحرب سواء .

والضرر الثاني : إن انتقال القيادة العالمية إلى « أمة الكافرين » سوف يؤدي إلى استغلال خزائن الله من المقدرات البشرية والمادية استغلالاً سيئاً ثم يكون من نتائج هذا الاستغلال السيء ملء الأرض بالفتن والفساد الكبير : فتن في ميادين السياسة ، وفساد في ميادين الاجتماع ، وتشيع الصراعات والحروب الداخلية أو الإقليمية أو العالمية ، وابتسار الفساد الكبير ، الذي يتمثل في الانهيارات الأخلاقية ، وشيوع التحلل والفواحش ، وانتشار الفلسفات والأفكار الهدامة وغير ذلك .

والأهمية الثانية : لقيام « أمة المؤمنين » ، هي ما توجه إليه الآية الثالثة - آية ٧٤ من السورة - حول الفوائد والمنافع التي تترتب على إخراج « الأمة المسلمة » ، وهي ثلاث فوائد :

الفائدة الأولى : تجسيد الإيمان في « جنسية » مميزة و « هوية » خاصة ، وفي حضارة إسلامية ، لها ثقافتها ونظمها الاجتماعية ، وتطبيقاتها في ميادين السلوك والقيم ، والعادات والتقاليد ، الممتدة عبر الزمان والمكان . ولذلك وصفت الآية بأن أفراد « الأمة المسلمة » المجاهدين المتأوين المتناصرين في مهجر واحد « هم المؤمنون حقاً » . أما الأقليات الإسلامية المبعثرة هنا وهناك فهذه لا تدخل في وصف « المؤمنون حقاً » لأنها لا تتمكن من أن تعيش إيمانها في « جنسية متميزة » وتطبيقات اجتماعية لها ثقافتها ولغتها ونظمها الاجتماعية والاقتصادية والتربوية ، ولها قيمها وعاداتها وتقاليد وأخلاقها . وبالتالي لا تفرز حضارة متميزة ، تنحدر عبر التاريخ ، وتشد إليها الرحال ، ليتعلم الناس في مؤسساتها التربوية والإدارية كيفية الحفاظ على النوع البشري ورفقه . وإنما تذهب جهود هذه الأقليات هدرًا في روافد أمة غير مسلمة « ثم تدوب وتختفي بعد جيل أو جيلين . ولذلك لن يكون قبول حياة « الأقلية » إلا ضرورة مؤقتة ، حتى ينجح العمل الإسلامي الصائب في إيجاد مهجر تقوم فيه « أمة المؤمنين » ، فإذا قامت صارت حياة الأقلية رضىً بالاستضعاف في الأرض ، وظلمًا للأنفس ، ووضعها في بيئات مرهقة للإيمان ، تهدد بذهابها والانهاء بأصحابه إلى عقوبة الله .

ولذلك حدد القسم الثاني من الآية الأولى العلاقة بين « الأمة المسلمة » و « الأقليات المسلمة » المتناثرة خارج - دار الهجرة - بأن أفرغ هذه العلاقة من - الولاء والولاية - أي عدم

المسؤولية عن الأقليات ، إلا ما كان من نصرتها إذا تعرضت لاضطهاد ديني ، من قبل أمم لاتربطها بالأمة المسلمة موثيق ولا معاهدات . وإن الباحث ليلمح في هذه العلاقة السلبية بين « الأمة المسلمة » و « الأقليات المسلمة » خلق نوع من الأوضاع القلقة غير المريحة التي تجبر الأقليات المذكورة على الهجرة إلى مهجر « أمة المؤمنين » .

والفائدة الثانية : هي الاستقرار الاجتماعي والاستقرار السياسي المشار إليهما بـ « لهم مغفرة » . فالمغفرة هي تجنيب الأمة المسلمة عقوبات أخطاء الأمم . وعقوبات الأمم في القرآن الكريم متنوعة ، منها ثوران الأحقاد الداخلية ، أو إشاعة الفتن والحروب في الداخل ، أو تسليط الغزاة من خارج :

- ﴿ قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبَسَكُمْ شِيْعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ ، انظُرْ كَيْفَ نَصَرْتُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴾ (الأنعام : ٦٥) .

- ﴿ بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ ﴾ (الإسراء : ٥) .

والفائدة الثالثة : هي الازدهار الاقتصادي المصحوب بالتسامك الاجتماعي ، والعلاقات الكريمة بين طبقات الأمة وأفرادها ، والمحافظة على كرامة الأمة وعلى قيمها وأخلاقها في الداخل ، وسمعتها التاريخية في الخارج . فـ « الأمة المؤمنة » ، رزقها « رزق كريم » يحفظ كرامات الأفراد رجالاً ونساءً ، فلا تضطرهم لقمة العيش إلى التفريط بكراماتهم وحرمانهم ولا إلى تجارة الفواحش والمنكر . وهو « رزق كريم » يحفظ كرامة الأمة التاريخية فلا يبلطخ سمعتها ، ويصمها بعار الغزو والاستعمار والتسلط والاحتلال ، وهو يحفظ كرامتها الحضارية ، فلا يضطرها إلى ممارسة الفضائح ، ونقض الموثيق ، والتآمر على الأصدقاء ، وإيثار المنافع المادية على علاقات الرقي الحضاري . وهو « رزق كريم » يحفظ كرامة الأمة الاجتماعية ، فلا تحتاج إلى مقدمة أعراضها ونسائها كراقصات ومغنيات وغوانٍ في أماكن اللهو والفاحشة لتجلب السائحين وطالبي المتع المحرمة الضارة ! وأخيراً هو « رزق كريم » يحفظ للأمة المسلمة كرامتها عند الله ، ويمنحها كرامة الدرجات العلى في الآخرة ، سواء في المنزلة أو المأوى .

والأهمية الثالثة لقيام « أمة المؤمنين » : هي ما توجه إليه الآية الرابعة - آية ٧٥ من السورة - من خلال الإشارة إلى أن - الأمة المسلمة - هي مجتمع مفتوح غير مغلق . فباب الهجرة إليه مفتوح ، والانضمام إليه ، له شرط واحد فقط هو الإيمان والمشاركة في حمل الرسالة ، مع مراعاة روابط الأرحام بين المهاجرين في جميع الأزمان ، حتى لا يؤدي اختلاط المهاجرين بدون ضوابط ، إلى التفكك الاجتماعي . فالله عليهم بقوانين الاجتماع السليم

وغير السليم وبالتائج الحسنة أو السيئة .
وبسبب هذه الأهمية (لإخراج الأمة المسلمة) أدرك رجالات الأمة الإسلامية الأوائل
أهمية إخراج « الأمة المسلمة » ومتطلبات العضوية فيها . من ذلك ما قاله عمر بن الخطاب
حين قرأ قوله تعالى : ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ قال :
« يَا أَيُّهَا النَّاسُ مَنْ سَرَهُ أَنْ يَكُونَ مِنْ تَلْكَمُ الْأُمَّةِ فَلْيُؤَدِّ شَرْطَ اللَّهِ فِيهَا »^(١) .

(١) الطبري ، التفسير ، ج ٤ ، ص ٤٣ - ٤٤ .

الباب الثاني

مكونات الأمة المسلمة

والإطار العام الذي يحدد المكونات الرئيسية لنموذج الأمة المسلمة هو قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ﴾ (الأنفال : ٧٢) .

هذه هي مكونات الأمة المسلمة : أفراد مؤمنون ، وهجرة ومهجر ، وجهاد ورسالة ، وإيواء ، ونصرة ، وولاية^(١) .

ويمكن أن تمثل هذه المكونات بالمعادلة الرياضية التالية :

أفراد مؤمنون + هجرة وتجمع في مهجر واحد + رسالة وجهاد + إيواء + نصره = أمة مسلمة ذات ولاء متبادل .

الفصل الرابع

العنصر الأول : الأفراد المؤمنون

لا يهدف البحث هنا إلى استعراض - الأفراد المؤمنين - كقائمة تحمل « معتقدات » معينة عن الخالق والمنشأ والحياة والمصير ، كما هو في مقررات العقيدة في المعاهد والكلليات الشرعية . وإنما الهدف هو تقديم الأفراد المؤمنين كعنصر من عناصر الأمة المسلمة الملائمة للطور الحاضر : طور العالمية الذي جاءت الرسالة الإسلامية على أبوابه لتزود أهله بالقيم وشبكة العلاقات الاجتماعية ، التي تساعد على بقاء النوع البشري ورفقه .

(١) يراجع تفاصيل هذه العناصر الخمسة في كتاب مقومات الشخصية الإسلامية - سلسلة كتاب الأمة (قسط) - رقم (٢٩) - للمؤلف .

وانطلاقاً من هذا الهدف يركز البحث على ثلاثة موضوعات : الأول : أهمية الأفراد المؤمنين كعنصر من عناصر الأمة . والثاني : أهمية « الهوية » و « الجنسية » و « الثقافة » الإيمانية في العالم المعاصر . والثالث : دور التربية في بلورة محتوى الثقافة الإيمانية وتنشئة إنسان التربية الإسلامية عليها .

أولاً - أهمية الأفراد المؤمنين كعنصر من عناصر الأمة :

تبدو أهمية - الأفراد المؤمنين - في أن هذا النوع من البشر هو الذي يحقق للأمة التوازن الاجتماعي ، والصحة النفسية . ذلك أن طبيعة الإنسان - كما يعرضها القرآن الكريم ويثبت ذلك ممارسات الإنسان على الأرض - تشير إلى أن تكوينه النفسي شبيه بتكوينه الجسدي ، أي يتكون من عناصر تتحد حسب نسب معينة ، وتفرز تركيباً معيناً ، يمثل حالة الصحة فإذا اضطربت نسب هذا التركيب ارتفاعاً أو هبوطاً ، دخل حالة المرض . والحالات التي يمر بها التكوين النفسي للإنسان هي حالات : الوسطية ، والطغيان ، والهوان ، وتمثل الحالة الأولى مظهر الصحة الذي يضمن للإنسان السلام ، بينما تمثل الحالتان الثانية والثالثة مظهر المرض الذي يهدد سلامة الإنسان نفسه . وإلى هذه القابلية المرضية يشير قوله تعالى :

﴿ وَخَلَقَ الْإِنْسَانَ ضَعِيفًا ﴾ (النساء : ٢٨) .

والإيمان بالله - بمفهومه الإسلامي - هو العامل الحاسم في تقرير حالات الصحة أو المرض المشار إليها ، إذ أن إحساسه بالمسؤولية أمام الله يقيه في منزلة - الوسطية - فيمنعه من « الطغيان » وتجاوز الحدود والاعتداء على وجود الآخرين إذا كان في حالة القوة والغنى ، و يقيه من « الهوان » والسكوت على استباحة الطاغين لحرماته ، إذا كان في حالة الضعف والفقر .

فإذا غاب - الإيمان بالله - من وجود الإنسان ، تذبذب بين مرضي الطغيان والهوان ، وتراءى له - عند المرض الأول - أنه مستغنى بنفسه لاحتجاجة له لغيره ، وأنه قادر على الإمساك بسنن الوجود ، وأحداثه ، وضربه الفرح والفخر والبطر ، وادعى القدرة والعلم . أما في حالة - المرض الثاني - فإن الإنسان يصاب بالكفر واليأس والهبوط من المنزلة الإنسانية بين المخلوقات .

ولكن الإيمان بالله لا يمد الإنسان بعافية « الوسطية » و يقيه من مرضي « الطغيان » و « الهوان » إلا إذا استمد محتواه من الاجتماع البشري ، وتجسدت تطبيقاته في قلب الاجتماع الإنساني . وأبرز هذه التطبيقات هي :

بلورة « هوية » الإنسان الحقيقية ،

ومنحه « جنسية » إيمانية واحدة .

وتزويده بـ « ثقافة » واحدة ذات مؤسسات واحدة .

أما عن بلورة « هوية » الإنسان الأصلية فإن - آيات الله في الكتاب - تمد العاملين في مجال التربية بإطار عام لهذه الهوية ، يبين أن الإنسان مفتطور على الصلاح والخير . ولكن فطرته هذه رقيقة ضعيفة ، يضرها المرض ، فيفسد في الأرض ويسفك الدماء ، ولكن التربية الإيمانية تحصنه من قابليته المرض ومضاعفاته في الإفساد والشر .

ولقد عانى علم النفس الحديث كثيراً حتى استشرف هذه الحقيقة عن طبيعة الإنسان . وهو استشراف مازال في مراحل الحديث النظري ، ولما يأخذ طريقه إلى ميادين التطبيق العملي في التربية والسياسة والاجتماع والاقتصاد . ولقد قام - أبراهام ماسلو Abraham Maslow - رائد علم النفس الإنساني بأبحاث واسعة في ميدان البحث في الطبيعة الإنسانية ، وخلص إلى تعديلات كبيرة في معارف علم النفس عن الإنسان ، وانتهى إلى الإطار الذي يرسمه القرآن في هذا المجال . ومما قاله في هذا الشأن :

« إن غلظة فرويد Freud الكبيرة ، والتي نحاول تصحيحها الآن ، هي أنه اعتقد أن العقل الباطن مجرد شر غير مرغوب به . ولكن العقل الباطني يحمل معه أيضاً جذور الإبداع ومتع السعادة ، والخير ، وقواعد الأخلاق ، والقيم الإنسانية ، فنحن الآن نعلم أن هناك عقلاً باطنياً صحيحاً وسليماً ، مثلما هناك عقل باطني سيء وسقيم . وتقوم مدارس علم النفس الحديثة بدراسة هذا بطريقة كاملة ، كما أن المعالجين النفسيين بدأوا يضعون هذا المفهوم موضع التطبيق . . . »⁽¹⁾

ويحدد - ماسلو - الإطار الحديث الذي توصل إليه علم النفس عن الطبيعة الإنسانية في الخطوط العريضة التالية :

- في داخل كل فرد طبيعة بيولوجية أساسية هي إلى درجة معينة طبيعية وجوهرية وهي غير قابلة للتغير .

- كل طبيعة داخلية هي جزء متميز في كل فرد ، من ناحية ، ومن ناحية أخرى هي مشتركة في الجنس الإنساني كله .

- يمكن دراسة هذه الطبيعة علمياً واكتشافها والتعرف عليها .

- لا تبدو هذه الطبيعة الإنسانية شريرة بالأصل ، وإنما الحاجات الأساسية لها والعواطف الإنسانية الأساسية ، والطاقات الإنسانية الأساسية ، هي بالأصل محيطة وإيجابية وخيرة .

(1) Abraham Maslow, The Farther Reaches of Human Nature, P.167.

أما النزعة للتخريب « والسادية » والقسوة والحقد وأمثال ذلك ، فيبدو أنها ليست أساسية وإنما هي ردود فعل عنيفة ضد الإحباطات والفشل في تحقيق الحاجات الأساسية .
- بما أن هذه الطبيعة الإنسانية الداخلية محايدة وخيرة فمن الأفضل استخراجها وتشجيعها أكثر من كبتها والضغط عليها ، وإذا سمح لها أن توجه حياتنا فسوف نعيش أصحاباً ومنتجين وسعداء .

- وإذا تعرض جوهر الإنسان هذا للضغط أو الرفض فسوف يعتره المرض بطريقة واضحة أحياناً وبطرق ملتوية أحياناً أخرى ، وأحياناً في الحال ، وأحياناً فيما بعد .
- هذه الطبيعة الإنسانية ليست قوية وصلبة وليست معصومة من الخطأ وإنما هي ضعيفة ورفيعة ، ومن السهل أن تتغلب عليها العادة والضغط الثقافي والاتجاهات الخاطئة⁽¹⁾ .
ولقد أثبت تاريخ الإنسان على الأرض أن هذه الطبيعة الخيرة في الإنسان لا يستخرجها إلا الإيمان بالله ، وما يقتضيه هذا الإيمان من أعمال وتطبيقات .

وأما عن « الجنسية » فالقرآن واضح وصريح في اشتقاق جنسية الإنسان من « الأفكار » التي يدور في فلکها . فالذين يدورون في فلک - أفكار - الرسالة الإسلامية أساهم « المؤمنین » ، والذين يكفرون - أي يحجبون ويخفون - أفكار الرسالة ويقفون عند « أفكار » خاطئة تقتصر على معالجة الرغبات العاجلة في محطة - الحياة الدنيا - يطلق عليهم اسم « الكافرين » ، والذين ينفقون « الأفكار » من أجل تعزيز ولاءهم لـ « الأشخاص » و « الأشياء » يطلق عليهم اسم « المنافقين » .

والنموذج الأول - نموذج المؤمنین - هو الذي تشق « جنسية » الإنسان المسلم منه وتتطلع التربية الإسلامية إلى تنشئته . ويشدد القرآن الكريم على هذه الجنسية ويربط بينها وبين الغاية من (إخراج الأمة المسلمة) والوظيفة التي أخرجت من أجلها . من ذلك قوله تعالى :

﴿ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ، مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ ، وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴾ (الحج : ٧٨) .

ويلحق بـ « جنسية » الإنسان المؤمن « طبقته » داخل الأمة المسلمة . وتتقرر هذه الطبقة طبقاً للدرجة - اتقائه - من الإصابة بمرض الطغيان أو الهوان . وإلى هذا المقياس يشير

(1) Abraham Maslow, Foward a Psychology of Being, PP. 3-4.

قوله تعالى :

﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ (الحجرات : ١٣) .

وهذا المقياس تحددت في مجتمع النبوة طبقات الأمة المسلمة ، فظهرت طبقة « المهاجرين » و « طبقة الأنصار » و « طبقة الطلقاء » و « طبقة المنافقين » . وهذا مقياس لا اعتبار فيه لعامل القوة الذي يدور في فلك « الأشخاص » ولا لعامل الثروة الذي يدور في فلك « الأشياء » وإنما يقوم على أساس اتقاء مرضي الطغيان والهوان الذي يدور في فلك « أفكار » الرسالة الإسلامية .

ولقد أثبت تاريخ الحضارة الإسلامية أنه طالما ظلت « جنسية » الإنسان المسلم تستمد من « هوساكن المسلمين » فإن الأمة المسلمة ظلت تعيش لحمل الرسالة إلى الناس في الخارج ، وظلت « الطبقة العليا » مفتوحة لكل من « اتقى » مرضي الطغيان والهوان مهما كان أصله ولونه وغناه أو فقره . وحين تحولت لتشتق « الجنسية » من الولاء لـ « أشخاص » الحاكمين و « أشيائهم » و « أقاليمهم » توقفت عن حمل الرسالة واشتغلت بغيرها من أشياء الدنيا ومالكي هذه الأشياء وظهر فيها الأشراف والموالي والسادة والمستخدمين والماليك .

وأما عن « ثقافة » الإنسان المؤمن فهي تعني - هنا - : القيم ونظم الحياة ، والإدارة ، والعادات والتقاليد ، والأخلاق ، والفنون التي تجسد الإيمان في تطبيقات عملية تميز حياة المؤمنين عما سواها ، وتحمل التفاصيل المتعلقة بهذه الثقافة جزءاً كبيراً من القرآن الكريم . من ذلك قوله تعالى :

﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا . وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا . وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا . وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا . إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا . وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا . وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا . يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا . إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا . وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا . وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا . وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخْرُؤْا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا . وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا ذُرِّيَّتًا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا . أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا . خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴾ (الفرقان : ٦٣ - ٧٦) .

والحديث النبوي وتطبيقات السنة ، مجددان للثقافة والقيم الإسلامية قوائم سلوكية تصل

إلى بضع وستين شعبة ، أوضع وسبعين ، تتكون منها مجتمعة « ثقافة » إيمانية فعالة توجه النشاطات والممارسات ، وتقيم شبكة علاقات اجتماعية ، تبلغ بالأمة المسلمة مرتبة الجسد الواحد الذي إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى^(١) . كذلك قام لهذه « الثقافة » الإيمانية حدود مميزة منعها من التداخل مع « الجنسيات » و « الثقافات » المستمدة من الانتهاآت العرقية والإقليمية والمصالح المادية . والتوجيهات القرآنية في هذا الشأن كثيرة صارمة منها قوله تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَاتَّخَذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ ، وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ، قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا ، وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِينُ تَرْضَوْنَهَا ، أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ ، فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ، وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ (التوبة : ٢٣ - ٢٤) .

ثانيا - أهمية « الهوية » و « الجنسية » و « الثقافة » الإيمانية في العالم المعاصر :

في الماضي ، أدت نظريات « هوية » الإنسان مثل « الدارونية الاجتماعية » و « التقسيمات العرقية » و « الأديان القائلة بطبقية الخلق » إلى ظهور سياسات الصراع والبقاء للأقوى ، والغزو ، والاستعمار ، وظهور ممارسات التسلط الطبقي ، وعدم المساواة ، والرق ، والاستثمار بمصادر العيش . وجميع هذه التطبيقات مازالت تهيمن على السلوك البشري والعلاقات بين الأفراد والجماعات والشعوب وتملأ حياتهم بالقلق والاضطراب والسقاء والمآسي .

كذلك أدت صعوبة المواصلات وقصر مسافات السفر ، وضيق دائرة الحركة - في الماضي - إلى ظهور الحدود الإقليمية والقومية . فكان الإنسان لا يتحرك في الغالب إلا داخل حدود الإقليم ، وكان الفرد يجد في المجتمع القائم على انتهاآت الدم والعصبيات القبلية والإقليمية والقومية مايشبع حاجته في الانتها . ولذلك كانت هذه الانتهاآت هي المصادر الوحيدة لتحديد « الجنسية » وبلورة « الثقافة » . فكانت الإقامة الدائمة والتواصل الدائم يوفران نوعاً من القيم المحلية التي يمكن أن نسميها « قيم المصانعة » ، وهي قيم تقوم على خجل الناس بعضهم من بعض ، ومراعاة شؤون بعضهم بعضاً ، والتردد عن الإساءة لبعضهم بعضاً ، فإذا اشتدت الخلافات وانفجرت الخصومات كان للقيم المذكورة دورها في

(١) للاطلاع على شعب الإيمان راجع كتاب - شعب الإيمان - للبيهقي . أو كتاب - الإيمان - لابن مندة .

إصلاح العلاقات وترميمها . وهكذا تطور نوع من الثقافة والعادات والتقاليد التي تسهم في انسجام الأذواق محليا ، ويذر بذور الخلاف عالميا .

ثم جاء العصر الحاضر - عصر التكنولوجيا وقرية الكرة الأرضية - فأفرز ظاهرتين فريدتين . . الأولى : تزويد الإنسان بأدوات فاعلة يمكن استعمالها للدفاع عن الإنسان وبناء حياته ، أو لفناء الإنسان وتدمير مقومات حياته . والإيمان بالله هو العامل الحاسم في أحد الاستعماليين . والظاهرة الثانية : هي انهيار الحدود بين الأقطار والقوميات والثقافات ، وتفتت القبائل والعائلات ، ووهنت روابط الدم والإقليم إلا في أماكن معزولة ومواقف هشّة متسارعة الانهيار والانحسار ، ودخلت المجتمعات البشرية في طور جديد تتميز الحياة فيه بالإقامة الموقوتة والحوار الموقوت ، وانقلب التجانس الثقافي إلى « خلطة » مضطربة من الثقافات والتقاليد والعادات والقيم في المدينة الواحدة ، وأحياناً في البناية الواحدة ، مما ساعد على تمزق الروابط القائمة ، وتنافر الأذواق والتوتر في العلاقات في المواقف المختلفة ، ووجد الإنسان المعاصر نفسه يعيش في تجمعات وأكوام بشرية مجردة من الروابط والانتماآت ، إلا ماكان من روابط المصالح المتذبذبة والشهوات الآنية الموقوتة .

ولقد أفرزت هذه التغيرات المضطربة أزمات ثلاث . . الأولى : عدم ملاءمة « الهوية » الشائعة عن الإنسان . والثانية : عدم ملاءمة « الجنسية » المحلية التقليدية . والثالثة : انهيار نظم « الثقافة والقيم » المحلية القديمة .

أما عن الأزمة الأولى : فإن « الهوية » التي طرحتها - ومازالت تطرحها - الدارونية الاجتماعية للإنسان والقائمة على أن البقاء للأقوى ، قد بررت عمليات القتل والجريمة سواء بين الأفراد والطبقات داخل كل مجتمع ، أو بين المجتمعات والمجتمعات الأخرى . ولانقتصرت مضاعفات هذه « الهوية » على شعوب العالم الثالث المتخلف تكنولوجيا ، وإنما تشمل العالم المتقدم تكنولوجيا ، ويتفوق في أدوات القتل والدمار . فالأفراد « الأمريكيون والأوروبيون » الذين يجاربون « الآسيويين والأفارقة » في جيوش تستولي على مصادر الثروة والطاقة ، هم أنفسهم الذين يعودون إلى بلادهم ليقتل بعضهم بعضاً من أجل مافي جيوبهم من جنيتها ودولارات .

وأما عن الأزمة الثانية : فقد تحولت - الجنسية - المحلية إلى قيد خانق لحرية الفرد في التعبير والاختيار في الداخل ، وحرية في التنقل والعمل والإقامة في الخارج . ففي الداخل قامت علاقات « الجنسيات » المستمدة من العصبية العائلية والإقليمية والقومية على أساس هيمنة عصبية معينة على بقية العصبية ، والاستئثار بالجاء والتملك ، مما تسبب في ظهور علاقات الريبة ، وعدم الثقة ، والخوف ، والتأمر ، وقيام المؤسسات

البوليسية ، ودوائر التجسس ، والمخابرات ، لتقصي نشاطات خصوم العصابات الحاكمة ، ومجابتها .

وفي الخارج اشتعلت الصراعات الدولية ، وقامت علاقات الدول على المخادعة والتجسس والتآمر ، ثم الانتهاء إلى الصراع المكشوف ، والانفجارات العسكرية المدمرة . وفي المجال الاقتصادي أشاعت « الجنسيات » المستمدة من العصابات العائلية والإقليمية والقومية ، الاحتكار والترف في ناحية ، والحرمان والفقر في ناحية أخرى . وتسببت بظواهر الاستعمار ، والعدوان ، ونهب ثروات الشعوب ، في الوقت الذي تضع الدول المستعمرة - بكسر الميم - الحواجز والعراقيل ، وقوانين السفر والإقامة ، التي تمنع أصحاب « الجنسيات » المستعمرة - بفتح الميم - والمغايرة ، من المساواة في فرص الإقامة ، ومصادر العيش الكريم .

لهذا كله صارت المجتمعات المعاصرة بحاجة إلى مفهوم جديد في « الجنسية » ، مفهوم لانتحكم به عصابات عرقية أو إقليمية أو مصالح مادية . ومن الإنصاف أن نقول : إن شعوب أوربا وأمريكا قد نزعت عن « الجنسيات » فيها قيود السفر والعمل والإقامة وأحالتها إلى مجرد أدوات لـ « التعارف » ، تماماً كما يوجه إليه قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ﴾ (الحجرات : ١٣) ، بينما يستمر « فقهاء السلطة » يسهمون في تعزيز سجون « الجنسيات » العصبية وقيودها ومضاعفاتها التي أدت إلى وفاة الأمة الإسلامية ومزقتها في الأرض كل ممزق .

وأما عن الأزمة الثالثة : أي انهيار نظم « الثقافة والقيم » المحلية القديمة فقد صار الإنسان المعاصر يعاني مما يسميه علماء الاجتماع وعلماء النفس : الإحباط وخيبة الأمل Frustration، والإحساس بالاغتراب Alienation، والشعور بالضعف Powerlessness، والمعاناة من عدم الانسجام ومظاهر الشذوذ في الحياة والسلوك Normlessness .

ولقد حل محل القيم المحلية المنهارة قيم جديدة يمكن أن نسميها - قيم المصلحة - وهي قيم تشبه مناديل الورق ، التي يستعملها الإنسان للحظات أو دقائق ثم يلقي بها في سلة النفايات وبراميل القاذورات . لذلك أصبح المجتمع المعاصر يعاني من مظاهر التفكك والانحلال واللامبالاة وانهيار الصداقات والعلاقات ، دون أن يحسب الناس لبعضهم بعضاً كبير حساب .

لهذا كله صارت المجتمعات المعاصرة بحاجة إلى مفهوم جديد في « الثقافة والقيم » التي توفر للإنسان حاجاته في الانتفاء والتقدير أينما حل وأقام ، وتوفر له الأمن والاستقرار أينما سافر وعمل .

ولكن الحلول التي يطرحها المختصون لأزمة « الثقافة والقيم » مازالت حلولاً متخلفة قاصرة ، بل إن بعضها ليزيد الطين بلاءً ، والويل ويلات . ومثال ذلك مايقترحه - ألفن توفلر Alvin Toffler أحد مشاهير المفكرين المستقبليين Futurists في كتبه المختلفة ، مثل كتاب : - صدمة المستقبل Future Shock - الذي طبع في سنة واحدة تسع طبعات بلغ عددها ٢٧ مليون نسخة ، كما ترجم إلى عدة لغات ومازال يطبع ويترجم بنفس الكثافة والانتشار .

لقد عالج - توفلر - التغيرات الكاسحة التي تحدثها التكنولوجيا في شبكة العلاقات الاجتماعية على المستويات المحلية والعالمية ، واجتهد أن يضع شبكة علاقات جديدة لمجتمعات المستقبل . ولقد كان في تشخيصه دقيقاً عميق الحس ؛ فهو مثلاً يذكر أن التكنولوجيا الحديثة حولت المجتمعات الحديثة إلى من أساهم - البدو الجدد The New Nomads - الذين يركبون الطائرات بدل الجمال ، وينزلون في المطارات بدل المضارب ، وينامون في الفنادق بدل الخيام ، ويحملون الحقائب بدل - الأخراج والأكياس - وكذا . . .

ولكن معالجته وحلوله جاءت بالطامات الكبرى . فهو - مثلاً - يقترح « النسبية المطلقة » في القيم والأخلاق والسلوك ، ويدعو إلى تبرير جميع ألوان الشذوذ والانحراف ، وتدمير الأسر ، والروابط الاجتماعية ، وإلى إيجاد مؤسسات الأمومة ، وتفريخ الأطفال بالجملة ، والزواج المؤقت ، واستئجار الأرحام ، وبيع النطف ، والسحاق بالأسر التي يكونها ذوو الشذوذ الجنسي ، وبالصدقات الموقوتة ، على أن يكون المحور الذي تدور في فلكه كل هذه الظواهر المقترحة هو توفير الطاقات العاملة لمراكز الإنتاج والعمل^(١) .

ولو تعدينا - ألفن توفلر - إلى غيره من مشاهير المفكرين من أمثال : ثيودور روزاك ، ودانيال بل ، وفرتز شوماخر ، وديفيد بربل ، ورينه دوبو ، لوجدنا أيضاً أن إبداعاتهم تقف عند تشخيص الأزمة القائمة في « الثقافة والقيم » . أما المعالجة والحلول فلا تتعدى صيحات التحذير ، واستنفار المختصين ، والدعوة إلى تضافر الجهود ، للبحث عن شبكة علاقات اجتماعية جديدة ، مع مراعاة الانفتاح على ثقافات العالم كله ، والاستعداد لتقبل البديل المنقذ المناسب^(٢) .

وهناك فريق ثالث يحمل اسم - الواقعيين - ، وهؤلاء يبررون الصراعات الداخلية

(١) Alvin Toffler, Futuer Shock, PP. 95-262.

(٢) راجع - فلسفة التربية الإسلامية - للمؤلف : ص ٥٧ - ٦٣ ، ٢٥٨ (طبعة ثانية) .

والحروب الخارجية على أساس أن الحياة تنظمها قوانين البقاء للأقوى أو ما يسمى بـ « الدارونية الاجتماعية » . وهذه فلسفات تبرر عمليات الصراع والقتل والتدمير وترك الإنسان المهزوم لمصيره في الهلاك ، إذا نزلت به الكوارث العسكرية والطبيعية والأزمات الاقتصادية^(١) .

وحين نتمعن النظر في الخارطة الفكرية للعالم المعاصر : عالم قرية الكرة الأرضية الذي استحالت فيه القارات إلى حارات ، والأجناس إلى عائلات ، والأقطار إلى بيوت ، لانجد منقذاً إلا أن تتوجه البشرية إلى عنصر الإيمان بمفهومه الإسلامي لتستمد منه « هويتها » و « جنسيتها » و « ثقافتها » ، وليمدها بقيم التقوى التي تلازم البدو الجدد - حسب تسمية ألفن توفلر - أينما رحلوا وأينما حلوا ، وتشدهم إلى قوة أعلى هي معهم أينما كانوا ، تراقبهم ويراقبونها ، ويحسبون حسابها أينما كانوا ؛ قوة الله القائل :

﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَمَا كُنْتُمْ ﴾ (الحديد : ٤) .

﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴾ (ق : ١٦) .

ولا بد من التأكيد على دور التربية في إخراج الأفراد المؤمنين وتنمية تطبيقات الإيمان في « الهوية » و « الجنسية » و « الثقافة » .

في ضوء هذا المفهوم المؤصل للإيمان تحتاج التربية الإسلامية إلى إعادة تأصيل إخراج الأفراد المؤمنين من خلال التالي :

١ - إعادة تأصيل « هوية » الإنسان ، واستخراج فطرته الخيرة ، والاستفادة في ذلك من مكتشفات علم النفس في آيات الأنفس كما مر في صفحات سابقة .

٢ - إعادة تأصيل أساليب إخراج الفرد المؤمن ، بحيث تتفاعل في نفسه آيات الوحي في الكتاب ، مع آيات الله في الأفاق والأنفس في مختبرات العلم ، ويتضافر القسآن لاستخراج معجزات العصر ، وبذلك يولد اليقين وتتجسد صلاحية القرآن لكل زمان ومكان .

٣ - إعادة تأصيل مفهوم الإيمان ليشمل المظهر الاجتماعي للعبادة بدل حصره في المظهر الديني وحده ، ولتتمركز تطبيقاته في قلب الاجتماع البشري على الأرض بدل نفيه في غيبات خارج خلق الله ، بعيداً عن رحلة الإنسان عبر الحياة والمصير .

٤ - بلورة المعادلات العملية في جميع التوجيهات الاجتماعية التي تحتوي عليها « الثقافة » الإيمانية ، مع مراعاة ملاءمة هذه المعادلات لحاجات الزمان والمكان ، لأن التوجيهات الإسلامية هي توجيهات عامة ، تركت المجال مفتوحاً لرؤية نعمة الله في العقل البشري

(١) راجع - أهداف التربية الإسلامية - للمؤلف ، ص ٢٦٩ - ٢٧١ .

حين يقوم الإنسان بالاجتهاد ، الذي يفرض معادلات الإيمان العملية ، ويحوّلها إلى قيم وتطبيقات سياسية وإدارية واقتصادية واجتماعية وثقافية وعسكرية ، مع توفير المؤسسات والأدوات اللازمة لهذه التطبيقات ، شريطة أن يكون على رأسها تحديد « هوية » الإنسان و « جنسيته » و « ثقافته » و « محور لوائه » بما يتفق مع أقدار الله - أي قوانينه وسننه - في القرآن والسنة ، دون إشراك لعصبيات العائلة أو العرق أو اللون أو الأقليم أو المصالح الاقتصادية .

٥ - تربية الناشئة - وغير الناشئة - على « الهوية » الإيمانية ، و « الجنسية » الإيمانية ، و « الثقافة » الإيمانية ، تربية عملية . وهذا يعني قيام المؤسسات التربوية بتحويل المعادلات العملية للإيمان إلى مناهج وأنشطة ، يعيشها المتعلمون في حياتهم اليومية ، وفي علاقاتهم العامة ، ويرونها ماثلة في التطبيقات الإدارية والسياسية والاجتماعية وغيرها . ولا بد للمؤسسات التربوية أن تعمل على ترسيخ الشعور بالمسؤولية إزاء متطلبات « الجنسية » الإيمانية ، وتنمية المهارات العقلية والعملية عند المتعلمين لتساعدهم على التعرف على مظاهر « الجنسية » الإيمانية ، وعلى تحويلها إلى أعمال وممارسات في مواقف الحياة المختلفة .

ولا بد هنا من التنبيه إلى خطورة الاختصار على التربية النظرية التي لاتصحابها تطبيقات عملية . ذلك أن آثار هذه التربية كآثار التعلم الإشرافي عند السلوكيين . إذ من التجارب التي أجراها السلوكيون في هذا المجال ، تجربة الكلب الذي اعتاد على أكل الدجاج الحي . ولمعالجة هذه العادة علقوا بعنق الكلب دجاجة ميتة لا يستطيع الوصول إليها ، ولا التخلص منها . فكانت النتيجة أن رائحة التنت انتهت بالكلب إلى كراهية الدجاج كله حيا وميتا .

وهكذا التربية النظرية التي تصحبها تطبيقات عملية تنته ، أو مخالفة ، تنتهي بالمتعلم إلى اليأس والإحباط ، وعدم تصديق الدعاوى المنادية بالقيم الخيرة ، والأعمال الإيمانية الصالحة . وهنا تبدو حكمة الله في تخصيص أكبر مقته للذين يقولون ما لا يفعلون .

٦ - إبراز أهمية تكامل عناصر - الأفراد المؤمنين - أي : « الهوية » و « الجنسية » و « الثقافة » والتأكيد على استحالة الفصل بينها أو وجود أحدها دون الآخر . فالأمة التي تتحدد فيها « هوية » الإنسان و « جنسيته » على أساس الإيمان ، هي وحدها التي تكون « ثقافتها » أي : قيمها ونظمها وأخلاقها وعاداتها وتقاليدها وفضائلها ، وفنونها وشبكة العلاقات الاجتماعية فيها ، مستمدة من الإيمان وذات مضامين إيمانية .

أما الأمة التي تتحدد « الجنسية » فيها طبقا لعصبيات فلا تكون « ثقافتها » إلا مثلها . وهذا يفسر التناقضات القائمة في الأقطار الإسلامية المعاصرة ، والفصام الحاد

العائلة أو القبيلة أو الدقليم أو العوسية

القائم بين انتماءاتها الإسلامية وممارساتها الاجتماعية والسياسية والإدارية والأخلاقية ،
وسائر مظاهر شبكة العلاقات الاجتماعية القائمة فيها . وهو أيضاً سبب العلاقات
السلبية المتفجرة بين حكومات هذه الأقطار والجماعات العاملة في الحقل الإسلامي .
٧ - تنفيذ التطبيقات المخالفة لـ « الهوية » و « الجنسية » و « الثقافة » الإيمانية
كالجنسيات والثقافات الإقليمية القائمة في ديار المسلمين وما ينتج عنها من ممارسات
إدارية وسياسية خاصة في قضايا الحدود وشؤون الهجرة والإقامة والسفر والعمل
والتملك - والتي تنتهي في أحوال عديدة - إلى انفجار الفتن بين « مزق » الأمة
الإسلامية .

وخلال تنفيذ هذه التطبيقات الخاطئة لا بد من التبصير بالتوجيهات النبوية التي تدرج
هذه « الجنسيات » و « الثقافات » العصبية في قائمة الكبائر المخلدة في النار^(١) ،
وتوضيح أشكال التخريب الذي قامت به النظم والمناهج التربوية والمؤسسات الإعلامية
ودور النشر والصحافة في العالم الإسلامي منذ قرن أو أكثر من أجل ترسيخ
« الجنسيات » و « الثقافات » التي أملاها المستعمر - بكسر الميم - غير المسلم على
الإنسان المسلم ، واستمدها له من عصبية القبيلة والإقليم والقومية ، وأحلها محل
« جنسية » الإيمان و « ثقافة » الإسلام ، ثم أوقف الإنسان المسلم تحت راياتها ينشد
باسمها الأناشيد الوطنية ، ويقاوم في سبيلها أخاه المسلم ، وهو يحسب أنه يقاتل في
سبيل الله . ولقد عطلت هذه « الجنسيات » و « الثقافات » العصبية ، فاعلية
« جنسية الإيمان » و « ثقافته » ودحرتهما من ميدان الحياة الاجتماعية والتطبيقات
الإدارية والسياسية والولاءات العملية إلى دائرة الانتفاء النظري ، لتستثمر عند الحاجة
لها ، من أجل نصر « جنسيات » و « ثقافات » العصبية العائلية والقبلية والطائفية
والإقليمية والقومية .

(١) الطبري ؛ التفسير ، ح ٥ ، ص ٣٧ - ٣٨ .
★ راجع نص الحديث على صفحة ١٧ ، ٤٨ .

الفصل الخامس

العنصر الثاني: الهجرة والمهجر

والعنصر الثاني من عناصر الأمة المسلمة هو- الهجرة - إلى مهجر يوفّر للأفراد المؤمنين أن يعيشوا نموذج - المثل الأعلى - للحياة الإسلامية ، وأن يتحرروا من كافة الأغلال والأصار الثقافية والاجتماعية والمعنوية والمادية التي تحول دون هذا العيش .

معنى الهجرة :

الهجرة معناها الانتقال . وهي نوعان : انتقال حسي ، وانتقال نفسي . والانتقال الحسي معناه الانتقال من مجتمعات الكفر والشرك إلى مجتمع الإيمان . أما الانتقال النفسي فهو يعني الانتقال من ثقافة مجتمعات غير المؤمنين بنظمها وعقائدها وأخلاقها وقيمها وعاداتها وتقاليدها وتطبيقاتها المختلفة ، إلى ثقافة الإيمان بمظاهره وتطبيقاته ومؤسسته . وإلى هذا النوع من الهجرة النفسية كانت التوجيهات الإلهية عند قوله تعالى :

﴿ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ﴾ (المدثر : ٥) .

﴿ وَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴾ (المزمل : ١٠) .

﴿ فَأَمَّا لَوْ لَؤُوتَ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي ﴾ (العنكبوت : ٢٦) .

وإلى النوعين مجتمعين من الهجرة كانت الإجابات النبوية عن معنى الهجرة وأشكالها . فلقد سأله أعرابي بقوله : يا رسول الله أخبرنا عن الهجرة ؟ إليك أينما كنت ، أو لقوم خاصة ، أم إلى أرض معلومة ، أم إذا مت انقطعت ؟

فسكت عنه يسيراً ثم قال :

- « أين السائل ؟ »

قال : هاهوذا يا رسول الله !

قال : « الهجرة أن تهجر الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة ،

ثم أنت مهاجر ، وإن مت بالحضر »^(١) .

وفي موقف آخر قال صلى الله عليه وسلم : « المهاجر من هجر السوء فاجتنبه »^(٢) .

(١) مسند أحمد ، ج ٢ (تحقيق الساعدي) ، ص ٢٢٤

(٢) نفس المصدر والجزء ، ص ٢٠٦ .

وفي موقف آخر قال صلى الله عليه وسلم : « لاتنقطع الهجرة حتى تطلع الشمس من مغربها »^(١) .

وفي موقف آخر سأل رجل فقال : يا رسول الله : أي الهجرة أفضل ؟ قال : « أن تهجر ماكره ربك ! وهما هجرتان : هجرة البادي ، وهجرة الحاضر ، فهي أشدها وأعظمها بلية »^(٢) .

وعن ناقش رابطة الهجرة الرازي فقال :

(الهجرة تارة تحصل بالانتقال من دار الكفر إلى دار الإيمان . وأخرى تحصل بالانتقال عن أعمال الكفر إلى أعمال المسلمين . قال صلى الله عليه وسلم : « المهاجر من هجر ما نهى الله عنه » . وقال المحققون : الهجرة في سبيل الله عبارة عن الهجرة عن ترك مأموراته وفعل منهياته . . . وذلك يدخل فيه مهاجرة دار الكفر ، ومهاجرة شعار الكفر . ثم لم يقتصر تعالى عن ذكر الهجرة ، بل قيده بكونه في سبيل الله . فإنه ربما كانت الهجرة من دار الكفر إلى دار الإسلام . ومن شعار الكفر إلى شعار الإسلام لغرض من أغراض الدنيا . وإنما الاعتبار وقوع الهجرة لأجل أمر الله)^(٣) .

والخلاصة أن التعاريف النبوية للهجرة تشير بوضوح تام إلى أن الهجرة تتكون من قسمين : هجرة جسدية ، وهجرة نفسية . وأن الهجرة الجسدية لاتغني عن الهجرة النفسية بل هي مكملتها ومقدمة لممارستها . فإذا كان المسلم ، أو الفئة المسلمة يعيشان في بيئة غير إسلامية لا يستطيعان العيش فيها حسب نماذج - المثل الأعلى - للحياة الإسلامية ، فإن الأولوية تكون للهجرة الجسدية . حتى إذا تمت هذه الهجرة وانضم المسلم إلى المهجر الإسلامي ، وجبت عليه الهجرة النفسية والتخلص من آثار البيئة الأولى في عقله وشعوره وسلوكه .

ويلاحظ على الهجرة بمفهومها المعنوي أنها تقابل « التركية » أو - تغيير ما بالأنفس - الذين يشدد عليهما القرآن الكريم في مواضع كثيرة ، وغاية هذا التغيير هو - هجر - الأفكار والثقافة والقيم الخاطئة أو الأبائية التي انقضت زمنها . ولقد كان أبرز مظاهر الهجرة المعنوية هو الانتقال من - ثقافة العصبية - بكل قيمها وتقاليدها الصنمية ، إلى ثقافة الإسلام بكل قيمها وتقاليدها التوحيدية . ولذلك نهى الرسول صلى الله عليه وسلم إلى أن العودة إلى ثقافة الأطوار العصبية ومفاهيمها وقيمها وتقاليدها هو مظهر من مظاهر الردة ، وكبيرة من الكبائر المخدلة في النار . فعن عبد الله قال : أكل الربا وموكله وكتبه إذا علموا بذلك ، والواشمة

(١) نفس المصدر ، ح - ٤ ، ص ٩٩ . سنن الدارمي ، باب السير .

(٢) مسند أحمد ، ح - ٤ ، ص ١٩١ ، النسائي .

(٣) الرازي ، التفسير الكبير ح - ١٠ ، ص ٢٢١ - ٢٢٢ .

والمستوشمة للحسن ، ولاوي الصدقة ، والمردت أعرابياً بعد الهجرة ، ملعونون على لسان محمد صلى الله عليه وسلم يوم القيامة^(١) .

وفي تفسير الطبري لقوله تعالى : ﴿ إِن تَجْتَبِئُوا كِبَائِرَ مَا تَهْتَبُونَ عَنْهُ نَكْفُرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ ﴾ (آل عمران : ٢١) .
عن محمد بن سهل بن أبي حثمة عن أبيه قال : إني لفي مسجد الكوفة ، وعلي رضي الله عنه يخطب الناس على المنبر ، فقال :
- يا أيها الناس : إن الكبائر سبع !
فأصاخ الناس . فأعادها ثلاث مرات ثم قال :
- ألا تسألوني عنها ؟
قالوا : يا أمير المؤمنين ماهي ؟

قال : الإشرak بالله ، وقتل النفس التي حرم الله ، وقذف المحصنة ، وأكل مال اليتيم ، وأكل الربا ، والفرار يوم الزحف ، والتعرب بعد الهجرة .
فقلت لأبي : يا أبت التعرب بعد الهجرة . . كيف لحق هاهنا ؟
فقال يابني : وما أعظم من أن يهاجر الرجل حتى إذا وقع سهمه في الفيء ووجب عليه الجهاد خلع ذلك من عنقه فرجع إعرابياً كما كان !
وعن عبيدة بن عمير قال : الكبائر سبع ليس منهن كبيرة إلا وفيها آية من كتاب الله إلى أن قال : والتعرب بعد الهجرة (إن الذين ارتدوا على أديبارهم من بعد ماتين لهم الهدى)^(٢) .

ولعل الحكمة من اعتبار - العودة إلى العصبية ، أو التعرب بعد الهجرة - ردة وكبيرة من الكبائر هو أن هذه العودة نكسة في نظام القيم الإسلامية حيث تعود (القوة فوق الشريعة) أو فوق القانون ، ويعود (الولاء للإقليميات بدل الأمة) ، أي تعود « قوة » الرئيس وإرادته لتحل محل « الشريعة » وإرادة الله . فهي إذن عودة لجوهر الصنمية وما يرافقها من عودة إلى الارتجال والفردية والفوضى بدل الإعداد وروح الجماعة والنظام . ولذلك وصف الله - المتعربين - بقوله : ﴿ الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ الْأَيْعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ ﴾ (التوبة : ٩٧) ولذلك أيضاً قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : هجرة

(١) مسند أحمد ، (تحقيق أحمد شاكر) - ح ٥ ، رقم ٣٨٨٦ ، ٤٠٩٠ .

- سنن النسائي ، كتاب الزنية ، ٢٥ .

- سنن البيهقي ، ح ٩ ، ص ١٩ .

(٢) الطبري ، التفسير ، ح ٥ ، ص ٣٧ - ٣٨ . الطبراني ، المعجم الكبير ، ح ٦ ، ص ١٢٤ رقم ٥٦٣٦ .

البادي الطاعة^(١) أي طاعة الشريعة والانقياد للنظام .

أهمية الهجرة :

الهجرة عنصر أساس من عناصر الأمة المسلمة ولها أهميتها في استراتيجية العمل الإسلامي وتمثل هذه الأهمية فيما يلي :

الأهمية الأولى : تخليص المؤمنين من العوز ، وعدم الأمن اللذين يضغطان عليهم ويؤثران تأثيراً سلبياً على أمنهم الديني والاجتماعي ، وإلى هذين العاملين كانت الإشارة الإلهية عند قوله تعالى :

﴿ وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَافِعاً كَثِيراً وَسَعَةً ﴾ (النساء :

١٠٠) .

والمراغم هو المنعة والقوة ، أو ما يرغم به المؤمنون المهاجرون ظالمهم على مسألتهم ويردعونهم عن العدوان عليهم .. والسعة هي الغنى وسعة العيش . ويتكرر الحديث عن أهمية الهجرة في توفير المنعة والإنجاز الحضاري في مواضع عديدة من القرآن الكريم ، من

ذلك قوله تعالى :

﴿ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَا نُجْزِيَ الْأَجْرَ أَكْبَرَ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ (النحل : ٤١) .

ونظراً لأهمية الهجرة في توفير المنعة ، وإطلاق القدرات ، وتوفير الإنجازات ، أدان الله

سبحانه وتعالى المتقاعسين عن الهجرة وتوعدهم بالعذاب . من ذلك قوله تعالى :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْنَاهُمُ الْمَلَائِكَةَ ظَالِمِينَ أَلْفَوْا فِيْمَ كُتْمٍ ؟ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ أَرْضَ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجَرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَاوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴾ (النساء : ٩٧) .

ويروي المفسرون عن عبد الله بن عباس رضي الله عنه ، أن ناساً من المسلمين لم يهاجروا فأخرجهم المشركون يوم بدر معهم ، فأصيب بعضهم ، فقال المسلمون : كان أصحابنا هؤلاء مسلمين وأكرهوا ، فاستغفروا لهم ، فنزلت الآية^(٢)

ولقد استمرت الهجرة عاملاً أساسياً في قوة حركات الإصلاح التي نجحت في إخراج العالم الإسلامي من ضعفه - في فترات متقطعة وفي أماكن مختلفة - مثل الحركة التي أخرجت جيل صلاح الدين ، وحركة المرابطين ، فقد هجرت الأولى « فقه » المذهبية والأبائية الذي عاصرته ، ثم انسحبت من المشكلات المعقدة لمجتمع الخلافة في بغداد إلى

(١) الطبري ، المصدر السابق ، نفس الصفحات .

(٢) ابن كثير ؛ التفسير ، نقلاً عن صحيح البخاري .

المهجر الذي غما وامتد حتى شمل المنطقة الواقعة ما بين الموصل وشمال سوريا في الشمال ، وبين مصر والحجاز في الجنوب . كذلك اتخذت الثانية لها مهجراً في غرب أفريقيا ، ثم خرجت قوة ردت العافية للمغرب والأندلس لقرون^(١) .

والأهمية الثانية : هي ان الهجرة - بمعناها النفسي والحسي - تنسجم مع حقيقة من الحقائق الكبرى التي يطرحها الإسلام عن الوجود ، وهذه الحقيقة هي - استمرارية الخلق - أي أن هذا الكون مازال يخلق : ﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ ﴾ (القصص : ٦٨) ، واستمرارية الخلق هذه ترفد الحياة دائماً بالجديد من الأفكار والأشخاص والأشياء ، والكائنات الجديدة تفرز - علاقات جديدة - والعلاقات الجديدة تتطلب - ترجمة القيم - إلى نظم ومؤسسات وسياسات جديدة : ﴿ كُلُّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴾ (الرحمن : ٢٩) . والذين لا يعون استمرارية الخلق وما ينتج عنها من تجديد في الشؤون والعلاقات والتطبيقات ، لا يفقهون مضمون الهجرة المطلوبة ، ويقفون في الاتجاه المعاكس للتاريخ ، فيرتدون إلى الأبائية ، ويسقطون في التخلف ، ويلفهم اللبس والحيرة والاضطراب ، ويتنهدون إلى البوار : ﴿ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ (ق : ١٥) . فالهجرة بمعناها الشامل عملية تكيف نفسي وحسي مع حوادث الخلق المستمر ، وهي حركة تجديد مستمر ، تركز على انتقاء العناصر الصالحة من كل جيل من البشرية كلها ، ثم إعدادها لما يناسب الطور الجديد ، وحمل رسالة الإسلام ، واستمرار الترقى البشري .

ومن المحزن أن لا يبرز « فقه وفقهاء للجنسية والمواطنة » القائمة على مفهوم الهجرة هذا ، في الوقت الذي نشاهد أترقوانين الهجرة - التي تبناها الولايات المتحدة الأمريكية - في تجميع العناصر ذات الكفاءات العالية من أقطار الأرض كلها ، ثم إطلاق قدراتها وإراداتها لما فيه قوة الولايات المتحدة ، واحتلالها مكان الصدارة في العالم كله .

ومن الموضوعية أن نقول : إنه في الوقت الذي يغيب العقل الإسلامي المعاصر عن شهود - العلاقة بين استمرارية الخلق ، والهجرة ، وتجدد عافية الأمم - فإن الفكر الغربي المعاصر قد أحسن هذه الحقيقة ، ونظم حياته طبقاً لها ، ولكن العلاقات السلبية التي قامت بين المفكرين وبين الكنيسة جعلتهم - على المستوى العقائدي - يتنكرون لفكرة الخلق ، ويستبدلونها بفكرة « النشود والارتقاء والتطور » ، أي الاعتقاد بأن الكون ينشأ ويترقى ويتطور من نفسه ، دون اعتبار لقوة الله المسيرة للنشأة والتطور . وهكذا ظهر عند الغربيين ما يسمى بنظرية التطور *Evelution* ونظرية الخلق *Creationism* .

ولكن من الإنصاف أن نقول : إن العقل الإسلامي في الماضي ، لم يكن غائباً دائماً عن أهمية الهجرة واستمراريتها . فهذا ابن تيمية يعلق على الآية التي قدمناها كإطار لعناصر الأمة

(١) للاطلاع على تفاصيل الحركة الأولى راجع كتاب - هكذا ظهر جيل صلاح الدين - للمؤلف .

المسلمة ، ويذكر أن المؤمنين الذين ذكرتهم الآية صنفان : المهاجرون الذين هاجروا إلى المدينة من بلادهم ، والأنصار الذين استقبلوهم . ومن لم يهاجر من الأعراب لهم حكم آخر ، وآخرون كانوا ممنوعين من الهجرة لمنع أكابريهم لهم . فلكل هذه الأنواع حكمهم باقٍ إلى يوم القيامة في أشباههم ونظائرهم . وأضاف ان معنى قوله تعالى : ﴿ والذين آمنوا من بعد وهاجروا وجاهدوا معكم فأولئك منكم ﴾ هو إشارة إلى من تبع هذا النهج إلى يوم القيامة^(١) .

ولكن الأبائية التي تستمد جذورها من ثقافة العصبية القبلية ، كانت دائماً تظلي حرائها بطلاء إسلامي ، فترفض الهجرة والتجدد ، وتشن إرهاباً فكرياً على العقول المجتهدة ، وتفري الحاكمين بأصحابها ، فتجهز عليهم ، وتحرم الأمة من ثمرات اجتهادهم .

دور التربية في بلورة عنصر الهجرة :

لا يستطيع الأفراد الهجرة - خاصة الهجرة النفسية - وحدهم . بل لابد من عمل تربوي منظم ، تنهض به مؤسسات تربوية متخصصة تحيط بقوانين التغيير الفكري والإرادي والسلوكي ، ولابد من توفير العوامل المساعدة على نجاح عملية الهجرة المذكورة ، وأبرز هذه العوامل اثنان : الأول : توفر العدد المناسب من التربويين الخبراء بتغيير ما في الأنفس - من أفكار ومعتقدات - ومساعدتها على التخلص من القيم والاتجاهات والممارسات الخاطئة . والثاني : توفير البيئة الصالحة لنجاح الهجرة بمظاهرها النفسية والحسية . . والحرية هي التجسيد العملي للبيئة المطلوبة ، لأن الهجرة هي حرية التفكير والاختيار . . والذين كانوا يتصفون بحرية التفكير والاختيار من المهاجرين الأوائل ، هم الذين قدروا على الهجرة . . والذين لم يتصفوا بهذه الحرية ، ظلوا يمارسون الحران والرفس ، جامدين على ما انحدر إليهم من آباؤهم من معتقدات ، ونظم ، وثقافة ، وممارسات ، وقيم انتهت بهم إلى الهلاك والبوار .

فالهجرة لا تصل مداها المشار إليه إلا إذا حررت التربية نفوس المتعلمين من داخل ، وهيأت التطبيقات والسياسات الإدارية لتسود الحرية حياة الأمة من خارج ، ذلك أن الحرية عامل أساسي في تحقيق أمرين : الأول : نمو القدرات العقلية اللازمة للتمييز بين الصواب والخطأ . والثاني : إطلاق الإرادات العازمة المناصرة للحق ، المناهضة للباطل . . وحين تختفي الحرية تعطل القدرات العقلية ، وتتقلص الإرادات العازمة ، وتتوقف الأمة عن الإبداع ، والإنجاز ، وتسير في طريق الضعف المفضي إلى الاستضعاف في الدنيا ، والعقوبة في الآخرة .

(١) ابن نيمية ، الفتاوى ، كتاب التصوف ، ح - ١١ ، ص ٣٩ .

لذلك لابد للتربية الإسلامية أن تعمل على تحقيق أمرين :

الأول : تدريب - إنسان التربية الإسلامية - على مراجعة الموروثات الثقافية والاجتماعية المتحدرة من كل جيل ، وتنمية القدرة على التفكير ، واكتشاف الجوانب التي عدا عليها الخطأ أو الإفساد في الفهم والتطبيق ، أو تلك التي مضى زمنها ، وبطل مفعولها ، ثم القدرة على التخلص منها ، ومن آثارها ، والهجرة من تطبيقاتها التي تسربت إلى مظاهر الثقافة السائدة في القيم ، والعادات ، والتقاليد ، والأخلاق ، والفنون والنظم ، وشبكة العلاقات الاجتماعية ، وغير ذلك .

فالهجرة - هنا - مظهر من مظاهر التوبة من الثقافة الخاطئة ، أو التي بطل مفعولها ، وما يتفرع عنها من نظم ، وتطبيقات ، ومؤسسات ، وممارسات ، ووظائف خاطئة ، أو متخلفة . والرسول صلى الله عليه وسلم يربط بصراحة بين الهجرة والتوبة فيقول : « لا تنقطع الهجرة حتى تنقطع التوبة ، ولا تنقطع التوبة حتى تطلع الشمس من مغربها »^(١) . فالهجرة توبة ، والتوبة هجرة ، وكلاهما انتقال من الخطأ والجمود والتخلف ، وانتقال من البيئات التي ترعى هذه السليبات الموقفة للارتقاء ، الخائفة للعيش ، المانعة للحياة . والثاني : تدريب المتعلمين على « فقه » نموذج - المثل الأعلى - اللازم لزمانهم ، ثم تنشئتهم على استيعاب تفاصيل المثل الأعلى الجديد ، وبذلك تعدهم لزمان غير زمن آباؤهم - كما يوصي علي بن أبي طالب كرم الله وجهه - وتكون لديهم القدرات والمؤهلات اللازمة للغد الذي سيعبرونه ، ولن يصابوا بالمفاجآت والصدمات من تطورات المستقبل ، كما يصاب الذين يشير إليهم قوله تعالى : ﴿ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ (ق : ١٥) .

(١) سنن الدارمي ، ج ٢ (دار إحياء السنة النبوية) ، ص ٢٤٠ .

الفصل السادس

العنصر الثالث : عنصر الجهاد والرسالة

الجهاد والرسالة ، هما العنصر الثالث من عناصر الأمة المسلمة ، والجمع بينهما في عنصر واحد ، سببه : اقترانها - في القرآن والسنة - اقتران الوسيلة بالهدف . فالرسالة بدون جهاد مفضية إلى مقت الله وغضبه ، والجهاد بدون رسالة نصرة للعصبيات ، وخدمة للشهوات ، وموجباً لعقوبة الله وعذابه .
أما عن تفاصيل هذا العنصر فهي كما يلي :

معنى الجهاد :

الجهاد معنا - لغوياً - بذل الجهد . أما اصطلاحاً فهو يعني استفراغ الطاقة لتحقيق الأهداف التي توجه إليها الرسالة الإسلامية في ميادين الحياة الفكرية والاجتماعية والاقتصادية والعلمية والعسكرية وغيرها في أوقات السلم والحرب سواء . وهذا ما يوجه إليه القرآن الكريم في مواضع كثيرة جداً ، من ذلك قوله تعالى :

﴿ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾
(الحج : ٧٨) . أي أن الجهاد الذي اختاركم الله من أجله ، لا ضيق فيه ولا عنت ، وإنما هو يتناسب مع الوسع والطاقة ، التي أودعها في خلقكم وتكوينكم^(١)

والرسول صلى الله عليه وسلم يرسم الإطار الواسع للجهاد من خلال أمرين : الأول : طرح معادلات الجهاد العملية في ميدان العمل الإيجابي . والثاني : التحذير مما يخالفه في ميدان العمل ، والتعوذ بما يعيق عن القيام به من العجز والكسل والمرض ، وغلبة الديون وقهر الرجال^(٢) .

فالجهاد إذن هو - تكنولوجيا الإسلام - التي توفر العمل والإنتاج في أوقات السلم ، والمنفعة في أوقات العدوان . ولكن ليس بقصد توفير الرخاء الاقتصادي ، والمنفعة السياسية لجنس معين من البشر ، أو تحقيق تفوق لقوم على بقية الأقسام ، أو توفير امتياز لطائفة دينية

(١) الطبري ، التفسير ، ح - ١٧ ، ص ٢٠٥ .

(٢) صحيح البخاري ، كتاب الجهاد . صحيح مسلم ، كتاب الذكر ، سنن الترمذي ، كتاب الدعوات .

على بقية الطوائف ، وإنما لغاية أخرى هي تأهيل كتلة بشرية لحمل رسالة الإسلام إلى العالم . ولذلك فالذي تقوم به الأقطار المتقدمة صناعياً وعلمياً وإدارياً - في الحاضر - هو جهاد لكنه بدون رسالة . وبذلك تكون أزمة العالم الحديث هي أن هناك مجتمعات تقوم بالمظهر المادي للجهاد لكن بدون رسالة ، بينما - ترقد في سبات - إلى جانبها مجتمعات تخزن الرسالة في أسفارها ، وتستظهر نصوصها في مؤسساتها التربوية ، ولكن بدون جهاد لحملها ونشرها .

ولا بد من الانتباه إلى - المعنى الحضاري للجهاد - فالجهاد يعكس مفهوم - الأمن الإسلامي - الذي يركز على إيصال الرسالة وتبليغها إلى الآخرين ، بغية توفير الأمن الفكري والمادي والنفسي لبقاء النوع البشري ورفقه . ذلك أن مصدر الخطر على بقاء النوع البشري ورفقه - حسب التصور الإسلامي - يكمن في « القيم » التي تكفر - أي تحجب وتخفي - قوانين الخلق في النشأة والمصير ، وتقتصر على نوازع التمتع بالحياة وشهواتها ، ومن هذا - الكفر - تشوه جميع أشكال الاعتقاد والشعور والممارسات في ميادين السلوك والاجتماع والعلاقات حتى إذا ظهر أهل الكفر في الأرض ، أشاعوا الفتن والمظالم السياسية ، والمفاسد الاجتماعية ، وردوا شبكة العلاقات الاجتماعية إلى عهود الغاب والهمجية والتخلف . ولذلك كان طلب بذل النفس لمحاربة قيم الكفر ومؤسساته ومثليه ، وبذل المال لنشر قيم الرسالة الإسلامية وإقامة مؤسساتها والإنفاق على العاملين والدارسين فيها حتى يتحقق التفوق للقيم الإسلامية فيشيع السلام ويكون الدين كله لله .

وهذا المفهوم الإسلامي للأمن والسلام ، يختلف تمام الاختلاف عن مفهوم الأمن القومي الذي ترفع لواءه المجتمعات المعاصرة ، وتتخذ ذريعة لممارسة مختلف أشكال العدوان ضد بعضها بعضاً .

وتعريف - الجهاد - بالشكل المذكور أعلاه يجعل ترجمة هذا - المصطلح - إلى اللغات الأخرى أمراً صعباً وضاراً . فهو صعب لأنه لا يوجد ما يقابله في اللغات الأخرى ، وهو ضار لأن الترجمة تشوه معناه ، كما حدث لترجمته إلى اللغة الإنكليزية ، التي أطلقت عليه اسم - الحرب المقدسة Holy War حيث عممت مظهرها واحداً من مظاهر الجهاد ، وطمست بقية المظاهر .

ولا بد هنا من الإشارة إلى أثر تراث ما قبل الإسلام في تطبيقات الجهاد عند الشعوب الإسلامية . فالعربي فهم المظهر المرادف لثقافة الغزو الذي كانت القبائل العربية تمارسه قبل الإسلام . والمسلم الباكستاني جذبه المظهر النفسي المشابه لثقافة التقشف الهندوسي ، التي كان عليها في جاهليته . وهذا كله من سوء التأويل الذي تسبب به الموروثات الثقافية السابقة ، إذ لم تقم التربية بدورها في الجهاد التربوي الذي يستهدف تزكية مناهج الفهم والتطبيق .

لا يكون الجهاد أصيلاً شاملاً ما لم تتابع التربية وظيفتها في تأصيل معناه ، وتبيان مظاهره ، وتفصيلها حسب متطلبات الزمان والمكان . والذي يقرر عمل التربية في هذا المجال ثلاثة عوامل : الأول : درجة تطور البشرية . والثاني : نوع التحديات القائمة في الداخل والخارج . والثالث : إيقاف المظهر الجهادي أو إعماله .

وانطلاقاً من هذه العوامل الثلاثة تنقسم مظاهر الجهاد إلى ثلاثة مظاهر رئيسة يندرج تحت كل منها تطبيقات عملية لا حصر لها ولا نهاية ، وإنما هي تتجدد بتجدد الخلق وما يتطلبه هذا الخلق الجديد من تجديد في الوسائل والعلاقات والمؤسسات . أما عن هذه المظاهر الرئيسة فهي :

١ - الجهاد التربوي : يستهدف الجهاد التربوي تزكية الإنسان المسلم من منزلة - الخضوع للغرائز والدوافع - الأنية الموقوتة التي تبقيه حبس الشهوات والانفعالات الفردية التلقائية ، والارتقاء به إلى منزلة - تحقيق الذات - التي يحقق الإنسان عندها إنسانيته ، فيسترشد بتفكيره وعقله وخبراته المنظمة عن الخالق والكون والإنسان والحياة . ويشير القرآن الكريم إلى المنزلة الأولى الدنيا باسم « أسفل سافلين » بينما يشير إلى المنزلة الثانية العليا باسم « أحسن تقويم » .

والجهاد بالشكل المذكور عمل يجب أن يعتمد على التخطيط العلمي ، والإعداد الدقيق ، ويجب أن تكون له مؤسساته وخبرائه وميادينه وطرقه ووسائله والمربون العاملون في مجالاته . ولذلك رفع الرسول صلى الله عليه وسلم الجهاد التربوي والعلمي إلى منزلة الجهاد في ميدان القتال ، وساوى فيه بين مداد العلماء ودماء الشهداء .^(١)

وهنا لابد من الإشارة إلى التشويه الذي أصاب ميدان الجهاد التربوي في فترات التقليد والجمود ، وتجزئة نظرية التربية الإسلامية وميادينها . فقد أدى هذا التشويه إلى تفسير - جهاد النفس - على اعتبار أنه مسؤولية فردية تقع على الفرد المسلم وحده ، حيث يدخل في عملية صراع عصبي مع دوافعه وشهواته ، كلما دلف إلى موقف من مواقف الحياة ، بحيث انتهى به هذا التصور إلى نماذج الدرويش والمتزهة اللذين يقدمان بؤس الحياة وصرامتها بدل تنظيمها وجمالها .

(١) المناوي ، فيض القدير شرح الجامع الصغير ، ح ٦ (القاهرة : دار الفكر ١٣٩١ / ١٩٧٢ . ص ٤٦٦ ، رقم ١٠٠٢٦ .

٢ - الجهاد التنظيمي : وغاية هذا الجهاد تنظيم « وسع » الأمة - حسب التعبير القرآني - أي طاقاتها وقدراتها المعنوية والمادية والبشرية ، والتنسيق بينها بما يكفل حشدتها وتكاملها - دون هدر أو نقص - لتحقيق أهداف الرسالة . ويوجه القرآن الكريم إلى أن « أمة المؤمنين » حين « تفقه » هذا الجهاد التنظيمي ، وتتقنه ، وتصبر على تكاليفه النفسية والمادية فإن ما تحتاجه من - الأفراد المؤمنين - في هذا الجهاد ستكون نسبة عددهم ١ - ١٠ مقارنة بما تحشده « أمة الكافرين » . والسبب في ذلك هو انسجام « فقه » المؤمنين مع نوااميس الخلق ، و « جهل » الكافرين بهذه النوااميس واصطدامهم بها ، مما يجعلها تعمل لصالح « معسكر » المؤمنين وهزيمة معسكر الكافرين :

﴿ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ ، وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ﴾ (الأنفال : ٦٥) .

أي لا يفقهون نظم الحشد والإعداد النفسي والمادي ، وأساليب القتال ، والاستفادة من استراتيجية الموقع والتوجيه المعنوي ، وأهمية الهدف الذي يتم من أجله الحشد والجهاد . والجهاد التنظيمي بهذا المفهوم لا يكون أيضاً عملاً فردياً ، وإنما هو مظهر استراتيجي يقتضي من الأمة أن تقيم له مؤسساته التربوية والعلمية والتطبيقية ومراكز البحث ووسائله ولوازمه ولا بد من تجدد علومه ، والارتقاء بمؤهلات العاملين فيه ، وتوفير التكاليف التي يحتاجها والممارسات التي يتطلبها .

٣ - الجهاد العسكري : وغاية هذا الجهاد هو إزالة العوائق التي تحول دون الحفاظ على بقاء النوع البشري ورفقه ، حين لا تنجح أشكال الجهاد التربوي والتنظيمي في تحقيق هذه الغاية وحدها . ويتجلى اقتران هذا النوع من الجهاد بالرسالة الإسلامية ، من خلال الضوابط العقدية والأخلاقية التي تحكمه ، وتوجهه ، بحيث لا يخرج لحظة واحدة عن غايات الرسالة وأهدافها . وحين يتحقق هدف من أهداف الرسالة دون قتال ، يتوقف الجهاد القتالي ويصير ممنوعاً ، والأمثلة على ذلك واضحة في التطبيقات النبوية . فعن أسامة بن زيد رضي الله عنهما قال :

« بعثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الحرة فصباحنا القوم فهزمناهم ولحقت أنا ورجل من الأنصار رجلاً منهم ، فلما غشيناها قال : لا إله إلا الله ، فكف الأنصاري ، فطعته برمحي حتى قتلته ، فلما قدمنا بلغ النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال :

- يا أسامة أقتلته بعد أن قال لا إله إلا الله !!

قلت - كان متعوذاً . (أي يتظاهر بقولها ليعوذ من القتل) .

فما زال (النبي) يكررها حتى تمت أي لم أكن أسلمت قبل ذلك اليوم .^(١)

وعن المقداد بن عمرو الكندي ، وكان ممن شهد معركة بدر ، قال : قلت لرسول الله صلى الله عليه وسلم : رأيت إن لقيت رجلاً من الكفار فاقتلنا ، فضرب إحدى يدي بالسيف ، فقطعها ، ثم لاذمني بشجرة ، فقال : أسلمت لله ، أقتله يا رسول الله بعد أن قالها ؟

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا تقتله !

قلت : يا رسول الله إنه قطع يدي ثم قال ذلك بعد ما قطعها !؟

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا تقتله فإن قتله فإنه بمنزلةك قبل أن تقتله وإنك بمنزلة قبل أن يقول كلمته التي قال .^(٢)

وتحتاج التربية الإسلامية في مظاهر الجهاد الثلاثة أن تحكم « فقه » كل مظهر منها .

فالظهر القتالي للجهاد يصبح مُبرراً ومعمولاً به حين تشيع قيم الكفر ، وتنشر العدوان ، وتهدد بقاء النوع البشري ، ولكن بروز اتجاهات الحوار بين المجتمعات الإنسانية ، « يُوقف » مظهر الجهاد القتالي ، ويفرض على مؤسسات التربية الإسلامية إفراد مؤهلين لهذا الحوار ، لا الشتم والتشجج والانفعال ، القادرين على بذل أقصى - جهودهم - لبلورة المظهر الفكري للجهاد لـ « يجادلوا » قادة الفكر العالمي بمنهج « أحسن » محتوى ، و « أحسن » إحاطة ورسوخاً بحقائق الوجود والخبرات الإنسانية .

وانتقال البشرية من طور إلى طور - كأن تنتقل من طور الوحدات الإقليمية والقومية إلى طور التكتلات القارية العالمية كما هو حاصل الآن - يقتضي من المؤسسات التربوية أن تعد متعلميها وعلماءها على بذل أقصى « وسعهم » للجهاد التنظيمي والاستراتيجي ، لبلورة شبكة علاقات جديدة ، تحدد الأطر والاستراتيجيات التي تنظم « وسع » الأمة المسلمة ومقدراتها كلها ، لعبور الطور الجديد ، والانتقال من طور « القبلية » و « الإقليمية » و « القومية » الذي يرتدون إليه حين ينسون سنن الله في الاجتماع البشري ، فينسيهم الله مصالح أنفسهم ، في الانتقال إلى طور العالمية ، الذي يشكل محور التربية الإسلامية لإخراج الأمة المسلمة .

(١) البخاري : تحريد الصحيح ، ح ٢ ، غزوة مؤتة ، ص ٨٣ .

(٢) مسند أحمد ، (شرح الساعاتي) ، ح ١ ، رقم : ٧٠٠ ، ص ١٠١ .

والخلاصة : فإن تنزيل الحكم أو إيقافه ، يطبقان على مظاهر الجهاد حسب الظروف والمناسبات . وتحتمل المظاهر السلمية للجهاد منزلة الأولية في كل سياق قرآني ، حسب تدرج معين ، يشمل الجهاد بالمال ، فإذا لم يكف ، دعمته مقدرات النفس العقلية والتنظيمية ، ومقدرات العمل والإنتاج ، وأخيراً المقدرات القتالية ، مع بقاء الباب مفتوحاً لأية لحظة يوقف فيها سفك الدماء ويمنح للسلم .

وتتضح أهمية - الجهاد القتالي - في حياة الإنسانية كلها حين نرى أن الأفكار والمعتقدات التي تسود العالم عند غير المسلمين - خاصة الغرب - لم تتخل بعد ، وقد لا تتخل حتى قيام الساعة ، عن حب العدوان والسيطرة ، لاستبعاد الآخرين ، ونهب مقدراتهم وإشاعة التخلف في حياتهم تطبيقاً لمسلمة - الصراع والبقاء للأقوى - التي يتقبلها العقل الغربي دون مناقشة ولا مراجعة وينطلق منها في جميع ممارساته وسياساته : ^(١) فالغرب يعتبر القتال أداة حيوية من أدوات الصراع وبقاء الأقوى ، وينظر للقتال كضرورة بيولوجية لبرّ العناصر الضعيفة لصالح العناصر القوية . ومن هنا اشتدت عناية الغرب بالحياة العسكرية ، وإنتاج الأسلحة وتطويرها . وهذه فلسفة بعيدة الغور في تاريخ الفكر الغربي ، وما زالت تحتل مركز الصدارة . والأفكار التي تناولت قتال الأقوياء لإبادة الضعفاء عديدة وكثيرة شاعت منذ مطلع القرن العشرين ، وما زالت تنمو وتتوسع وتنتشر وتوجه الممارسات السياسية والعسكرية . ^(٢)

وأمام هذه - العقلية غير المسلمة - التي تعتمد الصراع أساساً في علاقاتها مع بقية المجتمعات البشرية التي تشاركها العيش على الكرة الأرضية ، يبرز الجهاد الإسلامي رادعاً للعقل الغربي ومضاعفاته في الفتنة والفساد الكبير ، ويبرز الجهاد القتالي كإجراء موقوت

(١) المسلمون بحاجة ماسة إلى فهم - العقل الغربي - وقيمه ومسلّماته الفكرية وأساليب تفكيره تماماً ، كما خطط الغرب لفهم - العقل المسلم - وقيمه والمسلّمات التي ينطلق منها في تفكيره وعمله مستهدفاً تسخير المسلمين لما يحقق أهداف الغرب في الهيمنة والنفوذ والاستغلال . ومحور المسلّمات الفكرية عند العقل الغربي . . هي فكرة - الصراع والبقاء للأقوى - فهي - التوحيد - الغربي الذي تنبثق منه جميع الأفكار والأعمال ، وليست الديانات السماوية والأخلاق والمثل الإنسانية العليا إلا - روافع كما يسميها علماء السياسة الغربيون - لخدمة المسلمة المذكورة . ولذلك احتل علم النفس منزلة - الكتاب المقدس - في علوم الغرب الحاضر خاصة في أمريكا ، وهو علم لا يستعمل للتعرف على « الحقيقة » وإنما لتسخير الأفراد والجماعات والشعوب واستغلال مقدراتها المادية والنفسية وتراثها الثقافي لصالح المترفين في الغرب نفسه .

(٢) راجع تفاصيل هذه الآراء ونماذج من القائلين بها في كتاب - فلسفة التربية الإسلامية - الطبعة الثانية ، ص ١٥٦ - ١٥٩ ، وكتاب - أهداف التربية الإسلامية ، ص ٢٦٩ - ٢٧٠ للمؤلف ،

هدفه بتر العناصر المترفة الخربة ، من أجل إعادة التوازن والعافية للاجتماع البشري ، كلما اضطربت قيم العدل والمساواة والحرية والإخاء في التملك والعلاقات البشرية . لذلك لا يكون الجهاد إسلامياً إلا إذا اقترن بالرسالة الإسلامية . فالرسول صلى الله عليه وسلم يوضح : أن الرجل يقاتل شجاعة ، والرجل يقاتل غضباً وحمية عصبية ، والرجل يقاتل للمغرم ، والرجل يقاتل ليذكر ، والرجل يقاتل رياء ؛ فمن قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله .^(١)

وكلمة - في سبيل الله - هي الرسالة الإسلامية ، وهي العطاء الحضاري الذي يقدمه المسلم للإنسانية ، ليضمن بقاء النوع البشري ورفيقه ، وهي بعض تطبيقات المظهر الاجتماعي للعبادة ، ومن هذه الرسالة تكتسب الحضارة الإسلامية طابعها ومميزاتها ، أما تفاصيل هذه الرسالة فهي كما يلي :

معنى الرسالة :

يتكرر ذكر الرسالة والرسول صلى الله عليه وسلم في مئات المواضع من سور القرآن ، أما في الآية التي حددت الإطار العام لعناصر الأمة المسلمة فقد وردت الإشارة إلى الرسالة عند قوله تعالى : « في سبيل الله » . وتقسم محتويات الرسالة إلى ثلاثة أقسام رئيسة هي : ١ - الإيمان بالله ، ومحوره الإيمان بقدرته وهيمته وأنه المالك المتصرف بالوجود كله . وثمرة هذا الإيمان تحرر الإنسان من طغيان الألهة المدعاة ، وإطلاق قدراته العقلية والنفسية والجسدية لاستعمالها في تسخير الكون دون عائق من رهبة أو رغبة . ٢ - الأمر بالمعروف ، ومحوره الدعوة إلى التوافق مع سنن الله وأقداره وقوانينه في الوجود القائم ، لأن في هذا التوافق بقاء الإنسان ورفيقه . ٣ - النهي عن المنكر ، ومحوره التحذير من الاصطدام بسنن الله وأقداره وقوانينه في الوجود القائم لأن في هذا الاصطدام تدمير لبقاء الإنسان وسقوطه في الدنيا والآخرة .

وهذه العناصر الثلاثة الرئيسية التي تتكون منها الرسالة متضمنة في قوله تعالى : ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ، تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ (آل عمران - ١١٠) .

ولقد شرح الصحابي الجليل أبو هريرة رضي الله عنه هذه الآية فقال :

(١) مسلم ، الصحيح (شرح النووي) ، ح - ١٣ ، كتاب الإمارة ، ص ٤٩ - ٥٠ .

« كتمت خير الناس للناس تأتون بهم في الأقياد والسلاسل حتى تدخلوهم الجنة . يبذل المسلمون أموالهم وأنفسهم في الجهاد لنفع الناس ، فهم خير الأمم للخلق ، والخلق عيال الله ، فأحبهم إلى الله أنفعهم لعياله »^(١)

والمعروف الذي تشير إليه الآية ، اسم جامع لكل ما ينفع الجنس البشري ويرتقي بسلوكهم والعلاقات المتبادلة بينهم . ولذلك حين سأل رجل الرسول صلى الله عليه وسلم عن المعروف ، أجابه :

« لا تحقرن من المعروف شيئاً ، ولو أن تعطى صلة الحبل ، ولو أن تعطى شسع النعل ، ولو أن تفرغ من دلوك في إناء المستسقي ، ولو أن تنحي الشيء من طريق الناس يؤذيهم . ولو أن تلقى أخاك ووجهك إليه منطلق . وإن سبك رجل بشيء يعلمه فيك وأنت تعلم نحوه فلا تسبه ، فيكون أجره لك ووزره عليه ، وما سر أذنك أن تسمعه فاعمل به ، وما ساء أذنك أن تسمعه فاجتنبه » .^(٢)

ومن الواضح أن التعريف النبوي لـ - المعروف - في الحديث المذكور ، لم يتناول المعروف كله ، وإنما راعى مستوى السائل ، وبيئته ، ووجه انتباهه إلى ما يشيع في تلك البيئة . ولكن البحث الشامل فيما يوجه إليه القرآن والحديث يظهر أن « المعروف » و « المنكر » يشملان شبكة العلاقات الاجتماعية بين الأفراد والشعوب والأمم ، وأن كل ما ينفع الإنسان ويورث الانسجام مع سنن الله وقوانينه في الخلق ، يندرج في قائمة « المعروف » ، وما يضر البشر ويضطرم مع هذه السنن والقوانين ، يندرج في قائمة « المنكر » .

أهمية الرسالة في وجود الأمة :

للمرسلة أهمية رئيسة في نشأة الأمم وتكوينها ومصيرها ، وتبدو هذه الأهمية في الأمور التالية :

الأمر الأول : تتقرر مكانة الأمة بين الأمم على المستوى العالمي ، بمقدار ما تقدمه من عطاء حضاري للآخرين ، وهذا العطاء هو الرسالة التي تحملها الأمة بين الأمم الأخرى ، وتضع في خدمتها كافة إمكاناتها ومصادرها البشرية والمادية والمعنوية ، وهو ما يسميه المؤرخ البريطاني - توينبي Toynbee - الأناقة الحضارية - .

(١) ابن تيمية ، الفتاوى ، علم السلوك ، ح - ١٠ ، ص ٥٩ .

(٢) مسند أحمد ، ح - ١٩ ، (تصنيف الساعاتي) ، ص ٢٠١ .

- والأمر الثاني : إن هذا العطاء الحضاري هو الضامن لبقاء الأمم واستمرارها . ذلك أن الأمة التي تتوقف عن العطاء تبدأ بالأخذ ، والأخذ الذي لا يرافقه عطاء متبادل سبب من أسباب الذوبان وفناء الأمم . ولكنه فناء بطيء ، لا يراه إلا العارفون بقوانين الاجتماع البشري وسنن التاريخ ، ولأنه يتم على مراحل تستغرق كل مرحلة منها جيلين أو ثلاثة .
- ففي المرحلة الأولى ، تأخذ الأمة الأشياء المادية كالمنتجات الصناعية والحربية .
 - وفي المرحلة الثانية ، تأخذ الأمة العادات المادية ، كأشكال اللباس والأثاث وأشكال الطعام .
 - وفي المرحلة الثالثة ، تأخذ الأمة المظاهر الثقافية ، كاللغات ونظم الإدارة والنظم الدبلوماسية والعلاقات الاجتماعية والفنون وأشكال الترويح .
 - وفي المرحلة الرابعة ، تأخذ الأمة القيم والمقاييس الاجتماعية والأخلاقية .
 - وفي المرحلة الخامسة ، تأخذ الأمة العقائد ، وعند هذه المرحلة تنهار جميع الحواجز ، ويبدأ الذوبان الكامل .

والأمم التي تعي قوانين هذا الذوبان تحاول أن تتجنبه من خلال تجديد دورها في العطاء الحضاري ، واستئناف العطاء ، ليتوفر لها البقاء والتميز في الداخل ، والاحترام في الخارج . من ذلك ما لجأت إليه اليابان من خلال تصدير فلسفة زن Zen ، ورياضة الجودو والكاراتيه ، وصنع الصناعة اليابانية بأشكال الفن الياباني ، ومن خلال المحافظة على القيم والتقاليد اليابانية ، بما فيها خروج مجلس الوزراء إلى المعبد الرئيس للبودية ، لتقديم اليمين الدستورية هناك .

والأمر الثالث الذي يمثل أهمية الرسالة في حياة الأمة هو أن الرسالة حاجة نفسية - اجتماعية ، والأمم التي تحمل رسالة ، تحفظ وحدتها ، وتجنب مجتمعا من الانقسام والتفتت والحزبية والطائفية والتصارع من أجل المصالح والعصبية المحدودة . وتتناوب الظاهرتان بشكل كامل بحيث إن غياب إحدهما يؤدي إلى بروز الثانية ، ذلك أن الرسالة توحد أفراد الأمة وجماعاتها حول هدف أسمى ، يستهلك طاقاتهم ونشاطاتهم ، فتختفي الانقسامات والفتن . أما حين تغيب الرسالة ، فإن الناس تتفاسمهم أهداف فردية ومصالح عصبية ، وبذلك تبرز الحزبية والعصبية ، وتشيع الفتن ، وتتفرق الأمة إلى فئات متنازعة متصارعة . وإلى هذا يشير قوله تعالى :

﴿ إِنَّا نَنْفِرُوا يُعَذِّبُكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلُ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ﴾ (التوبة : ٣٩) ، ولقد علق

ابن تيمية على هذه الآية فقال :

« قد يكون العذاب من عنده ، وقد يكون بأيد العباد . فإذا ترك الناس الجهاد في سبيل الله ، فقد يبتليهم بأن يوقع بينهم العداوة ، حتى تقع بينهم الفتنة كما هو في الواقع . فإن الناس إذا اشتغلوا بالجهاد في سبيل الله ، جمع الله قلوبهم وألف بينهم ، وجعل بأسهم على عدوهم وعدو الله . وإذا لم ينفروا في سبيل الله عذبهم بأن يلبسهم شيعاً ، ويذيق بعضهم بأس بعض » .^(١)

وفي موضع آخر ، يحذر الله من نتائج التخلي عن حمل الرسالة ، وتكاليها في الإنفاق والجهاد فيقول :

﴿ وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ ﴾ (البقرة : ١٩٥) .

ولعل مناسبة الآية تلقي ضوءاً ساطعاً على الأثر المنيع للرسالة والجهاد في الحفاظ على وحدة الأمة ونجاتها . فحين كان المسلمون على أبواب القسطنطينية ، واصطفوا للقتال ، حمل رجل من المسلمين على صف الروم حتى دخل فيه ، ثم خرج مقبلاً فصاح الناس : سبحان الله ألقى بيديه إلى التهلكة !!

فقام أبو أيوب الأنصاري صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال :

« أيها الناس إنكم تتأولون هذه الآية على غير التأويل ، وإنما نزلت هذه الآية فينا معشر الأنصار . إننا لما أعز الله تعالى دينه وكثر ناصريه قلنا بعض لبعض سراً من رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن أموالنا قد ضاعت ، فلو أننا قمنا فيها ، وأصلحنا ما ضاع منها . فأنزل الله تعالى في كتابه يرد علينا ما هممنا به فقال : ﴿ وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ ﴾ في الإقامة التي أردنا أن نقيم في أموالنا فنصلحها . فأمر بالغزو » .
فما زال أبو أيوب غازياً في سبيل الله حتى قبضه الله عز وجل .^(٢)

دور التربية في تعزيز الرسالة :

تتحمل التربية الإسلامية مسؤولية كبيرة إزاء بلورة هدف الرسالة ، ووسائل حملها ، وغرس الولاء لها . وذلك من خلال بلورة مضمون « رسالة العصر » التي يجب على الأمة

(١) ابن تيمية ، الفتاوى ، التفسير ، مجلد ١٥ . ص ٤٤ - ٤٥ .

(٢) الواحدي ، أسباب النزول ، ص ٣٧ - ٣٨ .
السيوطي ، لباب النقول ، ص ٣٧ . نقلًا عن الترمذي وأبي داود وابن حبان والحاكم .

حملها . إذ لا يكفي لبلورة الرسالة تلك الصيحات الخطابية التي تتوالى في الكتب ،
والمجلات ، والصحف ، والندوات ، وفوق المنابر : عودوا إلى الإسلام ! عودوا إلى
الإسلام ! وإنما لا بد من مؤسسات تربوية ، ومعاهد فكرية ، ومراكز بحوث متخصصة
وظيفتها بلورة علوم سياسية وإدارية ونفسية إسلامية يكون على رأسها كيفية إخراج الأمة
المسلمة ، وصيانتها من الضعف والتفكك ، وتطويرها حسب متطلبات العصور
والأجيال .

ولا بد للتربية الإسلامية أن تعمق في نفوس - المتعلمين - الشعور بالمسؤولية إزاء
الرسالة ، وأن تسهم في تحديد المهارات الجهادية ، ونوع الجهاد اللازم للزمان والمكان .

الفصل السابع

العنصر الرابع: الإيواء

الإيواء هو العنصر الرابع من العناصر التي تتكون منها الأمة . وللوقوف على تفاصيله ، لابد من النظر في أمرين : الأول : معنى الإيواء في القرآن والحديث . والثاني : التطبيقات العملية للإيواء في مجتمع المدينة المنورة ، زمن الرسول صلى الله عليه وسلم ، باعتبار ذلك المجتمع نموذج التطبيقات المطلوبة في بناء الأمة المسلمة ، وإخراجها .

معنى الإيواء :

- أما عن معاني الإيواء في القرآن والحديث فهي كما يلي :
- الإيواء بمعنى الوطن ، ومكان الإقامة الدائمة . مثل قوله تعالى : ﴿ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْأَمْوِي تَنْزُلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (السجدة : ١٩) .
 - الإيواء بمعنى حسن الاستقبال والتكريم . مثل قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ ﴾ (يوسف : ٦٩) .
 - الإيواء بمعنى الرعاية والعتاية . مثل قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى ﴾ (الضحى : ٦) .
 - ﴿ وَفَصَّلَتْهُ أَلَّتِي تُوْوِيهِ ﴾ (المعارج : ١٣) .
 - ﴿ وَجَعَلْنَا آبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴾ (المؤمنون : ٥٠) .
 - الإيواء بمعنى الاستقرار النفسي والاجتماعي . مثل قوله تعالى : ﴿ تَرْجِي مَنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُوْوِي إِلَيْكَ مَنْ تَشَاءُ ﴾ (الأحزاب : ٥١) .
 - وفي الحديث : « ألك امرأة تأوي إليها » مسلم - باب الزهد - ٣٧ .
 - الإيواء بمعنى طلب الأمن والنجاة . مثل قوله تعالى :

﴿ إِذْ أَوْىءَ الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّءْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴾ .
(الكهف : ١٠) .

﴿ قَالَ سَأُوْبِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ ﴾ (هود : ٤٣) .

- الإيواء بمعنى السند والدعم والملجأ والحماية . مثل قوله تعالى :

﴿ لَوْ أَن لِّي بِكُمْ قُوَّةٌ أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴾ (هود : ٨٠) .

﴿ وَأَذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِنَضْرِهِ ﴾ (سورة الأنفال : ٢٦) .

- الإيواء بمعنى الراحة والاسترخاء ، مثل قوله تعالى :

﴿ قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَّيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحَوْتَ ﴾ (الكهف : ٦٣) .

« إذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسي » .

(صحيح البخاري ، كتاب بدء الخلق ، كتاب فضائل القرآن) .

وأما عن التطبيقات العملية للإيواء في مجتمع الرسول صلى الله عليه وسلم في المدينة ، فهي تتألف من أمرين اثنين كذلك ؛ الأول : ما قدمه الأنصار للمهاجرين من استقبال كريم ، وإقامة آمنة مريحة ، ومؤاخاة عملية قامت على المشاركة الكاملة في الحياة والعمل والمؤونة والمصير . والثاني : ما قام به الرسول صلى الله عليه وسلم من تنظيم للعلاقات الاجتماعية بين مختلف الجماعات التي سكنت المدينة في زمنه ، مستهدفاً تجسيد - الإيواء - في واقع عملي ينعم الجميع فيه بمقامات العيش الكريم ، ويكون - مثلاً أعلى - تقتدي به أجيال الأمة المسلمة من بعد .

مظاهر الإيواء :

تحتاج التربية الإسلامية إلى تعميق الإحاطة بمظاهر - الإيواء - حسب متطلبات الزمان والمكان ، في ضوء الخطوط العريضة التي يوجه إليها القرآن الكريم ، وأهم هذه الخطوط مايلي :

أولاً : تقدير قيمة الأرض واستثمارها بالطرق التي وجه الله إليها :

يتكرر التوجيه الإلهي في القرآن الكريم إلى أن الأرض من أعظم نعم الله على الإنسان . والقاعدة الأساسية في الاستفادة من هذه النعمة ، أن يجد كل إنسان فيها - الإيواء - بمعانيه

الشاملة التي مرت ، وأن يعطى الجميع الفرصة لاستعمار الأرض ، والانتفاع بها ، وأن لا يجري احتكارها من قبل فئة ، أو طبقة ، أو شعب ، أو عرق معين . . وكل تنظيم للانتفاع بالأرض ومقدراتها يجب أن ينطلق من هذه القاعدة التي تسعى لتأمين - الإيواء - في الأرض للإنسانية كلها :

﴿ وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ﴾ (الرحمن : ١٠) .

﴿ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾ (هود : ٦١) .

ولكن لما كان - الإيواء - بالمفهوم الذي يطرحه القرآن ، لا يمكن فرضه على الإنسانية ابتداء وفي آن واحد ، فإن الحكمة الالهية ركزت على وجوب إخراج جماعة من البشر لتدرب على تطبيق هذا الإيواء ، ثم تقدمه نموذجاً محسوساً للإنسانية كلها ، وهذه الجماعة المشار إليها هي : الأمة « المسلمة » .

ويتكرر ذكر الأرض في القرآن الكريم في ٤٤٦ موضعاً ، أما في الحديث الشريف فقد احتل ذكرها حيزاً يصعب عدده ، ويمكن تصنيف التوجيهات القرآنية والنبوية المتعلقة بالأرض إلى أربعة : التوجيه الأول ، هو حسن الانتفاع بالأرض ، كمكان للإيواء والسكن والاستقرار . . والثاني ، هو حسن الانتفاع بالأرض كمصدر للعيش والغذاء . . والثالث ، اشتراك الإنسانية كلها للانتفاع بموارد الأرض وخيراتها . . والرابع ، حسن الانتفاع بالأرض كمختبر من مختبرات المعرفة الموصلة إلى الله سبحانه وتعالى .
أما تفاصيل هذه التوجيهات ، فهي كما يلي :

١ - حسن الانتفاع بالأرض كمكان للإيواء والاستقرار :

الأساس في - الإيواء - أن يتوفر لكل إنسان ، مهما كان لونه أو جنسه أو عرقه ، حاجاته في الاستقرار المادي والنفسي ، بغية التفريغ لتحقيق حاجة أعلى هي الحاجة لتحقيق الذات المتمثلة في معرفة الخالق ، واستشراق قدرته وطاعته ومحبته ، ثم معرفة الحكمة من النشأة والحياة والمصير ، ولتحقيق هذا الهدف خلق الله الأرض للأنام ، ووضع في تكوينها كل المقومات والصفات ، التي تسهم في الوصول إلى هذا الهدف وتحقيقه .

ولتحقيق أسباب الاستقرار المادي ، أحسن الله خلق تضاريس الأرض ، وجملها ، ووفر فيها أسباب الرخاء والراحة ، حتى صارت بسهولها وجبالها ومائها وخضرتها وأجوائها والنباتات والحيوانات والطيور التي تزيناها وتجميل الحياة فيها ، فراشاً ومهداً .

﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا ﴾ (البقرة : ٢٢) .

﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا ﴾ (الزخرف : ١٠) .

﴿ وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمُنْهَدُونَ ﴾ (الذاريات : ٤٨) .

ولتحقيق أسباب الاستقرار النفسي ، أرسل الله رسله بالتوجيهات التي ترسخ مقومات هذا الاستقرار وتشيعه . . وتتكون هذه التوجيهات من قسمين : الأول ؛ قيم رئيسة كبرى يتفرع عنها قيم فرعية كثيرة ومتنوعة ، غايتها إشاعة الصلاح والإصلاح المفضي إلى الاستقرار ، وتجسيد « الإيواء » في الأرض ، وهذه القيم الرئيسة الكبرى هي :

١ - إشاعة العدل وجعله محور العلاقات البشرية . والآيات التي توجه إلى العدل في القرآن والحديث كثيرة جداً ، وأساسها أمثال قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَبْخُسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ (هود : ٨٥) .

٢ - التواضع في الأرض واتخاذها أساساً للأخلاق ، وأساسه أمثال قوله تعالى : ﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا ﴾ (الفرقان : ٦٣) .

٣ - التوسط في « إنتاج » موارد الأرض « واستهلاكها » ، وأساس ذلك أمثال قوله تعالى :

﴿ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴾ (الأعراف : ٣١) .
والأصل الذي تنبع منه هذه القيم الثلاث الرئيسة وفروعها الثانوية هو - معرفة الله - وتوحيده في العبادة والطاعة .

أما عن - القسم الثاني - من التوجيهات الإلهية ، فهي التحذير من - منكرات رئيسة كبرى - تقابل - القيم الكبرى الفاضلة التي مر ذكرها ، ومن هذه المنكرات تنبع جميع أشكال الإفساد في الأرض ، ويهدم استقرار الإنسان ، وهذه المنكرات الرئيسة هي :

١ - شيوخ الظلم في الأرض وسريانه في العلاقات البشرية . ويتكرر التحذير من الظلم وآثاره المدمرة للاستقرار النفسي والمادي في مواضع كثيرة من القرآن والحديث ، ويتفرع عن الظلم مضاعفات ضارة لاحصر لها .

٢ - التكبر والعلو في الأرض ؛ وما يتفرع عن ذلك من مضاعفات العصبية والعدوان والبطش ، ولذلك يتكرر الحديث عن آثار « العلو » في الأرض ، وما جره من دمار على الذين اقترفوه ، ومن أمثلة ذلك قوله تعالى :

﴿ إِنْ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا أَهْلَهَا شِيْعًا ﴾ (القصص : ٤) .
- ﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطٰنٍ مُّبِينٍ . إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ ﴾ (المؤمنون : ٤٥ - ٤٦) .

- ﴿ بَلْ يَكْفُرُ الْأَكْثَرُ الْأَكْثَرُ نَجَعَلَهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ﴾ (القصص : ٨٣) .

- ﴿ وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴾ (الإسراء : ٤) .

﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ آيَتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾
(الأعراف : ١٤٦)

﴿ وَلَا تَأْمَسْ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا ، إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا ﴾
(الإسراء : ٣٧)

﴿ وَلَا تَضْمِرْ خَذْلِكَ لِلنَّاسِ ، وَلَا تَأْمَسْ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا ﴾ (لقمان : ١٨) .

٣ - الإسراف في « إنتاج » موارد الأرض و « إستهلاك » خيراتها ، وما يتفرع عن هذا الإسراف من تخريب وإفساد للأرض والبيئة ومصادر نعم الله وإحسانه . ويتكرر التنديد بالإسراف والتبذير ، ويرد مقترنا بالعلو في الأرض ، ويضع أهله في مصاف الشياطين الذين يركز فيهم غضب الله ومقته .

والمصدر الرئيس لهذه المنكرات الثلاثة - أو أم المنكر وأشكاله - هو الكفر بالله ، أو الشرك به ، ومعصيته ، والتنكر لهديه .

ويتكرر التحذير في القرآن الكريم من مغبة الإفساد في الأرض ، ومن محاربة رسالات الله التي تهدف إلى إشاعة الصلاح في الأرض ، وتوفير مقومات - الإيواء - فيها ، وحتى لا تكون التوجيهات الإلهية مجرد توجيهات نظرية ، كان « إخراج الأمة المسلمة » كطليعة بشرية تتعهد نشر الإصلاح ومحاربة الإفساد في الأرض ، وتهيئة الأرض كمكان للإيواء ، بمظاهره المختلفة ، وتجسيدها للاستقرار النفسي والمادى ، الموصل إلى الهدف الكبير : هدف معرفة الله ومحبه وطاعته ﴿ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴾ (الأنفال : ٧٣) .

٢ - حسن الانتفاع بالأرض كمصدر للعيش والغذاء :
الأرض أعظم مصادر العيش والحياة بدون منازع ، ويعتمد مستقبل أية أمة إلى حد كبير على الطريقة التي تستعمل بها الأرض . وحين كان الإنسان يحسن التعايش مع الأرض ، كانت الحضارات تقوم ، وحين يسيء هذا التعايش ، تنهار الحضارة ، وترحل إلى مكان آخر يحسن فيه إنسان آخر التعامل مع الأرض ، وهذه قاعدة تنطبق على أكثر من ثلاثين حضارة شاهدها الأرض^(١) .

والأساس في حسن الانتفاع بالأرض كمصدر للعيش ، قاعدتان : الأولى : الإقامة في الأرض حيث تتوفر الحرية - خاصة حرية العبادة :

﴿ يٰعِبَادِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِنِّي فَاعِبُدُونِ ﴾ (العنكبوت : ٥٦) ، أي هاجروا واستقروا حيث تستطيعون عبادتي عبادة شاملة غير مجزأة . . وعبادة متحررة من الضغوط المادية والنفسية والاجتماعية والفكرية ، والثانية : حرية السفر في مناكب الأرض كلها للتجارة والعمل ، وإلى هذه الحرية الثانية يشير القرآن بتعابير : « الضرب في

(1) E.Fritz Schumacher, Small is Beautiful (New York: Harper & Row Inc. 1973) PP. 102-103

الأرض ، و السعي في مناكبها ، ، وتكرر هذه الإشارة في كل من سور البقرة ، وآل عمران ، والنساء ، والمائدة ، والمزمل .

ولا يجوز أن يحول بين الناس وبين الضرب في الأرض والسعي في مناكبها والأكل من رزق الله ، عوائق التقسيمات الجغرافية ، والجنسيات العصبية ، وأيدولوجيات العلو والاستكبار ، وأخلاق الجشع والإسراف :

﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَأَمْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ ﴾ (الملك : ١٥) .

ولا يجوز- أيضاً- أن تقف المعتقدات الدينية حواجز مادية مانعة أمام الانتفاع بمصادر العيش في الأرض ، ولذلك حين دعا إبراهيم عليه السلام ربه أن يخص « المؤمنين » من ساكني البلد الحرام بالأمن والثمرات- أي بنعمة الإيواء الأمني والعيشي- جاءه الجواب الإلهي أن هذا « الإيواء » سوف يتمتع به « الكافرون » أيضاً في فترة الحياة الدنيا القليلة ، ثم يجزون على كفرهم في نار الآخرة :

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ، قَالَ : وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْأَصِيرُ ﴾ (البقرة : ١٢٦) .

ومن هذا المطلق نزل الوحي على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يأمر أبابكر أن لا يوقف نفقته على من قذف ابنته عائشة أم المؤمنين ، ويأمر الأنصار أن لا يوقفوا إنفاقهم على القربى والأنساب من اليهود ، الذين لم يستجيبوا للرسالة- كما مر في صفحات سابقة- لأن توفير « الإيواء » للكافر ، يهين له أن يتفرغ للتأمل في آيات الله ، وبراهين قدرته في الأفق والأنفس .

وتكرر التوجيهات الإلهية لأن يقوم الانتفاع بالأرض كمصدر العيش على تسميته- أكل

الحلال الطيب- والتحذير من أساليب الشيطان التي توجه إلى- الحرام الخبيث :

- ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلْالًا طَيِّبًا ، وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ (البقرة : ١٦٨) .

- ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْفِقُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ (البقرة : ٢٦٧) .

- ﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (آل عمران : ٥٩) .

على الله تفكرون ﴿ (يونس : ٥٩) .

وللانتفاع بخيرات الأرض منهجان ، لا ثالث لهما : فإما منح الله في « الحلال الطيب » الذي يفرز مفاهيم في الاقتصاد تهين لجميع الناس الانتفاع الجسدي والنفسي والعقلي ، وتشجيع التعاون والتكافل بينهم ، وتوفير للجميع التمتع بـ « الطيب » من الغذاء المؤدي إلى

العافية والرخاء ، وإمامه الشيطان في « الحرام الخبيث » الذي يفرز نظريات في - الإنتاج والاستهلاك - تصيب البشر كلهم بالضنك النفسي والجسدي والعقلي ، وتشيع الاستغلال والاحتكار والابتزاز ونهب مقدرات الأفراد والشعوب ، لصالح أقلية مترفة ، تاركة للأكثرية الردىء - أو الخبيث - من الغذاء الجالب للأسقام ، ومضاعفات المجاعات والفتن في الأرض ، والفساد الكبير .

ويوجز الرسول صلى الله عليه وسلم الآثار المتبادلة للمنهجين بقوله :

« ليس بعد الحلال الطيب إلا الحرام الخبيث »^(١) .

ويفصل الرسول صلى الله عليه وسلم التوجيهات القرآنية المتفرعة عن منهج « الحلال الطيب » وتطبيقاتها العملية في أحاديث كثيرة جداً يصعب حصرها ، منها ما يلي :

- « مامن مسلم يفرس غرساً ، أو يزرع زرعاً ، فيأكل منه طير ، أو إنسان ، أو بهيمة ، إلا كان له به صدقة »^(٢) .

- « مامن رجل يفرس غرساً ، إلا كتب الله له من الأجر قدر ما يخرج من ثمر ذلك الغراس »^(٣) .

- « إذا قامت القيامة ويبدك غرسة فاغرسها »^(٤) .

كذلك يوجه صلى الله عليه وسلم إلى وجوب إزالة المعوقات التي تحول دون استثمار الأرض وزراعتها ، وأهم هذه المعوقات : احتكارها عن لا يزرعون ولا يعملون :

- « من كانت له أرض فليزرعها ، فإن لم يستطع أن يزرعها وعجز عنها ، فليمنحها أخاه المسلم ولا يؤجرها إياه »^(٥) .

- « من كانت له أرض فليزرعها ، أو فليحُرثها أخاه ، وإلا فليدعها »^(٦) .

- « وعن جابر بن عبد الله قال : نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يؤخذ للأرض أجر أو حظ »^(٧) ، وعن نافع أن ابن عمر كان يكره مزارعه ، فبلغه أن رافع بن خديج يحدث أن النبي صلى الله عليه وسلم نهى عن ذلك ، فدخل عليه ، وسأله ، فقال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ينهى عن كراء المزارع ، فتركها ابن عمر بعد .^(٨)

(١) صحيح البخاري ، كتاب الأشربة .

(٢) صحيح البخاري : كتاب الحِث . ومثله : صحيح مسلم ، كتاب المساقاة والمزارعة .

(٣) مسند أحمد ، ح ٥ ، ص ٤١٥ .

(٤) مسند أحمد ، ح ٣ ، ص ١٨٤ ، ١٩١ .

(٥) صحيح مسلم (شرح النووي) ، ح ١٠ ، باب كراء الأرض ، ص ١٩٧ .

(٦) نفس المصدر ، ص ١٩٩ .

(٧) صحيح مسلم ، ح ١٠ ، باب كراء الأرض ، ص ١٩٧ .

(٨) مسلم ، الصحيح ، (شرح النووي) ، ح ١٠ ، باب كراء الأرض ، ص ٢٠٢ .

ويلحق بالمعوقات التي تحول دون الانتفاع بالأرض : الاستيلاء عليها ظلمًا ، وعدم تمكين الآخرين من الاستفادة منها . والتحذيرات النبوية في هذا صارمة وحازمة ، منها قوله صلى الله عليه وسلم : « من اقتطع أرضًا ظلمًا ، لقي الله وهو عليه غضبان »^(١) .

- « من أخذ من الأرض شيئًا بغير حقه ، خسف به يوم القيامة إلى سبع أرضين »^(٢) .

- « من أخذ من الأرض شيئًا ظلمًا ، جاء يوم القيامة يحمل ترابها إلى المحشر »^(٣) .

وأبشع أنواع الظلم المعاصر هو استغلال النفوذ للاستيلاء على الأرض ، وتحويلها إلى سلعة تجارية باهظة الثمن ، لا يقدر على دفعه إلا من أفنى عمره بالكد القاسي في أرجاء الأرض كلها ، من أجل الحصول على ماوى لا يتعدى المائة متر مربع .

ويرتبط بهذه التوجيهات ، ضرورة قيام التربية الإسلامية بإعادة النظر في مفاهيم التملك المطلق ، التي أشاعتها عصور الملك العضوض ، وبررت استيلاء أصحاب القوة والسلطان على الأرض رغم أنهم لا يعملون . والتربية - هنا - ملزمة أن تبني أصولها على نصوص القرآن والحديث وتطبيقات السنة وعصر الراشدين ، وكل فهم يستبدل فتاوى علماء السلاطين والخلفاء في الماضي ، أو « علماء السلطة » في الحاضر ، بنصوص الوحي والسنة الصريحة في عدلها وإرشادها ، فإنما يندرج تحت قوله تعالى : ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهَيْبَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ (التوبة : ٣١) . وحينئذ سئل صلى الله عليه وسلم عن معنى ربوبية الأحرار والرهبان أجاب : أنهم أحلوا الحرام وحرموا الحلال^(٤) .

ولابد للتربية الإسلامية أن تتجه في تنمية حب العمل ، وجعله من محاور القيم في الأمة ، واعتباره الوسيلة الكريمة للعيش الكريم ، حتى لا يفسح المجال للوسائل غير الكريمة التي تنال من عنصر « الإيواء » وتفسده . ولابد للتربية الإسلامية كذلك أن تنفر من العجز والكسل اللذين عززهما قيم العصبية ، التي تحقر العمل وتجعله من مهام الخدم والعبيد والمستضعفين . فالعجز مبغوض من الله ، مدان من الرسول صلى الله عليه وسلم . ومن أمثال ذلك قوله صلى الله عليه وسلم : « إن الله عز وجل ليوم على العجز . قابل من نفسك الجهد ، فإن غلبت ، فقل : توكلت على الله وحسبي الله ونعم الوكيل »^(٥) .

ولابد للتربية الإسلامية أن تزكي القيم من المفاهيم الخاطئة للزهد ، التي عززت الرضى بالفقر ، وجعلته من سمات الصلاح والصالحين . فالمؤمنون مدعوون - في القرآن - للسخي في منابك الأرض كلها لجمع المال ، فإذا جمعه بالأساليب المشروعة الكريمة ، زهدوا به ،

(١) مسلم ، الصحيح (شرح النووي) - ج ٢ ، كتاب الايمان .

(٢) البخاري ، الصحيح ، كتاب المظالم .

(٣) الطبراني ، المعجم الكبير ، ج ٢٢ ، ص ٢٦٩ ، رقم ٦٩٠ .

(٤) الطبري ، التفسير ، ج ١٠ (تفسير آية ٣١ من سورة التوبة) ص ١١٤ - ١١٥ .

(٥) الطبراني ، المصدر السابق ، ج ٨ ، ص ١١٢ ، رقم ٧٤٧٥ .

فأنفقوه وانتفعوا به ، ونفعوا غيرهم بالأساليب المشروعة ، التي تحفظ الكرامات ، ولا توقع تحت ضغوط الفاقة والحاجة . فهذا هو مفهوم الزهد الذي وجه إليه صلى الله عليه وسلم حين علّم أصحابه أن الزهد ليس بإضاعة المال ، وتحريم الحلال ، وإنما الزهد أن يكون المؤمن أوثق بما في يد الله مما في يده فيعتدل في جمعه ، ويسهل عليه إنفاقه^(١) .
وتتكرر التوجيهات النبوية في هذا المجال حتى لا تدع مجالاً للغموض أو اللبس ، من ذلك قوله صلى الله عليه وسلم :

- « خيركم من لم يترك آخرته لديناه ، ولا دنياه لآخرته ، ولم يكن كلا على الناس » .
- « من استطاع منكم أن يقي دينه وعرضه بما له ، ليفعل » .
- « إن الفاقة لأصحابي سعادة ، وإن الغني للمؤمن في آخر الزمان سعادة » .
- « يا جابر لا عليك أن تمسك مالك ، فإن لهذا الأمر مدة^(٢) » .
- « يأتي على الناس زمان من لم يكن معه أصفر ولا أبيض ، لم يتهن للعيش » .
- إذا كان آخر الزمان لا بد للناس فيها من الدراهم والدنانير ، يقيم الرجل بها دينه ودنياه^(٣) .

ولقد وعى فقهاء الصحابة هذه التوجيهات ، وعلموها للشعوب التي خرجت إليها بعوئهم الثقافية ، من ذلك ما وجه إليه معاذ بن جبل معلم الشام واليمن حين قال :
« يا ابن آدم أنت محتاج إلى نصيبك من الدنيا ، وأنت إلى نصيبك من الآخرة أحوج . فإن بدأت بنصيبك من الآخرة مر بنصيبك من الدنيا ، فانتظمها انتظاماً . وإن بدأت بنصيبك من الدنيا ، فاتك نصيبك من الآخرة ، وأنت من الدنيا على خطر^(٤) » .
والواقع أن القعود عن العمل ، وجمع المال ، والسيطرة على موارده من قبل غير المؤمنين ، أضر بالإسلام والمسلمين والناس أجمعين في الداخل والخارج . ففي الداخل أخرس السنة العلماء عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وعن مواجهة الظالم بظلمه ، بل تحول الكثير منهم إلى أدوات تبرر الظلم وتسوغه . أما في الخارج فإن حاجة الشعوب والأمم إلى المال ، أجبرتها في كثير من المواقف والسياسات ، إلى التنازل عن كراماتها واستقلالها وقيمها في الفضائل الإنسانية .

ولابد للتربية أن تتوسع في تشخيص - المشورات المدمرة - التي قدمها خبراء التربية الغربيين للأقطار الإسلامية في العصر الحديث . وكان من ثمارها تنظيم المناهج ، وبناء آلاف المدارس والجامعات ، التي تخرج الآلاف من المختصين بتحليل شعر بعر الأرام ، ووصف المواقد ومرابض الجمال ، والغزل والتشبيب ، وتاريخ الغزوات القبلية ،

(١) الترمذي ، السنن ، كتاب الزهد . ابن ماجه ، السنن ، كتاب الزهد .

(٢) المتقي الهندي ، كنز العمال ، حـ ٣ ، ص ٢٨٣ - ٢٤٠ .

(٣) الطبراني ، المعجم الكبير ، حـ ٢٠ ، ص ٢٧٨ - ٢٧٩ رقم ٦٥٩ ، ٦٦٠ .

(٤) ابن تيمية ، الفتاوى ، كتاب الجهاد ، حـ ٢٨ ، ص ٣٩٦ .

والفتن ، بينما لم يؤسسوا إلا مدرسة زراعية أو صناعية واحدة ، تقام في زاوية معزولة من زوايا القطر النائية ، ثم لا يجدر خربوها العمل ، أو الاحترام ، ويكونون عينه مرعبة ، لما سيكون عليه المتخصص في الزراعة أو الصناعة .

٣ - اشتراك الأمة كلها للانتفاع بمصادر الثروة العامة ، وعدم احتكارها من قبل فئة أو طبقة . وهو ما يوجه إليه قوله تعالى :

﴿ كَى لَأَيْكُونَ دَوْلَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ ﴾ « الحشر : ٧ » .

وفي تفسير الطبري : أن الحكمة من قوله تعالى :

﴿ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبُطُلِ ﴾ « البقرة : ١٨٨ » .

إشارة إلى أن المال للأمة مجتمعة . فـ « الباطل » هو أن يحتكره البعض دون البعض الآخر ، أو يستأثر بوافره دون الآخرين . لأن الأصل في مفهوم الأمة المسلمة أنها كالجسد الواحد ، وأن الغاية هي توفير أمنها مجتمعة ، فإذا ظهر التفاوت وصار المال دولة بين الأغنياء وخدمهم ، انعكست آثار ذلك على الجميع ، ولم ينبج من الأمة أحد ، وإنما الأمر يختلف بتوقيت الهلاك ، حيث يهلك المحرومون أولاً ، ثم يتبعهم المحتكرون . فالأصل في المال أنه لله ، وأن الأمة كلها مستخلفة عليه ، ولها مجتمعة حق الانتفاع به ، شريطة أن لا يخرج مفهوم المال عن كونه « ماعوناً » يعين الناس على إقامة أمور دينهم ودنياهم . وفي تفسير الصحابة لقوله تعالى :

﴿ وَالَّذِينَ يَكْتُمُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾

« التوبة : ٣٤ » .

هناك تفاسير متنوعة تتكامل جميعها لتقرر وجوب انتفاع الأمة كلها بمصادر الثروة ، وعدم احتكارها من قبل فئات أو طبقات معينة .

ففريق على رأسه - علي بن أبي طالب كرم الله وجهه - يرون أن الكنز هو كل ما زاد عن أربعة آلاف درهم ، أدبت فيه الزكاة أم لم تؤد .

وفريق على رأسه - أبوذر الغفاري وسالم بن الجعد رضي الله عنهما - يرون أن كل ما زاد من المال عن حاجة صاحبه فهو كنز .

وفريق على رأسه - عبد الله بن عمر رضي الله عنهما - يرون أن الكنز هو كل مال وجبت فيه الزكاة ، ولم تؤد زكاته^(١) .

ولقد قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم الأشعريين نموذجاً يجسد « الإيواء » ويمثل التطبيق الأمثل لبدأ المشاركة العامة بالثروة . والأشعريون هم جماعة من المسلمين ينسب إليهم الصحابي أبو موسى الأشعري رضي الله عنه . ولقد كان من « فقههم » لـ « الإيواء »

(١) الطبري ، تفسير البيان ، حـ ١٠ ، ص ١١٧ - ١٢١ .

والمشاركة العامة في الثروة أنهم لا يكتزون شيئاً دون بعضهم . فإذا انتابهم قحط في أيام السلم ، أو حلت بهم ضائقة اقتصادية في أيام الحرب ، جمعوا ما عندهم من المال والغذاء ، ثم اقتسموه بالتساوي .

ولقد وصف رسول الله صلى الله عليه وسلم عملهم هذا بقوله :

« إن الأشعرين إذا أرملوا في الغزو ، أو قل طعام عيالهم في المدينة ، جمعوا ما عندهم في ثوب واحد ثم اقتسموه بينهم ، في إناء واحد بالسوية ، فهم مني وأنا منهم »^(١) .

ولاشك أن كلامنا من الآية والحديث المذكورين يشير إلى أن الأصل في الاقتصاد الإسلامي هو ضمان حاجات الأمة مجتمعة . ولذلك يتوجب على التربية الإسلامية أن تضع في محور القيم الاقتصادية التي تنميتها وجوب الاقتداء بأمثال « فقه الأشعرين » ، و« فقه علي بن أبي طالب » ، و« فقه أبي ذر وسالم بن الجعد » من الصحابة بهدف بلورة : علم اقتصاد إسلامي ، ونظم اقتصادية إسلامية قادرة على إعادة التوازن في حاجات الأمة ، كلما نزلت بالأمة أزمات اقتصادية ، أو حدثت في صفوفها فروق طبقية ، وهو الأمر الذي عزم الخليفة عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - على فعله حينما قال : عزمت على أخذ فضول أموال أغنيائهم وردّها إلى فقرائهم .

والمواقع أن تربية الرسول صلى الله عليه وسلم للمجتمع الذي بناه ، قامت على جعل هذا التوازن الاقتصادي محور الحياة الاجتماعية ، لأنه يجسد المظهر الاجتماعي للعبادة . وهذا المظهر هو محور صدق العبادة ، كما تم تفصيل ذلك في كتاب - فلسفة التربية الإسلامية - والأمثلة لهذه السياسة النبوية كثيرة جداً . ومن أمثلتها قوله صلى الله عليه وسلم :

- « المسلمون شركاء في ثلاث : في الماء ، والكلاء ، والنار »^(٢) .

(١) صحيح مسلم (شرح النووي) ح ١٦ ، كتاب فضائل الصحابة .

صحيح البخاري ، كتاب المغازي .

★ لا بد للتربية الإسلامية وهي تعمل على رسوخ القيم الاقتصادية العادلة أن تراعى ظروف الزمان والمكان فيما يخص تطبيق هذه القيم . فإذا كانت وسيلة الأشعرين في التطبيق قد نابتت مجتمع المدينة الصغير فإن تعقيد العلاقات واتساع المجتمعات يستدعي وسائل مناسبة شريطة الحفاظ على روح المبدأ المشار إليه .

(٢) مسند أحمد (تحقيق الساعدي) ، ح ١٥ ، ص ١٣٢ ، رقم ٢٣ .

★ لقد حض الرسول صلى الله عليه وسلم على عدم بيع الماء ونهى عن حجب الزائد منه في عدة أحاديث . ولقد أورد البخاري في كتاب الحرف ، ومسلم في كتاب المساقاة والزراعة مثل هذه التوجيهات : منها قول جابر : نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ضراب الجمل ، وعن بيع الماء ، والأرض لتحرث . أي تؤجر لتزرع . وفي حديث آخر :

« ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا ينظر إليهم . رجل حلف على سلعة لقد أعطي بها أكثر مما أعطي وهو كاذب . ورجل حلف على يمين كاذبة بعد العصر ليقتطع بها مال رجل مسلم . ورجل منع فضل ماء فيقول الله : اليوم امتنعك فضلي كما منعت ما لم تعمل يدك » .

والإشارة إلى الموارد الثلاثة بالأسماء الواردة في الحديث ، إنما هي إشارة إلى مقومات الحياة الرئيسية في تلك البيئة الصحراوية ، في تلك المرحلة من تاريخ المجتمع الإسلامي ، فإذا تبدلت البيئة وتطورت المرحلة انسحبت حكم الشراكة على - مقومات الحياة الرئيسية - للعيش فيها أيضا . إذ الأساس في « الإيواء » هو توفير الأمن الاقتصادي والاجتماعي ، المقضي إلى الأمن الديني في مهجر الأمة . وكل ملكية فردية تزول وتتحول إلى الأمة ، إذا قامت الحاجة لذلك . ومن توجيهات الرسول صلى الله عليه وسلم في ذلك :

- « كل شيء سوى جلف هذا الطعام ، والماء العذب ، وأبيت يظله ، فضل ليس لابن آدم فيه حق »^(١) .

- « ما عظمت نعمة الله على عبد إلا اشتد عليه مؤونة الناس . فمن لم يحتمل تلك المؤونة للناس ، فقد عرض تلك النعمة للزوال »^(٢) .

- « إن لله أقواما يختصهم بالنعيم لمنافع العباد ، ويقرها فيهم ما بذلوا إلى غيرهم ، فإذا منعوها نزعها منهم ، فحولها إلى غيرهم »^(٣) .

- « إن إبليس يبعث أشد أصحابه ، وأقوى أصحابه إلى من يصنع المعروف في ماله »^(٤) .

٤ - حسن الانتفاع بالأرض كمصدر للمعرفة الموصلة إلى الله تعالى :

إن مظاهر الانتفاع بالأرض التي مرت في النبوء (١ ، ٢ ، ٣) ليست أهدافاً نهائية في ذاتها وإنما أهداف خاصة تفضي إلى هدف عام أكبر وهو : حسن الانتفاع بالأرض باعتبارها أحد مختبرات الآفاق والآنفس التي يشاهد الإنسان فيها معجزات الله في خلقه ، وشواهد ربوبيته ، وبراهين توحيده في الطاعة والمحبة والولاية . وإلى هذا الهدف العام الكبير يوجه أمثال قوله تعالى :

- ﴿ إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ « الجاثية : ٣ » .

- ﴿ وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ « الذاريات : ٢٠ » .

وتتنوع مظاهر المعرفة التي يوجه القرآن إلى ميادينها في الأرض :

فهناك توجيهات إلى علوم « أصل الأنواع » ونشأة المخلوقات . والطريقة التي يرشد إليها القرآن في هذا الميدان ، هي السير في الأرض ، ودراسة ماعلى سطحها من كائنات ومخلوقات :

(١) كنز العمال ، ح - ٣ ، ص ٣٩٨ نقلا عن الطبراني في الكبير .

(٢) كنز العمال ، ح - ٦ ، ص ٣٤٧ نقلا عن البيهقي في شعب الايمان .

(٣) التقي الهندي ، كنز العمال ، ح - ٦ ، ص ٣٥٠ نقلا عن الطبراني في الكبير ، والحلية لأبي نعيم .

(٤) المصدر نفسه : ص ٣٤٩ نقلا عن الطبراني في الكبير .

﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ﴾ « العنكبوت : ٢٠ » .
وهذا المنهج طبقه « دارون » حين سار في الأرض مبتدأ من جنوب أمريكا الجنوبية ،
ولكنه - بسبب منهج المعرفة الذي يفصل بين الوحي والعقل والحواس - ضل الفهم ،
وأخطأ تفسير ظواهر الخلق التي درسها . واليوم يكتشف العلماء الكثير من أخطاء « دارون »
ومنهجه في البحث ، ولكن يبدو أنه اكتشاف متأخر لأن آثار أخطاء « دارون » قد ترسخت
في تطبيقات أفكاره في السياسة والاجتماع والاقتصاد والتربية والأخلاق والقيم ، وأفرزت
آثاراً مدمرة في حياة الفرد وعلاقات الجماعات .

وهناك توجيهات إلى مختلف العلوم الطبيعية المتعلقة بالأرض والكواكب ، وما على
الأرض من كائنات حية وجامدة ، ومن أمثال هذه التوجيهات :

﴿ إِنْ اللَّهُ يُمَسِّكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا ﴾ « فاطر : ٤١ » .

ولقد اكتشفت البشرية بعض أدوات هذا الإمساك المتمثلة في الجاذبية وقوانينها ، ولكن
افتقارها لتوجيهات الوحي أعماها عن - الحق - في هذا الاكتشاف .

﴿ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ ﴾ « الزمر : ٥ » .
﴿ إِنْ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفَلَكَ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ
بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا يَبِّئُ فِيهَا مِنْ كُلِّ
دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾
« البقرة : ١٦٤ » .

وهناك توجيهات إلى علوم الاجتماع البشري الذي جرى على الأرض ، ودعوة للتفتيش في
آثار المجتمعات السابقة ، واكتشاف الأسباب التي أدت إلى انهيارها ، وعمل سنن الله
فيها :

﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً
وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ
وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ « الروم : ٩ » .

وخلال هذا التوجيه ، يلفت القرآن الكريم الانتباه إلى أن كثيراً من الأجيال السابقة ،
قد عمرت الأرض وجعلت العلوم التي ساعدتها على التمكين في الأرض غاية بذاتها ،
وفرحت بها ، وتكبرت ، وبطرت ، وانصرفت عن الغاية الكبرى ، وهي طاعة الله ،
وتجسيد هذه الطاعة في - الإصلاح في الأرض - فكان مصيرها أن نزل بها ما كانت تستهزئ به
بالآخرين منه ، من ضعف وتخلف وانهيار . وهذا هو الخطر الذي يتهدد الحضارة الحديثة
التي فتنتها التقدم العلمي والتكنولوجي ، فراحت تحارب الله ورسله في كل الميادين ،
وترتكب نفس الخطأ في الفرح بالعلم ، والوقوف عند ثمراته المادية ، دون الانتقال إلى غاياته
الإيمانية .

- ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرُ مِنهُمْ وَأَشَدُّ قُوَّةً وَءَانَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ . فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ « غافر : ٨٢ - ٨٣ » .
وتتكرر الدعوة إلى السير في الأرض ، شريطة أن تكون غايات هذا السير استعمال أدوات المعرفة من العقل والسمع والبصر للبحث عن مظاهر الحق في خلق الأرض ، لاسير الغافلين عما يرون ويسمعون ، الباحثين عن المتع الدنسة والشهوات الهابطة :

- ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا ، أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ، فَإِنَّهَا لَآتَعْمَىٰ الْأَبْصُرُ وَلَكِن تَعْمَىٰ الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾ « الحج : ٤٦ » .
والنتيجة النهائية لهذا السير في الأرض والبحث في خلقها ، وما عليها ، والأحداث التي جرت فوقها ، هي تخريج نوع من البشر يظنون في - قراءة - دائمة لآيات الأفاق والأنفس ، وذكر دائم ، جوهره : ﴿ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ ، وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ ، رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هٰذَا بَطْلًا سَبْحٰنَكَ فَبِمَا عَذَابِ النَّارِ ﴾ « آل عمران : ١٩١ » .

ثانيا - والمظهر الثاني لعنصر « الإيواء » ، هو تنمية قيم الاستقرار والزواج ، وتكوين الأسر ، وما يتفرع عن ذلك من توفير للسكن ووسائل المواصلات ، واعتبار الموجود منها في عداد الملكية العامة إذا اقتضت الظروف ذلك .

وتقدم التوجيهات النبوية أصولا عقدية لمثل هذه القيم ، من ذلك مارواه أبو سعيد الخدري رضي الله عنه ، عن الرسول صلى الله عليه وسلم :
« من كان معه فضل ظهر فليعده به على من لا ظهر له . ومن كان له فضل زاد فليعده به على من لا زاد له » . قال : فذكر من أصناف المال ما ذكر ، حتى رأينا أنه لاحق لأحد منا في فضل^(١) .

وفي مواقف أخرى يحذر الرسول صلى الله عليه وسلم من مستقبل الاحتكار في وسائل النقل ، وفي المسكن . فعن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
« تكون إبل للشيطان ، وبيوت للشياطين . فأما إبل الشياطين فقد رأيتها ؛ يخرج أحدمك بجنيبات معه قد أسمنها ، فلا يعلو بعيرأ منها ، ويمر بأخييه قد انقطع به فلا يحمله . وأما بيوت الشياطين فلم أرها »^(٢) .

والإشارة إلى الإبل ، رمز لوسائل المواصلات ، وهي تتغير بتغير العصر وتقدم

(١) مسلم ، الصحيح (شرح النووي) ، ح ١٢ ، ص ٣٣ .

(٢) ابو داود ، السنن ، ح ٣ ، باب الجهاد ، ص ٣٩ .

التكنولوجيا ، ومثلها الإشارة إلى البيوت . ومعنى - لم أرها - أي لم توجد زمن الرسول ، وإنما ستأتي في أزمان بعده ، حين يحتكر المأوى ، ويمتلك أناس عشرات المنازل الفارغة ، والمباني الشاهقة ، بينما ملايين المسلمين ، يأوون إلى الخرائب ، ويفترشون الطرقات الأرضية ، وتكون هجراتهم في الأرض في سبيل المأوى والغذاء .

غير أن بناء المساكن وإقامة المباني في القيم الإسلامية محدودة بحدود الغايات الكبرى من الإيواء - . فالبناء يكون في قمة الأعمال الصالحة ، إذا كان الهدف منه إيواء المحتاجين للمأوى ، وجمع قلوب الأمة على الصلاح والعدل والتعاون .

ومن هذا المنطلق كان الترغيب في بناء المساجد ، والبنيات التي يأوي إليها المحتاجون . والتوجهات النبوية في ذلك كثيرة ومتنوعة . من ذلك قوله صلى الله عليه وسلم :

- « من بنى مسجداً يبتغي به وجه الله ، بنى الله له بيتاً في الجنة »^(١) .
- « إن مما يلحق المؤمن من عمله وحسناته بعد موته علماً ينشره ، وولداً صالحاً تركه ، ومصحفاً ورثه ، أو مسجداً بناه ، أو بيتاً لابن السبيل ، أو نهراً أجراه ، أو صدقة أخرجها من ماله في صحته وحياته ، يلحق من بعد موته »^(٢) .

أما أن تكون المساكن والأبنية إظهاراً للعلو في الأرض ، وتجسيداً للطبقية والترف ، وتمييزاً للأغنياء عن الفقراء ، وتعطيلاً لمساحات واسعة من الأرض عن الزراعة والغرس ، فذلك عبث ، وهبوطائش ، من يقترفه خارج عن تقوى الله وطاعته .
﴿ أَتَنْوِنَ بِكُلِّ رِيحٍ أَيْهَ تَعْبَثُونَ ، وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ . وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ . فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴾ « الشعراء : ١٢٨ - ١٣١ » .

ولقد فسر ابن عباس وتلميذه مجاهد : الريح ، بأنه كل مكان مشرف من الأرض مرتفع . . والآية : البنيان . . والعبث ، البناء لمجرد التفاخر . . والمصانع : القصور المشيدة^(٣) .

والرسول صلى الله عليه وسلم يجرد من الأجر كل إنفاق على البناء الذي لاجحة له أو يستهدف الزينة والمباهاة . من ذلك قوله صلى الله عليه وسلم :

- « النفقة كلها في سبيل الله ، إلا البناء فلا خير فيه »^(٤) .
وعن قيس بن أبي حازم قال : إنهم دخلوا على الصحابي - خباب - وهو يبني حائطاً فقال : إن المسلم يؤجر في كل شيء ينفقه ، إلا في شيء يجعله في هذا التراب^(٥) .

(١) صحيح مسلم ، فضل بناء المساجد ، باب الزهد .

(٢) صحيح البخاري ، باب الصلاة ، باب التطوع .

سنن ابن ماجه ، المقدمة .

(٣) الطبري ، التفسير ، حـ ١٩ ، ص ٩٤ - ٩٥ . تفسير ابن كثير . تفسير سورة الشعراء .

(٤) الترمذي ؛ السنن ، باب القيامة .

(٥) صحيح مسلم ، كتاب الايمان ، الترمذي ؛ السنن ، كتاب القيامة .

ولذلك ذكر الرسول صلى الله عليه وسلم أنه حين يذهب العلم ، ويفشو الجهل ، فإن الناس يتنافسون في تشييد البناء ، تفاخراً وهواً ، حتى إن سكان الحيام في البادية يشاركون في هذه المنافسة . من ذلك قوله صلى الله عليه وسلم :

- « من أشرط الساعة إذا تطاول رعاء البهيم في البنيان »^(١) .
- « وإذا رأيت الحفاة العراة ، الصم البكم ، ملوك الأرض ، فذاك من أشرطها ، وإذا رأيت رعاء البهيم يتطاولون في البنيان ، فذاك من أشرطها »^(٢) .

ثالثاً - والمظهر الثالث لـ « الإيواء » هو حرمة إقامة الإنسان ، وعدم طرده أو نفيه من مكان إيوائه - :

فالقرآن الكريم يشدد على - حرمة الإيواء - وعدم إخراج الإنسان من سكنه وموضع استقراره ، بسبب الخصومات التي تثيرها اختلافات الرأي ، أو الولاءات العصبية ، والانتهاكات الحزبية ، أو المصالح المختلفة . من ذلك قوله تعالى :

- ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَآتِفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرَجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تُشْهَدُونَ . ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرَجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ﴾ « البقرة : ٨٤ - ٨٥ » .

ولقد استعرض الطبري تفاسير الصحابة وتلاميذهم لهذه الآية ، فذكر أن قتل الرجل رجلاً آخر ، مثل قتل الرجل نفسه . وإن إخراج الرجل رجلاً آخر من مكان إيوائه ، كإخراجه لنفسه ، لأن الأمة بمنزلة رجل واحد ، كما قال عليه الصلاة والسلام ، وإنهم في تراحمهم وتعاطفهم بمنزلة الجسد ، إذا اشتكى بعضه تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر .

ويضيف الطبري ، نقلاً عن قتادة قوله في الآية : أي لا يقتل بعضكم بعضاً ، (ولا تخرجون أنفسكم من دياركم) . ونفسك يا ابن آدم أهل ملتك - أي أمتك - . وعن أبي العالية في قوله تعالى : « وإذ أخذنا ميثاقكم لاتسفكون دماءكم » ، أي لا يقتل بعضكم بعضاً ، (ولا تخرجون أنفسكم من دياركم) يقول : لا يخرج بعضكم بعضاً من الديار^(٣) . وتتضاعف خطورة نفي الإنسان وإخراجه من مكان إيوائه ، إذا كان المنفيون من الرسل والدعاة ، ورجال الفكر ، والعلم ، الذين يكرسون جهودهم لإصلاح ما أفسد الناس . وإلى هذه الخطورة كانت الإشارة في قوله تعالى :

(١) صحيح البخاري ، كتاب الاستئذان . وكرره في كتاب الفتن ، وكتاب الايمان .

(٢) صحيح مسلم ، كتاب الايمان .

(٣) الطبري ، التفسير ، ج ١ ، ص ٣٩٤ .

- ﴿ وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّوكَ مِنَ الْأَرْضِ لَيُخْرِجُوكَ مِنْهَا ، وَإِذَا لَا يَلْبَثُونَ خِلافَكَ إِلَّا قَلِيلًا ، سَنَةٌ مِنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا ، وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴾ « الإسراء : ٧٦ - ٧٧ » .

هذه هي سنة الله التي مضت في جميع الرسالات من قبل ، وهي سنة ماضية مستمرة ، فحين تخرج الأمم رسلها ودعاتها ، وتنفيهم ، ينزل بها العذاب المدمر ، ولن تجد لسنة الله هذه تحويلاً . وعن ابن عباس رضي الله عنهما : إنها نزلت في أهل مكة حين أخرجوا الرسول صلى الله عليه وسلم وصحبه ، فعذبهم الله بعد قليل من إخراجه بقتلهم يوم بدر^(١) .
 رابعا - والمظهر الرابع لـ « الإيواء » هو الربط بين الأمن المعيشي والأمن الديني :
 يقترن الأمن المعيشي بالأمن الديني ، اقتران الوسيلة بالهدف . فإذا انهدمت الوسيلة وتعطلت فاعليتها ، صعب تحقيق الهدف . ولذلك يوجه القرآن الكريم - في دعاء إبراهيم عليه السلام - إلى أن توفر الأمن المعيشي ، والأمن الاجتماعي ، سبب في عبادة الله وشكره :

- ﴿ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ ، رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَأَرْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴾ « إبراهيم : ٣٧ » .

وتكرر توجيهات الرسول صلى الله عليه وسلم إلى العلاقة بين العبادة والأمن المعيشي ، من ذلك ما يرويه الصحابي أبو واقد الليثي - رضي الله عنه - حيث قال :
 - « كنا نأتي النبي صلى الله عليه وسلم إذا نزل علينا ، فيحدثنا . فقال لنا ذات يوم : إن الله عز وجل قال : إنا أنزلنا المال لإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة . ولو كان لابن آدم واد لأحب أن يكون إليه ثان . ولو كان له واديان لأحب أن يكون إليهما ثالث . ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب . ثم يتوب الله على من تاب »^(٢) .

وعند تفسير قوله تعالى : ﴿ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ ﴾ ، قال ابن زيد :
 افترضت الصلاة والزكاة جميعا ، لم يفرق بينهما - وقرأ الآية - وأبى الله أن يقبل الصلاة إلا بالزكاة . وقال : رحم الله أبا بكر ما كان أفقهه !
 وعن عبد الله بن مسعود قال : أمرتم بإقامة الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، ومن لم يترك فلا صلاة له !^(٣) .

(١) الطبري ، التفسير ، تفسير سورة الاسراء (آية ٧٦ - ٧٧) ، ح - ١٥ ، ص ١٣٣ .
 (٢) مسند أحمد (شرح الساعاتي) ، ح - ٥ ، ص ٢١٩ . الاتحافات السننية بالأحاديث القدسية . نقل عن أحمد والطبراني في الكبير .
 (٣) الطبري ؛ التفسير ، ح - ١٠ ، ص ٨٧ .

فالصلاة - إذن - لاتقوم معانيها في واقع الحياة ، إلا إذا اقترنت بإيتاء الزكاة .
والرسول يربط - أيضا - بين الأمن المعيشي ، وبين شفاء الإنسان من الجريمة ،
والشح ، والانحراف . وكان الأمة المسلمة مسؤولة عن توفير الوسائل والمأوى للذين
يوفران للمجرمين والمنحرفين الشفاء من أمراضهم وانحرافاتهم ، من خلال تلبية
حاجاتهم ، التي أدت بهم إلى الانحراف . فعن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه
وسلم قال : « قال رجل لأتصدقن بصدقة . فخرج بصدقته فوضعها في يد سارق .
فأصبحوا يتحدثون : تصدق على سارق . قال : اللهم لك الحمد ، لأتصدقن بصدقة !
فخرج بصدقته ، فوضعها في يد زانية . فأصبحوا يتحدثون : تصدق على زانية . فقال :
اللهم لك الحمد على زانية ! لأتصدقن بصدقة . فخرج بصدقة فوضعها في يد غني .
فأصبحوا يتحدثون : تصدق على غني . فأني فقيل له : أما صدقتك على سارق ، فلعله أن
يستعف عن سرقة ، وأما الزانية فلعلها أن تستعف عن زناها ، وأما الغني فلعله يعتبر فينفق
مما أعطاه الله »^(١) .

خامسا - والمظهر الخامس لـ « الإيواء » هو الربط بين الإيواء والفاعلية السياسية
والإدارية :

وحتى يصبح « الإيواء » حقيقة قائمة في الحياة الاجتماعية ، لابد من توفير الضمانات
الكافية له ، وعلى رأسها الوسائل الإدارية والسياسية التي تضمن للإيواء تحقيقه واستمراره .
ولقد اعتمد تنفيذ في صدر الإسلام على تقوى الحاكم ، ورسوخه في علمه . من ذلك
ما قام به أبو بكر الصديق - رضي الله عنه - من رفض حازم لعرض المرتدين لأداء الصلاة دون
الزكاة ، حتى لاتتعطل فاعلية الصلاة في حياة الناس ، وتتحول تحت ضغط الحاجات المادية
إلى طقوس وحركات شكلية .

ومثله عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - الذي حرص على أن لا يتميز الخلفاء والولاة عن
غيرهم في مظاهر العيش . من ذلك كتابه إلى أبي موسى الأشعري - رضي الله عنه - الذي جاء
فيه :

« إنما أنت رجل منهم (أي من المسلمين) ، غير أن الله جعلك أثقلهم حملا . وقد
بلغني أنه نشأ لك ولاهل بيتك هيئة في لباسك ، ومطعمك ، ومركبك ، ليس للمسلمين
مثلها . فإياك يا عبد الله أن تكون بمنزلة البهيمة مرت بواد خصب ، فلم يكن لها هم إلا
التسمن ، وإنما حثفها في السمن ، واعلم أن العامل إذا زاغ زاغت رعيته ، وأشقى الناس
من شقيت به رعيته »^(٢) .

(١) صحيح البخاري ، باب الزكاة .

(٢) كنز العمال ، ح - ٥ ، ص ٦٩٦ نقلا عن الدينوري .

وحين كتب إليه عمرو بن العاص من مصر : « إنا قد خططنا لك داراً عند المسجد الجامع ! » .

رد عليه الخليفة عمر قائلاً :

« أنى لرجل من الحجاز تكون له دار بمصر ؟ » ، وأمره أن يجعلها سوقاً للمسلمين^(١) . ثم حدد صلاحية الحاكم بالنسبة لمال الأمة بقوله :

« إني أنزلت مال الله تعالى مني بمنزلة اليتيم : إن استغنيت استعفت ، وإن افتقرت أكلت بالمعروف ، فإذا أيسرت قضيت^(٢) .

وفي رواية أخرى :

« يحل لولي الأمر ما يحل لولي اليتيم ، من كان غنيا فليستعفف ، ومن كان فقيراً فليأكل بالمعروف^(٣) .

ومثله ما فقهه علي بن أبي طالب - كرم الله وجهه - حين قال :

« إن الله فرض على الأغنياء في أموالهم بقدر ما يكفي فقراءهم ، وإن جاعوا وعروا وجهدوا ، فبمنع الأغنياء ، وحق على الله أن يحاسبهم يوم القيامة ويعذبهم عليه^(٤) .

ولكن التاريخ أثبت أن هذا الحرص الذي التزمه أبو بكر ، والاستعفاف الذي تحلى به الخليفة عمر ، والحرص الاجتماعي العادل المرهف الذي أوتيته علي رضي الله عنهم ، لم يتصف به إلا أبو بكر ، وعمر ، وعلي ، ونفر لم يتعد أصابع اليد . لذلك لا يجوز أن يترك مصير « الإيواء » المعيشي والاجتماعي لتقوى الحاكمين ومشيتهم ، وإنما لا بد أن توجه التربية إلى صون هذا الإيواء وحمايته ، بالتشريعات والمؤسسات ، التي تقيد القائم عليه ، وتجعله عرضة للاستجواب ، والاستفسار ، والمحاكمه إن أتى ما يخرق هذا الحرص ، والاستعفاف ، والتشريع .

كذلك لا يجوز أن تترك صدقات الفقراء لمشيئة الأغنياء ، ليبدلوا الفضلات ، والفتات ، والدارهم ، والقروش ، التي لاتسد حاجة ، ولا توقف عوزاً ، وإنما لا بد من التشريعات وضرائب الضمان الاجتماعي ، التي توفر حاجة الأمة في « الإيواء » بالأساليب الكريمة التي لاتنال من كرامات الناس ، ولا تعرضهم للامن والأذى ، إذا لم تكف الزكاة لذلك .

(١) كثر العمال ، ح ٥ ، ص ٦٨٧ نقلاً عن تاريخ مصر لابن عبد الحكم .

(٢) الطبري ، التفسير ، ح ٤ ، ص ٢٥٥ .

(٣) الطبري ، نفس المصدر والجزء ، ص ٢٥٨ .

(٤) كثر العمال ، ح ٦ ، ص ٥٢٨ نقلاً عن سنن البيهقي .

أهمية الإيواء :

واستناداً إلى معاني « الإيواء » ومظاهره ، يتضح دور الإيواء ، وأهميته في الأمة التي يوجهها روح هذا العنصر . وتتجلى هذه الأهمية فيما يلي :

أولاً : الأمة التي يوجه الحياة فيها عنصر « الإيواء » ، أمة مفتوحة الأبواب للمؤمنين من جميع الأجناس ، فليس هناك حواجز مادية ، ولا عوائق قانونية ، مما تفرزه روابط الدم والإقليم . بل تكون جنسية المسلم هي عقيدته . وبها - فقط - تحدد مكانته الاجتماعية ، وتيسر إقامته ، ونشاطاته .

ثانياً : حين يوجه « الإيواء » ممارسات الأمة ، يرتاح الناس من أسباب الصراع الطبقي والعنصري ، ولا تظهر مظاهر هذا الصراع ومضاعفاته . ويتوفر لكل إنسان فرص الاستقرار الاجتماعي والفكري والنفسي ، ويتوفر له الزواج وتكوين الأسرة والمأوى الذي يقيه من غوائل البرد والحرق والتشرد ، ويمنحه الستر والراحة .

ثالثاً : والأمة التي يوجه علاقاتها « الإيواء » تتمحور قيمها الاجتماعية حول - المظهر الاجتماعي - للعبادة . وتتوفر فيها الضمانات والخدمات العامة كالتعليم والصحة وفرص العمل ، وغير ذلك مما يحمي الإنسان من الجهل والمرض والفقر وآثار الحوادث والشيخوخة والنوازل المختلفة .

رابعاً : حين تسود قيم « الإيواء » في الأمة ، تتمحور قيمها الإدارية حول « الإعداد والتخطيط » بدل « الارتجال والتفريط » ، وتعد للمستقبل عدته ، وبذلك تحفظ مجتمعا من الأزمات ، وحضارتها من الانحطاط والانهيابات .

خامساً : حين يشكل « الإيواء » بعض مكونات الأمة ويغذي دعائمها ، لاتسمح بارتفاع الأسعار ارتفاعاً ينسف مفهوم الإيواء ، ويطرد الأفراد في هجرات معاكسة إلى الخارج . فلا سماح أبداً بزيادة النفقات عن الدخول ، ولا تترك للاحتكار والاستغلال منفذاً ليهز أركان الأمة ويضعف تماسكها وروابطها .

مسؤولية التربية إزاء عنصر - الإيواء - :

تتجلى مسؤولية التربية الإسلامية إزاء عنصر - الإيواء - في الأمور التالية :

الأول : بلورة مضامين مظاهر الإيواء التي مرت في البحث ، حسب مقتضيات التطور الاجتماعي الذي تمر به الأمة ، زماناً ومكاناً ، وترجمتها إلى تطبيقات عملية حسب الحاجات والتحديات .

والثاني : إفراز المؤسسات العلمية التي تطور مضامين - الإيواء - إلى علوم متخصصة ، تنمو وتتشكل حسب حاجات الزمان والمكان .

والثالث : اقتراح المؤسسات الإدارية والتنفيذية التي تضمن تجسيد عنصر - الإيواء - في شبكة علاقات اجتماعية تهتدي بالأصول الإسلامية ، مع مراعاة الاستفادة من مظاهر الحكمة عند الآخرين ، والتجاوب مع الشؤون المتجددة .

والرابع : تعميق الولاء لعنصر - الإيواء - ومؤسساته وتطبيقاته ، والغيرة عليها كلها من عدوان المتسلطين أو المحتكرين ، إلى درجة الغيرة على الأعراض والحرمات ، لأن في غياب الإيواء ومؤسساته وتطبيقاته ، تعريض الأعراض للامتهان ، والحرمات للتدنيس .

والخامس : تطوير علم اقتصاد إسلامي يبدأ بنصيب الآخرة ، ويمر بنصيب الدنيا - كما قال معاذ بن جبل - وبذلك تبرز نظريات وتطبيقات اقتصادية تتطابق مع أصول الإيواء في القرآن والسنة ، وتفيد النظريات الاقتصادية - التي تبدأ بنصيب الدنيا وتضر بنصيب الآخرة - وتشيع الاحتكار والرأسمالية ومضاعفاتها في الطبقة ، والترف والفق والتلاعب بالأسعار والمضاربات ، وغير ذلك من تطبيقات الدارونية الاجتماعية التي يتصف بها الاقتصاد الحديث .

والسادس : تطوير مفهوم إسلامي للعمل ، يحث العجز والكسل ، ويحارب الاحتيال والجشع ، ويشمر السعادة بالعيش ، والاستمتاع بالعلاقات والمعاملات .

الفصل الثامن

العنصر الخامس: النصر

النصرة هي العنصر الخامس من العناصر المكونة للأمة المسلمة . وللوقوف على مضمون هذا العنصر لابد من النظر في أمرين : الأول : معنى النصر في القرآن والحديث ، والثاني : المناسبات التي اقترنت بالتوجيهات التي عاجلت هذا العنصر ، والتطبيقات التي جسدهت في مجتمع النبوة والخلفاء الراشدين .

معنى النصر :

يتردد ذكر مصطلح - النصر - ومشتقاته في القرآن والحديث لتعني مايلي :

- النصر : بمعنى اتباع دين الله ، والجهاد في سبيله ، وطاعة أوامره ، واجتناب معاصيه . مثل قوله تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَنصَرُوا لَإِنَّ اللَّهَ يَنصُرُكُمْ وَيُثَبِّتُ أَقْدَامَكُمْ ﴾ « محمد : ٧ » .

- النصر بمعنى التأييد والمساعدة علي التفوق والغلبة . مثل قوله تعالى :

﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ ﴾ « آل عمران : ١٢٣ »

﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبْتَكُمْ كَثَرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا ﴾ « التوبة : ٢٥ » .

- النصر بمعنى المؤازرة . مثل قوله تعالى :

﴿ فَأَلَّذِينَ ءَامَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ

الْمُفْلِحُونَ ﴾ « الأعراف : ١٥٧ » .

وفي الحديث : « النساء ينصر بعضهم بعضاً » ، البخاري ، كتاب اللباس .

« من نصر قومه على غير حق فهو كالبعير » ، أبو داود ، السنن ، كتاب الأدب ،

١١٢ .

- النصر بمعنى الحماية . مثل قوله تعالى :

﴿ وَيَقُومُ مَن نَّصَرُّهُ مِنَّا إِنَّ طَرْدَتُهُمْ ﴾ « هود : ٣٠ »

﴿ إِلَّا تَنصَرُوا فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ

- لِصَاحِبِهِ لِأَمْحُزْنَ إِنْ أَلَّهَ مَعَنَا ﴿ التوبة : ٤٠ ﴾ .
- النصرَة بمعني مساندة الحق وإشاعة العدل . مثل قوله تعالى :
- ﴿ مَا لَكُمْ لِاتِّصَارُونَ ﴾ ﴿ الصافات : ٢٥ ﴾ .
- النصرَة بمعني الثأر ودفع العدوان مثل قوله تعالى :
- ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ ﴾ ﴿ الشورى : ٣٩ ﴾ .
- وفي الحديث : « دونك فانتصري »^(١) .
- « من دعا على من ظلمه فقد انتصر »^(٢) .
- النصرَة بمعني منع الظلم ودفعه إذا وقع . مثل قوله صلى الله عليه وسلم :
- « أمرنا بعبادة المريض ونصرة المظلوم »^(٣) .
- « من أذل عنده مؤمن ، فلم ينصره وهو يقدر على نصره ، أذله الله على رؤوس الأشهاد يوم القيامة »^(٤) .
- « يقول الله عز وجل : وعزتي وجلالي لأنتقم من الظالم في عاجله وأجله ، ولأنتقم من رأى مظلوماً فقد ر على أن ينصره فلم ينصره »^(٥) .
- أما عن المناسبات التي اقترنت بالتوجيهات القرآنية والنبوية التي عاجلت عنصر النصرَة ، وأدرجته في العناصر المكونة للأمة الإسلامية فهي : أولاً ذلك الالتزام الكامل الذي قام به الأنصار قولاً وعملاً لنصرة الرسول صلى الله عليه وسلم ، ونصرة المهاجرين معه ، ومن أجل ذلك أطلق عليهم اسم (الأنصار) . . وهي ثانياً : تلك التضحية الكاملة التي قدمها المهاجرون حين اقتتلوا أنفسهم من المجتمع الجاهلي وثقافته اقتلاعاً كاملاً ، ثم أوقفوا هذه الأنفس لنصرة دين الله سبحانه وتعالى : وهي ثالثاً : إقامة الفريقين مجتمعين لمعاني الإسلام في واقع حياتهم ، في المجتمع النبوي والراشدي ، ثم الخروج إلى العالم كله لإقامة هذه المعاني في حياة الآخرين .
- مظاهر النصرَة :

يتحقق عنصر - النصرَة - في حياة الأمة المسلمة من خلال المظاهر التالية :

- ١ - نصرَة « أفكار » الرسالة الإسلامية في مواجهة طغيان « الأشخاص » وزخرف « الأشياء » ، وتفصيل ذلك كالتالي :

(١) مسند أحمد ، وصن ابن ماجه ، باب النكاح .
 (٢) سنن الترمذي ، كتاب الدعوات .
 (٣) سنن النسائي ، كتاب الجنائز .
 (٤) مسند أحمد (شرح الساعدي) ، ح - ١٩ ، ص ٦٩ ، رقم ١٢٠ .
 (٥) المتقي الهندي ، كنز العمال ، ح - ٣ ، ص ٥٠٥ نقلا عن الطبراني في المعجم الكبير .

يتكون كل مجتمع من ثلاثة عناصر رئيسة هي : الأفكار ، والأشخاص ، والأشياء . وتكون الأمة في أعلى درجات الصحة ، حين تكون « نصره » الأفكار هي المحور الذي يدور في فلكه « الأشخاص والأشياء » . ففي هذه الحالة يخلف « أشخاص » المؤمنين الرسول في نصره أفكار الرسالة ، فنظهر (الخلافة) وتتحدد مواقع الأفراد ووظائفهم طبقاً لمقياسين : الأول : مدى القدرة على حمل الرسالة ، أي فقهها وتطبيقها . والثاني : مدى الإخلاص في هذا الحمل . والقرآن يطلق على كل من القدرة والإخلاص ، اصطلاحاً : القوة ، والأمانة . وذلك عند قوله تعالى : ﴿ إِنَّ خَيْرَ مَنْ أَسْتَجَرْتَ الْقَوَى الْأَمِينِ ﴾ « القصص : ٢٦ » . وفي آية أخرى يسميها : التمكين ، والأمانة . وذلك عند قوله تعالى : ﴿ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴾ « يوسف : ٥٤ » . والقوة هنا تعني (الجدارة) وهي شاملة ذات مظاهر عديدة . فهي في ميدان الحكم تدور حول الحكم بالعدل ، كما دل عليه القرآن والسنة ، وحول القدرة على تنفيذ الأحكام . والقوة في ميدان العسكرية تدور حول شجاعة القلب ، والخبرة العسكرية . وهكذا في بقية ميادين الحياة كالتربية والإدارة ، والاقتصاد ، والصناعة وغيرها .

أما - الأمانة - فتدور حول الولاء الذي من أجله تبذل القدرة : أهول - « أفكار » الرسالة ، أم ل - « الأشخاص » ، أم ل - « الأشياء » !! ؟
ويتسرب الخلل إلى عنصر - النصره - حين تطفئ نصره « الأشخاص » على نصره « الأفكار » . والتطبيقات العملية لهذا الطغيان تتمثل في - امتلاك - أصحاب العصبية الأسرية ، أو القبلية ، أو الطائفية ، أو العرقية ، أو الإقليمية ، ل - « الأفكار والأشياء » ، ثم توظيفها معاً لدعم مكانة « أشخاص » العصبية ونفوذهم . وتتحدد مراكز الأفراد ووظائفهم طبقاً لمدى استعمالهم لصفتي : القوة ، والأمانة ، في خدمة هذه العصبية . وهذا ما حذر أبو بكر الصديق - رضي الله عنه ، منه يزيد بن أبي سفيان - رضي الله عنهما ، كما روى ذلك يزيد نفسه فقال :

« قال أبو بكر لما بعثني إلى الشام : يا يزيد إن لك قرابة عسى أن تؤثرهم بالإمارة ، وذلك أكبر ما أخاف عليك . فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : من ولي من أمور المسلمين شيئاً فأمر عليهم أحداً ، محاباة له بغير حق ، فعليه لعنة الله ، لا يقبل الله منه صرفاً ولا عدلاً حتى يدخله جهنم ، ومن أعطى أحداً من مال محاباة فعليه لعنة الله . أو قال : برئت منه ذمة الله . إن الله دعا الناس أن يؤمنوا فيكونوا همى الله . فمن انتهك في همى الله شيئاً بغير حق ، فعليه لعنة الله . أو قال : برئت منه ذمة الله عز وجل » (١) .

(١) المتقي الهندي ، كثر العمال ، ج ٥ ، ص ٦٦٥ نقلاً عن مسند أحمد ، وعن ابن شعبة البغدادي .

ومن هذا الهدى النبوي - الراشدي ، استوحى ابن تيمية آراءه في هذا الشأن فقال : « فان عدل عن الأحق الأصلح إلى غيره ، لأجل قرابة بينهما ، أو ولاء عتاقة ، أو صداقة ، أو مرافقة في بلد ، أو مذهب ، أو طريقة أو جنس ، كالعربية ، والفارسية ، والتركية ، والرومية ، أو لرشوة يأخذها من مال ، أو منفعة ، أو غير ذلك من الأسباب ، فيما نهى الله عنه في قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون ﴾ ، ثم قال : ﴿ واعلموا أنما أموالكم وأولادكم فتنة وأن الله عنده أجر عظيم ﴾ ، فإن الرجل لربه لولده أولعتيقه ، قد يؤثره في بعض الولايات ، أو يعطيه مالا يستحقه ، أو محاباة من يداهنه في بعض الولايات ، فيكون قد خان الله ورسوله ، وخان أمانته ﴾^(١) .

ولما كانت « الأشياء » ، وما تجسده من مال وزخارف الحياة المادية ، هي الوسيلة الرئيسة التي يستعملها « أشخاص » العصبية للحصول على النصر ، فإنه سرعان ما تصبح نصره « الأشياء » هي المحور الذي تدور في فلكه « الأفكار والأشخاص » ، وتصبح الهيمنة في الأمة لأرباب المال ، والتجارات ، وصانعي الشهوات ، وتسود ثقافة الاستهلاك والترف ، وتمتزق شبكة العلاقات الاجتماعية ، وتصبح الأفكار والقيم بعض سلع التجارة ، ومواد الاستهلاك والدعايات السياسية والاقتصادية ، ويتوقف التفكير الموضوعي ، ويحل محله الهوى ، وتتحدد ميادين التربية بحدود هذه الثقافة الاستهلاكية ، وينشغل الناس بأشوائهم وحاجاتهم اليومية ، ويعودون كالجاهلية همة أحدهم لاتتعدى بطنه وفرجه ، لا يعرف معروفاً ، ولا ينكر منكراً . وتكون المحصلة النهائية لهذا التحول هو السعي - لامتلاك - « الأشياء » ، فتظهر ظاهرة - الملك القسري - أي الذي يتوصل إليه بالقسر والعنف ، والانقلابات الدموية ، والفتن .

ويلخص الحديث النبوي هذا التطور السلمي من - نصره - « أفكار » الرسالة حتى « نصره الأشياء » ، عند قوله صلى الله عليه وسلم :

« إن هذا الأمر بدأ رحمة ونبوة ، ثم يكون رحمة وخلافة ، ثم كائن ملكاً عضواً ، ثم كائن عتواً وجبرية وفساداً في الأرض ، يستحلون الحرير والفروج ، ويرزقون على ذلك وينصرون »^(٢) .

والمجتمعات التي تدور في فلك الأفكار الصحيحة ، تتفوق على تلك التي تدور في فلك الأفكار الخاطئة ، كما كانت حال الأمة المسلمة في صدر الإسلام ، وتفوقها على مجتمعات الرومان وفارس وغيرها . ولكن المجتمعات التي تدور في فلك الأفكار الخاطئة ، أو التي

(١) ابن تيمية ؛ الفتاوى ، كتاب الجهاد ، ج ٢٨ ، ص ٢٤٨ - ٢٤٩ .

(٢) ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج ٨ ، ص ٢٠ نقلاً عن الطبراني بإسناد جيد . ومثله عند ابن تيمية ، الفتاوى ، ج ٣٥ ، ص ١٩ نقلاً عن مسلم . ومسنده أحمد ، ج ٤ ، ص ٢٧٣ .

يختلط فيها الصحيح والخطيء ، فهذه تتفوق على المجتمعات التي تدور في فلك الأشخاص والأشياء ، وتهمزها كما هو الحال - الآن - في تفوق المجتمعات الغربية على مجتمعات العالم الثالث - ومنه العالم العربي والإسلامي الحديث .

والشكل الذي تنتظم طبقا له عناصر الأفكار والأشخاص والأشياء ، يحدد نوع التربية وتطبيقاتها ، في الثقافة والعلوم ، ونظم الحياة المختلفة . فعندما تكون « الأفكار » هي المحور الذي يدور في فلكه « الأشخاص والأشياء » ، فإن التربية تتخذ مثلها الأعلى - وخبراتها التي تضمناها منهاهجها وتطبيقاتها من ميدان الأفكار ، ودرجة التزام الأشخاص بها ، وتجسيد الأشياء لها ، في الماضي والحاضر والمستقبل . ويكون من ثمار التربية بناء حضارة تدور حول تطبيقات الأفكار ، وتجسيدها في مسيرة الاجتماع البشري .

أما حين يحتل « الأشخاص » مركز المحور الذي تدور في فلكه « الأفكار والأشياء » ، فإن التربية تتخذ - مثلها الأعلى - وخبراتها التي تضمناها منهاهجها وتطبيقاتها ، من ميدان « الأشخاص » ، ومدى فاعلية قوتهم في الماضي والحاضر والمستقبل ، واستعمال الأشياء لتنفيذ إرادتهم .

وأما حين تكون « الأشياء » هي المحور الذي تدور في فلكه « الأفكار والأشخاص » ، فإن التربية تتخذ - مثلها الأعلى - وتنتقي خبراتها المنهجية ، وتطبيقاتها العملية ، من ميدان الأشياء وتاريخها وحاضرها ومستقبلها ، ومدى تأثيرها في عالم الأفكار والأشخاص على المستوى المحلي والعالمي . ويكون من ثمار التربية ، بناء حضارة مادية تدور حول تطبيقات الأشياء وتجسيدها في مسيرة الاجتماع البشري . وهذه هي حال التربية الحديثة التي يدور محور « النصر » فيها حول « الأشياء » ، كما أن العلوم والثقافات والآداب والفنون التي أفرزتها - وتفرزها - هي أيضا تتخذ مثلها الأعلى (وتنتقي) خبراتها من الدوران في فلك « الأشياء » ، في حين يدور كل من « الأفكار » و « الأشخاص » في فلك « الأشياء » ويستثمران من أجل توفير الأشياء وتحسينها . والتجسيد العملي لهذا كله هو حضارة « الإنتاج والاستهلاك » التي يقودها الغرب المعاصر ، وتؤثر في العالم كله .

٢ - نصره العدل في مجابهة الطغيان والتسلط :

ويمثل هذا المظهر محور عنصر النصر ، بل هو جوهره وغايته ، لأن العدل في حقيقته تجسيد لـ « أفكار » الرسالة ، ومثلها ، وقيمها ، وبقائها المحور الذي يدور في فلكه « الأشخاص والأشياء » . أما الظلم فحقيقته أن تندحر الأفكار والمثل والقيم ، من محور الاجتماع البشري إلى هوامشه ، لتدور في فلك أهواء « الأشخاص » الأقوياء ، الذين يهيمنون على محور الاجتماع البشري ، ويديرون « الأفكار والأشياء » في فلكهم ، لبقاء سلطانتهم ، ودوام تملكهم . فالعدل - إذن - هو روح شبكة العلاقات الاجتماعية الذي يمنحها الحياة والبقاء . وغياب العدل يلغي مبرر وجود الأمم (ومنها الأمة الإسلامية) ولذلك

قال أبو الحسن الخزرجي : الملك مع العدل والكفر يدوم ، ولكن الملك مع الإسلام والظلم لا يدوم . وجيوش الفتح الإسلامي حين خرجت إلى العالم ، إنما خرجت لرفع الظلم عن الشعوب ، أما اعتناق الإسلام ، فقد تركته لاختيار الشعوب المحررة ، لتبين وحدها الرشد من الغي ، دون إكراه في الدين ، ولتختار واحداً من اثنين : إما الإسلام ، وإما الجزية ، التي تسوي غير المسلم بالمسلم الذي يدفع الزكاة ويخدم في الجيش لحماية الجميع من الظلم .

لذلك تضافرت مصادر التربية الإسلامية على إدانة الظلم ، وتنفير المسلم منه في جميع مظاهره وأشكاله .

فالقرآن يسوي بين مصير المظلومين الذين يسكتون على الظلم ، وبين الظالمين الذين يمارسون الظلم :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ لَتُغْفِرَ لَهُمْ سَائِمَاتِ ذُنُوبِهِمْ وَالَّذِينَ لَا يُتُوبُونَ عَلَيْهِمْ يُصْطَفَىٰ لَهُمْ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ۗ وَالَّذِينَ لَا يُغْفَرُ لَهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ۝ النساء : ٩٧ ۝ .

وفي المقابل يشيد القرآن بالذين يرفضون الظلم ، ويتناصرون لمقاومته ، ويستنهضونهم لمنازلته :

﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ . وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا ، فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ . وَلَمَنْ آتَاكَ ظُلْمًا فَارْتُدَّ عَلَيْهِ فَمُؤْتًا مِنْ سَبِيلِ اللَّهِ ۗ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝ الشورى : ٣٩ - ٤٢ ۝ .

والرسول صلى الله عليه وسلم يجعل خنوع الأمة ، وعدم تناصرها لمقاومة الظلم ، من العلامات الدالة على موتها ، وانتهاء مبررات وجودها :

﴿ إِذَا رَأَيْتَ أُمَّتِي لَا يَقُولُونَ لِلظَّالِمِ مِنْهُمْ أَنْتَ الظَّالِمُ ، فَقَدْ تَوَدَّعَ مِنْهَا ۝ ﴾^(١) .

ويقول أيضا :

﴿ إِنْ لَمْ يَلْعَبْ لِيَعِزِّبِ الْعَامَةَ بِعَمَلِ الْخَاصَّةِ حَتَّى تَكُونَ الْعَامَةُ تَسْتَطِيعُ تَغْيِيرَ عَلَى الْخَاصَّةِ . فَإِذَا لَمْ تَغْيِرِ الْعَامَةُ عَلَى الْخَاصَّةِ ، عَذَبَ اللَّهُ الْعَامَةَ وَالْخَاصَّةَ ۝ ﴾^(٢) .

وكان من ثمار هذه التربية في عصر النبوة أن قامت روابط النصره في مجتمع الراشدين على تعشق العدل والتضحية في سبيله ، وصارت طاعة الحاكم مرهونة بمدى تقيدته بالعدل واحترام الحريات . كان عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - في مجلس ، وحوله المهاجرون

(١) مسند أحمد ، (تصنيف الساعاتي) ، ح ١٩ ، ص ١٧٥ .

(٢) مسند أحمد ، ح ٤ ، ص ١٩٣ .

والأنصار ، فقال : « أرايتم لو ترخصت في بعض الأمور ماكنتم فاعلين ؟ فسكتوا ، فقال ذلك مرتين أو ثلاثاً .

فقال بشر بن سعد : لو فعلت ذلك قومناك تقويم القداح - أي السهم - !
فقال عمر : أنتم إذا ! أنتم إذا^(١) .

(أي أنتم إذن الرجال المثلون للأمة المسلمة الحقبة) .

ولم يكن هذا موقفا نادراً أو موقوتاً في سياسة عمر رضي الله عنه ، بل إن جميع مواقف عمر كانت من جنس هذا الموقف ، لأن عمر لم يكن حاكماً فقط ، وإنما كان مربياً يربي تقاليد ثقافة جديدة ، في السياسة والاجتماع والاقتصاد ، ويريد لهذه الثقافة أن تتحدر في تاريخ الأمة ، وفي أعرافها ، وقيمها ، ونظمها ، وتقاليدها ، وأن يصبح العدل والحرية محور هذه الثقافة . وحقاً إنه كان في ذلك عبقرياً لم يفر فريه عبقرى آخر في الإسلام .

٣ - نصرة الحرية في مجابهة الاستعباد :

وهذا المظهر من مظاهر النصرة ، يمثل محور عقيدة التوحيد ، وبمجسدها في واقع اجتماعي ، يصهر الفروق بين الأفراد والجماعات ، ويقضي على الفروق الطبقيّة التي يمكن أن تتحول إليها - درجة المسؤولية الاجتماعية - . ولذلك كان غياب الحرية في حقيقته ، هو غياب التوحيد ، لأن حقيقة التوحيد أن لا يخشى الإنسان الموحد إلا الله ، وغياب الحرية معناه خشية غير الله . ولقد فسر الطبري قوله تعالى : ﴿ يَعْْبُدُونِي لِأَيْشِرْ كُونِ بِي شَيْئاً ﴾ إن معنى لا يشركون بي شيئاً هو : أنهم لا يخافون غيري من جباية السلاطين والأشخاص^(٢) .

وهذا يضع على التربية الإسلامية مسؤولية كبيرة في تنمية تمسق - الحرية - ونصرتها ، والغيرة عليها ، والدفاع عنها ، إذا انتهكت ، كالغيرة على الأعراض والحرمات . ويتفرع عن ذلك تنمية الوعي بقيمة التعبير عن الرأي ، لأن الأمة التي يوجهها عنصر - النصرة - أمة تدرك قيمة النقد الذاتي ، - أو التوبة حسب التعبير الإسلامي - وأثره في دوام صحتها وعافيتها ، فلا تتراكم آثار الممارسات الخاطئة ، حتى تنفجر في فتن مدمرة ، تأتي على كيان الأمة دفعة واحدة . ولا بد للتربية الإسلامية أن تدرّب متعلميها على ممارسة كلا من حرية الرأي ، والنقد الذاتي ، بحيث تنطبق عليهما الموصفات التي توجه إليها أمثال قوله تعالى : ﴿ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا ﴾ (البقرة : ٨٣) و ﴿ جَادِثُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ (النحل ١٢٥) و ﴿ وَقُلْ لَّهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا ﴾ (النساء : ٦٣) وبذلك لا يتحول النقد أو التعبير إلى

(١) كثر العمال ، ح - ٥ ، ص ٦٨٧ - ٦٨٨ .

(٢) الطبري ، التفسير ، ح - ١٨ ، ص ١٥٨ - ١٥٩ ، سورة النور - آية ٥٥ .

(٣) سورة البقرة ، ٨٣ ، سورة النحل - ١٢٥ ، سورة النساء - ٦٣ .

سباب ومهارات ، تزرع الأحقاد ، وتبذر الفتن ، وإنما يقوم على تشخيص الظواهر الاجتماعية ، وتحليل مقدماتها ونتائجها بغية التعرف على الممارسات والمسارات الخاطئة للتوبة منها ، واكتشاف الصحيحة للرجوع إليها .

ونحن نلمح في طريقة نزول الوحي ، مايشجع على ظاهرة - التعبير عن الرأي الرفيع - والتساؤل البناء ، فحينئذ تساءلت نسبية بنت كعب ، المشهورة بأمر عمارة ، وصاحبة المواقف البطولية في أحد وحروب الردة : فقالت : يا نبي الله ! مالي أسمع الرجال يذكرون في القرآن ، والنساء لا يذكرن ؟ فأنزل الله تعالى :

﴿ إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ ، وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ، وَالْقَائِنِينَ وَالْقَائِنَاتِ ، وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ ، وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ ، وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ ، وَالْمُتَّصِدِقِينَ وَالْمُتَّصِدِقَاتِ ، وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ ، وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ ، وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ ، أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾ (لأحزاب : ٣٥) .

ومع اعتقادنا الراسخ بكمال العلم الإلهي ، إلا أننا نرى في مناسبة الآية واستجابة الوحي لطلب - نسبية - وأخواتها ، بعض مظاهره الحكمة الإلهية ، التي شكلت الأحداث ، لتعلم جبل الصحابة - والأمة المسلمة - درساً في التعبير عن الرأي ، وأهميته ، ولو كان الذي يعبر عن رأيه امرأة ، ولو كان الموضوع الذي يدور حوله التساؤل هو أسلوب الوحي !! فإذا كان الأمر كذلك ، فليس هناك من بني البشر من هو فوق التساؤل والنقد الإيجابيين !!

وعلى هذا النهج ، سارت الحياة في المجتمع النبوي والعهد الراشدي . فحين تولى عمر بن الخطاب رضي الله عنه الخلافة - مثلاً - كتب إليه أبو عبيدة بن الجراح ومعاذ بن جبل رضي الله عنهم ، من الشام رسالة مشتركة يذكرانه بالمسؤولية التي عهدت إليه ، ويحذرانه مغبة القصور عنها . وما جاء فيها : « أصبحت وقد وليت أمر هذه الأمة ، أحمرها وأسودها ، يجلس بين يديك الشريف والوضيع ، والعدو والصديق ، ولكل حصته من العدل . فأنت كيف أنت عند ذلك يا عمر ! فإننا نحذرك يوماً نعي فيه الوجوه ، ونحجف فيه القلوب ، ونقطع فيه الحجج بملك قهرهم بجبروته ، والخلق داخرون له : يرجون رحمته ويخافون عقابه » . وتلقى عمر الكتاب فلم تأخذه غزة السلطان ، وإنما شكر لها النصيحة والتواصي ، وكتب يطمئنها إلى ما أوصيا به ، ثم أضاف :

« كتبنا به نصيحة تعظاني بالله أن أنزل كتابكما سوى المنزل الذي نزل من قلوبكما . فإنكما تكتبان به وقد صدقتما ، فلا تدعا الكتاب لي ، فإنني لا غنى بي عنكما ، والسلام عليكما »^(١) .

(١) الطبراني ؛ المعجم الكبير ، ح - ٢٠ ، ص ٣٢ - ٣٣ رقم ٤٥ .
على المتقى الهندي ؛ كنز العمال ، ح - ١٦ ، ص ١٦٠ - ١٦١ نقلاً عن ابن أبي شيبة .

وكما أسلفنا ، فإن أمثال عمر لم يتعدوا أصابع اليد في تاريخ المسلمين . لذلك فإن من ضمانات مبادئ الحرية والعدل التي أراد عمر إرساءها واستمرارها « نصرتها » ، أن لا تترك هذه المبادئ إلى وراع الحاكم وأخلاقه ، بل تحرس بالتشريع وبالمؤسسات ، وأن لا يكون هناك سلطة فردية مطلقة ، وفردية التصرف معناها : العصمة من الخطأ ، والعصمة معناها : عدم النقد ، بل تحريمه وتجريمه ، وعدم النقد معناه تشجيع الحاكم على الطغيان ، وبقاء الطغيان والظلم مدى الحياة ، معناه : أن لا تجد الأمة سبيلاً للتخلص من الطاغية إلا بالانقلابات ، والثورات الدموية ، والفتن المدمرة !! التي تنتهي إلى مرض الأمة ، وموتها .

ولتجنب هذه السلسلة من السليبات والمضاعفات المهلكة ، لابد للتربية الإسلامية من التشريعات وبناء المؤسسات ، وتقنين القيم السياسية ، وأن ترفع انتخاب الحاكم وتقنين القيم السياسية وجماعية القيادة إلى مرتبة فروض الدين لأن هذا ما توجه إليه روح الشورى ، التي يوجه إليها القرآن الكريم وتطبيقات السنة ، وهذا ما فهمه عمر بن الخطاب رضي الله عنه حين قال : « لاخلاقه إلا عن مشورة »^(١) .

٤ - « نصرة » مؤسسات الإدارة والأمن والجيش لـ « الإنسان المسلم » في مواجهة « أشخاص » المتسلطين و « أشياء » المترفين .

وحتى تتجسد أفكار « النصرة » في واقع اجتماعي يعيشه الناس ، لابد أن يتركز عمل مؤسسات الإدارة والأمن والجيش حول الحفاظ على « إنسانية الإنسان المسلم » ، وصيانة حرمانه ، وتحقيق ذاته في الداخل ، ثم تمكينه من حمل رسالة الإسلام إلى الخارج . ولتحقيق هذه الغاية ، يؤكد القرآن الكريم بصراحة وقوة على عدم النيل من إنسانية الإنسان أو التجسس عليه ، أو اضطهاده ، أو نفيه ، أو غييبته ، أو امتهان كرامته ، وتهديد من يرتكب مثل هذه الجرائم بأشد أنواع العذاب في الدنيا والآخرة . والرسول صلى الله عليه وسلم يؤكد ذلك بنفس الحجم والكم تقريباً . فهو يجعل التجسس على الناس سبباً في إفسادهم :

« ﴿ إن الأمير إذا ابتغى الريبة في الناس أفسدهم ﴾^(٢) .

وعن معاوية رضي الله عنه ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له : « إنك إن اتبعت عورات الناس أفسدتهم ؛ أو كدت تفسدهم .

(١) التقي الهندي ، كنز العمال ، ح ٦ ، ص ٦٤٨ رقم ١٤١٣٦ .

(٢) سنن أبي داود ، ح ٤ ، باب الأدب ، ص ٢٧٢ .

فقال أبو الدرداء رضي الله عنه : كلمة سمعها معاوية من رسول الله صلى الله عليه وسلم نفعه الله بها^(١) .

والعقوبة يجب ألا يكون باعثها الحقد الشخصي ، ولا القسوة على الإنسان في حالة مخالفاته ، وإنزال العقاص به ؛ والأمثلة على ذلك كثيرة ، منها :
قال صلى الله عليه وسلم : « لا يجلد أحد فوق عشرة أسواط إلا في حد من حدود الله »^(٢) .

: « إن الله تعالى يعذب يوم القيامة الذين يعذبون الناس في الدنيا »^(٣) .
ويقول أيضاً : « صنفان من أهل النار لم أرهما : قوم معهم سياط كأذناب البقر يضربون بها الناس ... »^(٤) .

: « أول من يدخل من هذه الأمة النار ، السواطون »^(٥) .
والسواطون هم رجال الأمن ، الذين يحملون الأسواط يضربون بها الناس .
ويقول أيضاً :

- « إن أشد الناس عذاباً يوم القيامة أشدهم عذاباً للناس في الدنيا »^(٦) .
- « يوشك إن طالت بك مدة أن ترى قوماً في أيديهم مثل أذناب البقر يغدون في غضب الله ويروحون في سخط الله »^(٧) .
- « يكون في آخر الزمان شرط ، يغدون في غضب الله ، ويروحون في سخط الله ، فيياك أن تكون منهم »^(٨) .

والسجن الإسلامي يختلف عن السجن غير الإسلامي ، بحيث يتطابق مع احترام الإسلام لإنسانية الإنسان ، ويحافظ على كرامته ، وفي ذلك يقول ابن تيمية :
« الحبس الشرعي ليس السجن في مكان ضيق ، وإنما هو تعويق الشخص ، ومنعه من التصرف بنفسه ، سواء كان في بيت أو مسجد ، أو بتوكيل نفس الخصم ، أو وكيل الخصم عليه ، ولذلك ساء الرسول صلى الله عليه وسلم أسيراً »^(٩) .

(١) الطبراني ، المعجم الكبير ، ح ١٩ ، ص ٣٧٩ رقم ٨٩٠ .

(٢) البخاري ومسلم وأحمد والترمذي وأبو داود .

(٣) صحيح مسلم ، كتاب البر . مسند أحمد ، ح ٣ ، ص ٤٠٣ .

(٤) صحيح مسلم (شرح النووي) ح ١٧ ، كتاب الجنة ، ص ١٩٠ .

(٥) المتقي علي الهندي ، كنز العمال ، ح ٥ ، ص ٧٩٨ نقلاً عن ابن أبي شيبة .

(٦) مسند أحمد ، ح ٣ ، ص ٤٠٣ ، ح ٤ ، ص ٩٠ .

(٧) صحيح مسلم ، (شرح النووي) ، ح ١٧ ، كتاب الجنة ، ص ١٩٠ .

(٨) مسند أحمد (تصنيف الساعاتي) ، ح ١٩ ، ص ٣٢٤ .

(٩) ابن تيمية ، الفتاوى ، كتاب قتال أهل البغي ، ح ٣٥ ، ص ٣٩٨ .

ولقد برزت آثار التوجيهات التي عمقتها التربية النبوية في جيل الصحابة والراشدين ، فاتخذوها دستوراً في مؤسسات الإدارة والشرطة والجيش ، الموكلة بالحفاظ على « النصر » في الداخل والخارج . فقد كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه إذا بعث عماله شرط عليهم أن يعيشوا معيشة الناس ، وأن يركبوا ما يركبه عامة الناس ، وأن يلبسوا ما يلبسه عامة الناس ، ثم يشيعهم ، فإذا أراد أن يرجع قال :

« إني لم أسلطكم على دماء المسلمين ، ولا على أعراضهم ، ولا على أموالهم . ولكنني بعثتكم لتقيموا الصلاة ، وتقسموا فيهم فيهم ، وتحكموا بالعدل . فإذا أشكل عليكم شيء فارقوه إليّ . ألا فلا تضربوا العرب فتذلوها ، لا تجمروها فتفتنوها ، ولا تعتلوا عليها فتحرموها ، جردوا القرآن »^(١) .

ولقد خطب عمر رضي الله عنه يوماً في الناس فقال :

« ألا إني والله ما أرسل عمالي إليكم ليضربوا بأبشاركم ، ولا ليأخذوا أموالكم . ولكن أرسلهم ليعلموكم دينكم وستكم ، فمن فعل به شيء سوى ذلك فليرفعه إليّ ، فوالذي نفسي بيده إذا لأقصنه منه !

فوثب عمرو بن العاص رضي الله عنه فقال :

« يا أمير المؤمنين : أورايت إن كان رجل من المسلمين على رعية ، فأدب بعض رعيته ، أئنك لمقتصه منه ؟

قال : أي والذي نفس عمر بيده ، إذا لأقصنه منه ، وقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقص من نفسه ، ألا لا تضربوا المسلمين فتذلوهم ، ولا تجمروهم فتفتنوهم ، ولا تمنعوا حقوقهم فتكفروهم ، ولا تنزلوا الغياض فتضيعوهم »^(٢) .

واعتماد هذه المبادئ الإسلامية في تشكيل عمل مؤسسات النصر التي مر ذكرها ، يتطلب أموراً ثلاثة :

الأول : أن تنفرد التربية الإسلامية في إعداد العاملين في هذه المؤسسات ، وعدم تركهم للإعداد في المؤسسات الإدارية والبوليسية والعسكرية القائمة في ديار الغرب ، لتكون محصلة إعدادهم في تلك المؤسسات رهقا وإرهابا لأممهم ومجتمعاتهم في الداخل ، وعجزاً مذللاً أمام العدوان النازل بها من الخارج .

(١) المتقي الهندي ؛ كنز العمال ، ح ٥ ، ص ٦٦٨ نقلا عن البيهقي في شعب الإيمان . تجمروها : تجمير الجيش جمعه في الثغور وحبسهم عن العود إلى أهلهم . جردوا القرآن : لا تقرأ به شيئا ليكون وحده منفردا .

(٢) مسند أحمد ، (تصنيف الساعاتي) ، ح ٣ ، ص ٨٧ .

والثاني : أن تختلف الإجراءات التي تمارسها هذه المؤسسات ، والعقوبات التي تطبقها لإمضاء قوانين النصر ، وتشريعاتها ، عن نظائرها من المؤسسات غير المسلمة . إذ لا يجوز أبداً تقليد المؤسسات الأخرى ، واستيراد أساليبها ، أو التدريب في معاهدها على نظم البوليس وأساليب المخابرات ، وإجراءات التحقيق والعقوبات ، لأن المؤسسات غير الإسلامية تتعامل مع الإنسان انطلاقاً من فلسفة « الدارونية الاجتماعية » التي تقرر أن البقاء للأقوى ، واستناداً إلى نظريات علم النفس المشتقة من التجارب على الحيوان ، كنظرية « بافلوف » ونظريات التعلم الإشرطي « لسكنر » ، التي تستعملها الكثير من دوائر الشرطة والمخابرات في غسل الأدمغة وانتزاع الاعترافات .

والثالث : أن يتم تأسيس التربية العسكرية على الأصول الإسلامية التي تعد العسكري المسلم ليدور حول « أفكار الرسالة » ، لا في فلك « أشخاص » الحاكمين ، و « أشياء » المترفين .

وأهمية هذه التربية لا يمكن - هنا - الخوض في تفاصيلها ، وإنما يمكن تصورها من المثل الذي لم يحدث له نظير في تاريخ الجندية ، حينما أنزلت رتبة عسكري كخالد بن الوليد رضي الله عنه ، من « قائد عام للجيش » إلى « جندي نفر » ، ثم استمر في أداء واجبه قائلاً : أنا لا أقاتل من أجل عمر !!

ويرتبط بهذا المظهر للنصرة ، تنمية الوعي بـ « سيادة الشريعة فوق القوة » ، وإقامة المؤسسات المتخصصة بمراقبة الحاكمين والإداريين ، بحيث لا يكون أحد ، كائناً من كان ، فوق الشريعة أو القانون . بهما يُضبط سلوكهم ، وتوجه إداراتهم . وحين يحاول أحد أن يرتفع - فوق القانون - يُقوم تقويم القداح - حسب قول بشر بن سعد للخليفة عمر - ، وإذا لم يُقوم فإن ذلك يعني أن الصنمية عادت برموز جديدة ، والرضى بها من مظاهر الشرك ، والخضوع لغير الله .

وتحتاج التربية الإسلامية - من أجل تعميق الولاء لامتجاهات النصر - إلى نقد الممارسات التاريخية التي أطلقت أيدي بعض الخلفاء والسلاطين والولاة - بعد عصر الراشدين - في شؤون الحكم والمال والإدارة ، فصاروا يعززون من يشاءون في أعلى المناصب ، ويدلون من يشاءون بالعزل والاضطهاد . ومحيون من يشاءون بالعفو المجازي ، ويميتون من يشاءون بالإرادات الطاغية ، وبذلك شاركوا الله في صفاته وأفعاله ، وجسدوا صنمية الأنداد ! وتحتاج التربية الإسلامية كذلك إلى نقد قيم العصبية وثقافتها ، التي تصطدم بـ « النصر » ، فتجعل « القوة فوق القانون » ، وتحيل « حقوق » الناس الممنوحة لهم من الله « مكرمات » يمن بها عليهم أصحاب السلطان الأنداد ، وتطلق أيد المنفذين ليستعبدوا الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً ، وليتحكموا بمصائرهم وأرزاقهم ، ومقدراتهم ، دون رقابة من مؤسسة ، أو مسؤولية أمام تشريع .

ولاشك أن نقد التربية لهذه الثقافة العصبية المتخلفة ، هو واجب ديني ، والتخلي عن هذا الواجب أو القصور فيه والسباح لهذه الثقافة أن تشيع في مناهج التربية وبرامج الإعلام ، هو كبيرة من الكبائر المخدلة في النار ، كما ذكر ذلك صراحة في حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي أورد الكبائر السبع ، وذكر أن سابعها : « وأن يرتد أعرابياً بعد الهجرة »^(١) .

٥ - نصرة الأمة المسلمة في مواجهة طغيان الفرد أو الأقلية :

وأساس هذا المظهر أن الأمة التي توجهها روح النصرة ، لاتسمح للفرد أو الأقلية أن تغلب مصالحها الخاصة على الصالح العام . ولتحقيق هذا المظهر لابد للتربية الإسلامية أن تركز على رسوخ ثلاثة اتجاهات رئيسة هي :

الأول : تنمية الوعي بقيمة وحدة الأمة المسلمة والمحافظة عليها بكل الوسائل . ويتفرع عن وحدة الأمة : وحدة القيادة ، ومحاربة نزاعات السلطة المستمدة من الولاء الفردي ، والعصبية العائلية ، والقبلية ، والإقليمية ، والمذهبية ، والقومية ، وكل ما يعرض كيان الأمة للفتن والانقسامات . وهذا ما فهمه أبو بكر الصديق رضي الله عنه حين قال :

« وإنه لايجل أن يكون للمسلمين أميران . فإنه مهما يكون ذلك يختلف أمرهم وأحكامهم ، وتتفرق كلمتهم وجماعتهم ، ويتنازعون فيما بينهم . هناك ترك السنة وتظهر البدعة ، وتعظم الفتنة ، وليس لأحد على ذلك صلاح »^(٢) .

وحين اقترح أحد الأنصار في سقيفة بني ساعدة أن يكون للمسلمين خليفتان في آن واحد ، وقال للمهاجرين : منا رجل ومنكم رجل ، أجابه عمر بن الخطاب رضي الله عنه : « سيفان في غمد واحد إذا لا يصلحان »^(٣) .

والثاني : تنمية الوعي بأهمية العمل الجماعي ، وسيادة مبدأ الشورى ، لأن في الشورى تجسيدا لإرادة الأمة ، وإشراكاً لجميع أفرادها وهيئاتها في حمل المسؤولية . وهو ما طبقه الرسول صلى الله عليه وسلم وسار عليه الخلفاء الراشدون . فقد كان أبو بكر وعمر رضي الله عنهما إذا ماورد على أحدهما أمر ، نظر في الكتاب والسنة ، ثم شاور العلماء وأولي الرأي^(٤) .

والثالث : تكافؤ الفرص ، وعدم محاباة الأقارب والأصدقاء ، وتوزيع الوظائف والأعمال طبقاً لمقاييس الإخلاص والكفاءة . وهذا ماوجه إليه أبو بكر الصديق رضي الله

(١) الطبري ، التفسير ، ح - ١٨ ، ص ١٥٨ - ١٥٩ . تفسير سورة النور - آية ٥٥ .

(٢) البيهقي ؛ السنن الكبرى ، ح - ٨ (بيروت : دار صادر ، ١٣٥٤) ص ١٤٥ .

(٣) البيهقي ، نفس المصدر والصفحة .

(٤) الدارمي ، السنن ، ح - ١ (باب الفيتا) (دار إحياء السنة النبوية) ص ٥٨ .

عنه . فعن يزيد بن أبي سفيان رضي الله عنه : قال أبو بكر لما بعثني إلى الشام ؛ يا يزيد إن لك قرابة عسى أن تؤثرهم بالإمارة ، وذلك أكبر ما أخاف عليك . فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : من ولي من أمور المسلمين شيئاً فأمر عليهم أحداً محاباة له بغير حق ، فعليه لعنة الله ، لا يقبل الله منه صرفاً ولا عدلاً ، حتى يدخله جهنم . ومن أعطى أحداً من مال أخيه محاباة له فعليه لعنة الله ، أو قال برئت منه ذمة الله . إن الله دعا الناس أن يؤمنوا فيكونوا همى الله ! فمن انتهك في همى الله شيئاً بغير حق ، فعليه لعنة الله . أو قال برئت منه ذمة الله عز وجل^(١) .

٦ - نصرة رجال الفكر وجمهور الأمة في مواجهة رجال القوة والتسلط :

يرتبط هذا المظهر بنصرة « أفكار » الرسالة ، ارتباطاً وثيقاً . وهو من أهم ميزات الأصول السياسية للتربية الإسلامية . فالقرآن الكريم يحدد دور رجال الفكر ، ورجال القوة ، في أكثر من موضع ، من ذلك قوله تعالى :

﴿ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ ﴾ (النساء : ٥٩) .

ولقد قدم الرازي وابن تيمية عرضاً مطولاً لتفسير علماء الصحابة وتلامذتهم لمعنى « أولي الأمر » وخلصوا إلى أن هذه التفسير تنقسم إلى قسمين : قسم جعل « أولي الأمر » هم العلماء والأمراء ، وهو رأي الأقلية ، وقسم جعلهم العلماء وحدهم ، وهو رأي الأكثرية^(٢) .

وعلى كل حال فالعلماء ، أو رجال الفكر ، موجودون في تعريف كلا الطرفين ، ولهم الصدارة والأولية ، وهذا هو الذي ينسجم مع « نصرة الرسالة » ، وضرورة دوران « الأشخاص والأشياء » في فلك « الأفكار » ، كما مر .

كذلك يقدم القرآن الكريم أمثلة لما يجب أن تكون عليه مكانة رجال الفكر وجمهور الأمة ، ولقد ناقش ابن تيمية هذه المكانة ، وذكر أنها يوجه إليه قوله تعالى :

﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا ﴾ (المائدة : ٥٥) .

﴿ وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ ﴾ (المائدة :

٥٦) .

﴿ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (المنافقون : ٨) .

وفي التشهد :

(١) المتقي الهندي ، كنز العمال ، ح ٥ ، ص ٦٦٥ نقلاً عن مسند أحمد ، وابن أبي شيبة .

(٢) ابن تيمية ، الفتاوى ، كتاب السلوك ، ح ١٠ ، ص ٣٥٤ .

الرازي ، التفسير الكبير ، ح ١٠ ، ص ١٤٤ - ١٥٠ .

« التحيات لله والصلوات الطيبات ، السلام عليك أيها النبي ، ورحمة الله وبركاته ، السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين » .

فالإشارة هنا - لله ورسوله - إشارة إلى القائمين على فقه الكتاب والسنة والتربية عليها ، والإشارة إلى - الذين آمنوا - إشارة إلى جمهور الأمة المسلمة .

ويضيف ابن تيمية أن هذه الأصول هي التي أمر بها عمر بن الخطاب شريح رضي الله عنها حيث قال : « اقض بما في كتاب الله ، فإن لم يكن فيها في سنة رسول الله ، فإن لم يكن فيها اجتمع عليه الناس ، وفي رواية فيما قضى به الصالحون » .

وكذلك يقول ابن مسعود رضي الله عنه :

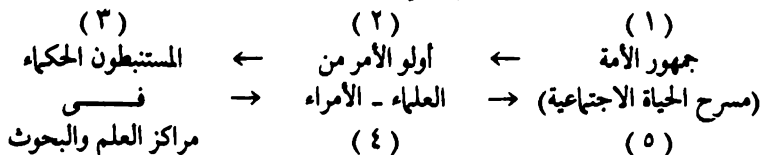
« من سئل عن شيء فليفت بما في كتاب الله ، فإن لم يكن فيها في سنة رسول الله ، فإن لم يكن فيها اجتمع عليه الناس .

وكذلك روى نحوه ابن عباس رضي الله عنهما وغيره ، ولذلك قال العلماء : الكتاب والسنة والإجماع^(١) .

كذلك يقدم القرآن الكريم أمثلة لما يجب أن تكون عليه معادلة العلاقة بين رجال الفكر وجماهير الأمة ورجال القوة ، وتحديد أدوار كل فريق منهم . من ذلك قوله تعالى :

﴿ وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوْ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ ﴾ (النساء : ٨٣) .

هكذا تتوزع الأدوار إذا واجهت الأمة قضية من قضايا الأمن أو الخوف ، أو شأناً من شؤون الحرب أو السلم . فالجس الجماهيري هو الأداة القادرة على استشعار القضايا ، أو المشكلات ، لأن الجماهير هي التي تتفاعل على مسرح الحياة الاجتماعية ، ولها حق التعبير والإعلان عنها ، ولكن ليس باللغو وإذاعة الإشاعات ، وإنما بأداء دورها في دائرة فاعلة ، دائمة الجريان ، حيث تبدأ الجماهير برد القضايا والمشكلات إلى أولي الأمر من العلماء - الأمراء (وهم هنا خلفاء الرسول صلى الله عليه وسلم) ليردوها بدورهم إلى المتخصصين القادرين على علمها واستنباط وسائل معالجتها . ويمكن أن تمثل هذه الدائرة الفاعلة في معالجة المشكلات والقضايا بالشكل التالي :



(١) ابن تيمية ، الفتاوى ، أصول الفقه ، ح - ٢٠ ، ص ٤٩٨ .

ولقد أدرك ابن تيمية هذه العلاقة التي تنظم أدوار رجال الفكر ، ورجال القوة ، وأسهب في وصف تطبيقاتها وتطوراتها في الأمة الإسلامية . وعما قاله في هذا الشأن :

« قال الله تعالى : ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَيَلْعَلُمُ اللَّهُ مَن يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ (الحديد : ٢٥)^(١) . . فقوام الدين بكتاب يهدي ، وسيف ينصر ﴿ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴾ (الفرقان : ٣١) .

ودين الإسلام : أن يكون السيف تابعا للكتاب ؛ فإذا ظهر العلم بالكتاب والسنة ، وكان السيف تابعا لذلك ، كان أمر الإسلام قائما . . وأما إذا كان العلم بالكتاب ، فيه تقصير ، وكان السيف تارة يوافق الكتاب ، وتارة يخالفه ، كان دين من هو كذلك بحسب ذلك^(٢) .

فابن تيمية ، يرمز لرجال القوة بـ « السيف » ، تمثيلاً مع وسائل تكنولوجيا القوة في عصره ، بينما يشير القرآن لها بـ « الحديد » ، المادة الأساسية لتكنولوجيا القوة في كل عصر .

ولقد كان عصر النبوة والخلافة الراشدة تطبيقاً للمعادلة القرآنية بين رجال الفكر ، وجمهور الأمة ، ورجال القوة . فقد كان « فقهاء الرسالة » يتصدرون مواقع الإمامة في الأمة ، ابتداء من إمامة الصلاة ، حتى إمامة المجتمع كله . ومن المعروف جيداً أن الخلفاء الراشدين كانوا أعظم فقهاء الرسالة ، بعد الرسول صلى الله عليه وسلم وأنهم لولا انشغالهم بشؤون السياسية وتسيير جيوش الفتح الإسلامي ، لتركوا مجلدات مبتكرة في أصول الفكر الإسلامي بميادينه المختلفة .

ولقد كان صلى الله عليه وسلم دائم التحذير من اختلال المعادلة التي أرساها بين رجال العلم ، وجمهور الأمة ، ورجال القوة ، ومن خطورة هذا الاختلال على مستقبل الأمة المسلمة ، من ذلك قوله :

« خذوا العطاء مادام عطاء ، فإذا صار رشوة في الدين فلا تأخذوه ، ولستم بتاركيه ، يمنعكم الفقر والحاجة . ألا إن رحي الإسلام دائرة ، فدوروا مع الكتاب حيث دار ، ألا إن الكتاب والسلطان سيفترقان فلا تفارقوا الكتاب ، ألا إنه سيكون عليكم أمراء يقضون لأنفسهم ما لا يقضون لكم ، إن عصيتموهم قتلوكم ، وإن أطعتموهم أضلوكم . قالوا يارسول الله : كيف نصنع ؟ قال : كما صنع أصحاب عيسى بن مريم ؛ نشروا بالمناشير ،

(١) سورة الحديد - آية ٢٥ .

(٢) ابن تيمية ، الفتاوى ، اصول الفقه ، ح ٢٠ ، ص ٣٩٣ .

وحملوا على الخشب . موت في طاعة الله ، خير من حياة في معصية الله ^(١) .
ومن الموضوعية أن نقول : إنه بعد مجتمع الخلفاء الراشدين ، اضطربت معادلة العلاقة بين رجال الفكر والتربية ، وبين رجال القوة ، ودخل الطرفان في صراع طويل انتهى بتغلب رجال القوة والسلطان . ولكن الحديث في تفاصيل هذا الموضوع يقع في دائرة البحث في تاريخ التربية الإسلامية ، وهو موضوع خارج عن نطاق هذا البحث .
وفي العصر الحديث ، تدرب مؤسسات التربية في العالم الإسلامي الحديث على أن شخصاً واحداً هو شخص المعلم - الذي يتقصد فيما بعد شخص الحاكم من أولي القوة - هو القادر على استشعار المشكلات ، والقضايا كلها ، وعلى إصدار الحلول الفاصلة القاطعة ، التي لامراء فيها . فالدائرة الاجتماعية - هنا - مقطوعة ممنوعة ، والتنسيق بين رجال الفكر ، وجمهور الأمة ، ورجال القوة ، غير قائم ، وحملة الشهادات ، وذوي الاختصاص ، ودور العلم ، والجامعات ، مجرد زينة و (ديكور) وطني ، يتباهى به رجال القوة ذوي الهيمنة المطلقة أمام الأقطار الأخرى ، تماماً كالمكتبات في بيوت العالم الإسلامي ، تزين بها البيوت ، كقطع الأثاث وأدوات الزينة ، دون أن يقرأ منها صاحبها صفحة واحدة ^(٢) .

وفي المقابل نجد أن نظم التربية في الغرب - غير المسلم - قد نسقت أدوار كل من رجال الفكر ، ورجال القوة ، وهيئات المجتمع ، بما يتطابق مع التوجيهات القرآنية التي مرت . فالمشكلات وقضايا الأمن أو الخوف تبدأ في الساحة الجماهيرية ، ولكنها لا تترك للغو والإشاعات ، وإنما تنقل لأولي الأمر بالاستفتاءات ، وجمع المعلومات ، والبيانات ، والمقابلات ، ثم ترد إلى مراكز البحوث المتخصصة ، حيث يكتب عليها المؤهلون القادرون على تحليلها واستنباط الحلول لها ، ثم يردونها إلى أولي الأمر من صانعي القرار ، ثم إلى

-
- (١) الطبراني ؛ المعجم الكبير ، ح-٢٠ (بغداد : وزارة الأوقاف والشؤون الدينية ، ١٩٨٢) .
(٢) لا يقتصر اضطراب المعادلة بين رجال الفكر ورجال القوة في العالم الإسلامي على الدول وإنما يشمل حركات الإصلاح كالأحزاب والجماعات . فهذه أيضاً تفترض العلم والحكمة والقدرة على التنفيذ والقيادة في أصحاب القوة والثروة والمكانة الاجتماعية من أعضائها ، في الوقت الذي تفتقر إلى المؤسسات المتخصصة بالفكر والبحث العلمي ، فالفكر في أوساطها قضية فردية حيث يظهر الفكر الفرد بينها بشكل عشوائي ثم يكافح وينمو بجهوده ونفقاته الخاصة ، حتى إذا نضج فكره وشاع ، استمرت أفكاره لكسب مزيد من التأييد والانتشار . وحين ينتهي أمر الفكر ويتوقف إنتاجه ولا يظهر غيره ترتد الأحزاب والجماعات إلى التراث تحتره وتشيد به أن كانت إسلامية الاتجاه ، أو تتوجه إلى الفكر الأجنبي إن كانت علمانية الاتجاه . أما في الغرب فإن الأحزاب والمنظمات - كالمسيحية مثلاً - تمتلك مؤسسات البحث العلمي والإنتاج الفكري وتضم من المتخصصين عددا وكفاءة تناسب مع الأهداف التي تعمل من أجلها والتحديات التي تواجهها .

أجهزة التنفيذ ، ثم تقوم بمتابعتها أجهزة القياس ، والتقويم ، لجمع ثمرات التطبيق ، وتقويم النتائج ، وتبدأ الدائرة من جديد .

٧ - نصرة الأمة المسلمة في مواجهة العدوان الخارجي :

وأساس هذا المظهر : أن الأمة التي يوجهها روح النصرة لاتسمح للعدو الخارجي أن ينال منها أو من أفرادها ومقدراتها . ولتحقيق هذا المظهر ، لابد للتربية الإسلامية أن تركز على خمسة اتجاهات رئيسة هي :

الأول : تربية الأمة على الروح العسكرية ، وتعشق الجهاد . والتوجيهات النبوية حازمة وراسخة في هذا الاتجاه . فهي تحث على تدريب الناشئة مبكراً مع الحملات الحربية وأدوات القتال التي رمزت لها بأدوات عصر النبوة المتمثلة في ركوب الخيل ، ورمي النبال ، واستعمالات السيف ، وفنون الفروسية ، مع مراعاة الاستمرار في هذه الأهلية وتعشق الجهاد .

والثاني : إقامة الصناعات الحربية ، وتطوير العلوم العسكرية ، بما يكفل للأمة الإسلامية التفوق الراجع للأعداء ، والرهبه والهيبه أمام الخصوم ، وتحقيق النصرة أمام التحديات والأخطار . وهذا مما يوجه إليه - بصراحة - قوله تعالى :

﴿ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَأَخْرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لِاتَّعْلَمُوهُمْ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ، وَمَاتَنَفَقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوفِّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تظَلُمُونَ ﴾ (الأنفال : ٦٠) .

والثالث : إقامة مراكز شهود العالم المتخصصة ، في البحث ودراسة مايجري في العالم من تيارات وأحداث في صالح الأمة المسلمة أوضدها . وذلك لتحديد سياسات التعامل مع هذا العالم وإيصال الرسالة إليه . وهذا مما يوجه إليه قوله تعالى :

﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً . لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً ﴾ (الفتح : ٨ - ٩) .

وهو أيضاً مايرشد إليه قوله صلى الله عليه وسلم :

« رحم الله من حفظ لسانه ، وعرف زمانه ، فاستقامت طريقته »^(١) .

والرسول صلى الله عليه وسلم كان يشهد الأحداث الجارية بوسائل المعرفة الثلاثة : الوحي ، والعقل ، والحس . أما وقد انقطع الوحي فإن على - مراكز البحوث والدراسات - أن تضاعف من عمل أداتي العقل والحس في شهود مايجري في العالم ، وبدون ذلك لاتكون هناك استراتيجيات صائبة ولاسياسات حكيمة .

(١) المناوي ، فيض القدير شرح الجامع الصغير ، ح - ٤ ، (القاهرة : دار الفكر ، ١٣٩٨ / ١٩٧٨) ، ص ٢٩ ، رقم ٤٤٤٠ .

والرابع : إقامة - مراكز الدراسات الاستراتيجية - المتخصصة بتشخيص الشؤون المتجددة ، ثم النظر في وسائل التكيف مع متطلبات هذه الشؤون ومجابهة التحديات التي ترافقها .

والخامس : إقامة - مراكز - لدراسة مجتمعات غير المسلمين ، وذلك لتحقيق أمرين : الأول : التعرف على أصول هذه المجتمعات الثقافية والاجتماعية الموجهة لسياساتها وعلاقاتها وسلوكها ، وتحديد أساليب التعامل معها ، ويقدم القرآن توجيهات واسعة لـ « قراءة عقول غير المؤمنين » و « إراداتهم » و « دوافعهم » ، مما يشكل أصولاً لتطوير علوم سياسية إسلامية ، وعلم اجتماع إسلامي ، وعلم إنسان إسلامي (انثروبولوجيا) ، وعلوم تتطلب الحاجات المتجددة ابتكارها وبلورة مياديتها . إذ بدون العلم ومناهجه لا يمكن تحقيق أي مظهر من مظاهر - النصر - التي قدمنا نماذج لها .
والأمر الثاني : هو بلورة أصول العلاقات الخارجية مع المجتمعات غير الإسلامية ، وتحديد الميادين التي يباح فيها التعاون والصداقة مع هذه المجتمعات ، والمدى الذي يصل إليه هذا التعاون ، والمدى الذي ينتهي عنده .

الفصل التاسع

العنصر السادس: الولاية والولاء

الولاية هي المحصلة النهائية لتفاعل العناصر المكونة للأمة المسلمة : أي عناصر الإيمان والهجرة ، والرسالة ، والإيواء ، والنصرة . كما أن وجود الولاية في واقع الأمة وسريانها في جميع ممارساتها وعلاقاتها ، شاهد على أن عناصرها المشار إليها ، هي حية فاعلة في سلوك الأفراد ونشاط الجماعات ، كما دل على ذلك أسلوب الإشارة إلى الولاية في آخر الآية التي وجهت إلى عناصر الأمة الخمسة :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ﴾ (الأنفال : ٧٢) .

معنى الولاية :

و « الولاية » مصطلح قرآني ، تردد في مئات المواضيع من القرآن والحديث ، ومعناه : القيام بأمر الآخرين كلها . و « الولي » هو القائم بأمر غيره من الأمة المسلمة في الميادين المتفرعة عن عناصر : الإيمان ، والهجرة ، والجهاد ، والرسالة ، والإيواء ، والنصرة بالطريقة التي أمر الله . أي أن « الولاية » مصطلح اجتماعي يعني : ولاء الفرد المسلم للأفكار التي جاءت بها الرسالة الإسلامية ، أكثر من ولاءه لنفسه ، وهو يجسد هذا الولاء من خلال الإسهام - مع المسلمين الآخرين - في تحويل الأفكار المذكورة إلى تطبيقات عملية ، تتمثل في عناصر الإيمان ، والهجرة ، والجهاد ، والرسالة ، والإيواء ، والنصرة ، بين الأفراد الذين يشتركون في الإيمان بالأفكار الإسلامية المشار إليها . فالولاية - إذن - هي هيمنة روح الشعور بالمسؤولية في السلوك والعلاقات والحاجات ، وقيام الأفراد والمؤسسات والجماعات برعاية شؤون بعضهم بعضا ، في ميادين الاجتماع ، والسياسة ، والاقتصاد ، والزراعة ، والصناعة ، والفكر ، والثقافة ، والتوجيه ، والتعليم ، والحرب ، والسلام ، والأمن ، والخطر ، وغير ذلك .

ومن هذه الولاية والرعاية اشتقت مصطلحات : « أولي الأمر » ، و « الولاة » . والذين يحسنون هذه الولاية والرعاية - كل في ميدانه - ويلتزمون في ولايتهم ورعايتهم

لشؤون غيرهم أوامر الله وتوجيهاته حق الالتزام ، دون أن تفتنهم المغريات ، هم (أولياء الله) . وبذلك يكون (ولي الله) هو من يلتزم أوامر الله حق الالتزام في ميادين الاجتماع ، والسياسة ، والإدارة ، والعسكرية ، والاقتصاد ، والتربية ، والفكر ، والثقافة ، والتوجيه ، والجهاد ، والأمن ، وغير ذلك . وبهذا المعنى كان أبو بكر وعمر بن الخطاب رضي الله عنهما وليين لله في ميدان الحكم والسياسة ، وكان خالد بن الوليد ولي الله في ميدان العسكرية ، وكان معاذ بن جبل ولي الله في ميدان التربية والتعليم ، وكان عبد الرحمن بن عوف وعثمان بن عفان وليين لله في ميدان التجارة والأعمال ، وكان هناك ولي الله الزراع ، وولي الله الصانع ، وولي الله الشرطي ، وولي الله الإداري ، وهكذا مادام الكل يعملون حسب أوامر الله ونواهيه ، ويتقونه حق تقاته .

ولعله من الواجب هنا - أن نشير إلى أمرين . . الأول : التشويه الخطير الذي أصاب مصطلح (الولاية) في التربية الإسلامية حين أخرجت (الولاية) من محتواها الاجتماعي وصار (ولي الله) هو الدرويش الأهل المنسحب من الحياة ، الفاقد للإحساس بها ، العاجز عن العمل ، الخانع أمام الأعداء ، القانع بالذل والفاقة والعجز والقذارة ، وإذا أهلكه الجوع والمرض والجهل ، أقيمت له النصب والأضرحة ، وصار صنماً تذبح عنده القرابين ، وتلذبه الجماهير ، التي تعاني من الظلم والفاقة والفقر والاستغلال . وفي الأصل كان وراء هذا التشويه معنى الولاية عقليات مأكرة من سلالات المترفين ، الذين سلبهم الإسلام نفوذهم على الناس ، وتحكمهم بمقدرات الحياة ، فعملوا على استرجاع ما فقدوه من امتيازات بوسائل التشويه الثقافي والتربوي ، وتشويه المصطلحات والمبادئ ، وأنماط المعتقدات والسلوك ، بعد أن عجزوا عن استرجاع امتيازاتهم بالوسائل العسكرية ، ثم استحسنت هذه السياسة الظلمة من السلاطين والحكام ، لصرف الأنظار عن احتكاراتهم وسياساتهم الجائرة . ولعل ما كتبه المقرئ في - الخطط - عن سياسة سلاطين المهالك في بناء الأضرحة ، وتشجيع طريق الدروشة ، ومواقف ابن تيمية وكتابات ضد هذه السياسات ، مثلاً واضحاً وشواهد لهذه السياسات الجائرة المشار إليها . ولقد حذت حذوه هذه السياسة واستثمرت التراث السلمي الممثل لها ، دوائر الاحتلال الاستعماري في المغرب العربي ، وأفريقيا ، والهند ، وغيرها .

والثاني : موقع الولاية - حسب المفهوم الإسلامي - في سلم محاور الولاء وضرورتها في المجتمعات المعاصرة .

لقد تطور مفهوم الولاية (أو الولاء) بتطور المجتمعات البشرية . فحين كان المجتمع الإنساني يتمثل في العائلة ، تحدد إطار (الولاء) بالعائلة ، وحينما أصبح المجتمع البشري هو (القبيلة) ، تحدد إطار الولاء بحدود القبيلة ، وحينما أصبح المجتمع البشري هو

القوم ، تحدد إطار الولاء بحدود القومية . وحينما تهدمت الحدود الجغرافية والثقافية بين المجتمعات البشرية ، جاءت الرسالة الإسلامية برباط (الولاية) الواسع الذي يفتح الباب لكل عضو في الإنسانية الانضواء في عقده .

ولعل مما تفرضه مبادئ النقد الذاتي أن نقول : إن جيل الصحابة قد جسد (رباط الولاية) بأوسع دوائر الولاء ؛ فضحوا بأنفسهم وأموالهم لإخراج الناس إلى عدل الإسلام ، وسعة الدنيا والآخرة ، ثم تلتهم أجيال ارتد بعضها إلى محاور - الولاء - القومي ، أو الشعبي ، ثم إلى محاور الولاء الإقليمي ، ثم إلى محاور الولاء القبلي . فالإنسان الحاضر في بلاد الإسلام يتحدد محور ولائه بحدوده الإقليمية ، وليس لديه مفهوم واضح عما يعنيه (الولاء) للأمة المسلمة الواحدة .

درجات الولاية الإيمانية :

والولاية في القرآن والحديث درجات متسلسلة كما يلي :

الدرجة الأولى ؛ ولاية الله للمؤمنين : وإلى هذه (الولاية) كانت الإشارة بأمثال قوله

تعالى :

﴿ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ، وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ ، أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ (البقرة : ٢٥٧) .

فاله يتولى شؤون المؤمنين بإخراجهم من ظلمات الجهل ، ومزالق الانحراف ، إلى مناهج الحياة الصائبة ، والمؤمنون يتولون القيام بعبادته تعالى ، ونشر دعوته ، والجهاد في سبيلها بالمال والنفس . . وولاية الله هي الأصل الذي تنفرع عنه بقية درجات الولاية . فمن لم يحقق هذه الولاية بينه وبين الله ، لا تنفعه موالاة سواه .

﴿ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَالَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ آلٍ ﴾ (الرعد : ١١) .

ولذلك يجري التأكيد وتكرار التذكير بتحقيق هذه الولاية ، وتكرر الإشادة والبشارة للذين حققوها في عشرات المواضع من القرآن الكريم والسنة الشريفة .

والدرجة الثانية ؛ ولاية الرسل والمؤمنين : وإلى هذه الدرجة من الولاية كانت الإشارة بأمثال قوله تعالى :

﴿ إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لِلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا ﴾ (آل عمران :

٦٨)

﴿ النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ﴾ (الأحزاب : ٦) .

فالرسل يتولون المؤمنين بالتربية والتوجيه والإرشاد ، والمؤمنون يتولون الرسل بالاستجابة والاتباع ، و « الإيواء » ، والنصرة .

والدرجة الثالثة ؛ ولاية المؤمنين للمؤمنين : وإلى هذه الدرجة كانت الإشارة بأمثال قوله تعالى :

﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ﴾ (التوبة : ٧١) .

فالمؤمنون والمؤمنات يتولون إيواء بعضهم بعضاً ، ونصرة بعضهم بعضاً ، ويأمن بعضهم بعضاً في ميادين الحياة المختلفة ، ابتداء من الأسرة ، ومروراً بالجواري في الحي ، والتعايش في المهجر ، والجهاد في الدائرة الإنسانية الكبرى . ومن هذه الموالاتة تتحدد - كما مر - مفاهيم الولاية ، ابتداء من ولاة الأسر ومروراً بولاية الأقاليم ، وأولي الأمر من العلماء والرؤساء والخلفاء وولاة العمل إلى جميع المسؤوليات والوظائف والمهن ، كبرت أم صغرت .
والدرجة الرابعة ؛ ولاية أولي الأرحام من المؤمنين : وإلى هذه الدرجة كانت الإشارة بأمثال قوله تعالى :

﴿ وَأَوْلُوا الْأَرْحَامَ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ ﴾ (الأحزاب : ٦) .

فأولوا الأرحام وذوي القربى في « أمة » المؤمنين ، يقومون بتولي أمور بعضهم بعضاً في شؤون الحياة كلها .

وتقدم مصادر التربية الإسلامية - في القرآن والسنة - تفاصيل دقيقة لأشكال - الولاية والولاء - الواجب تطبيقها في كل درجة من الدرجات الأربع المشار إليها ، بحيث تشمل جميع مظاهر السلوك ، وتطبعها بطابعها .

درجات ولاية غير المؤمنين :

والذين لا يكون لهم مكان في ولاية المؤمنين ، تكون ولايتهم في الطرف المقابل من الولاية الفاسدة ، القائمة على نصره الباطل ، والدعوة إليه ، والالتفاف حوله . وهذه الولاية الفاسدة درجتان :

الدرجة الأولى ؛ ولاية الشياطين للكافرين والمنافقين والعصاة : أي يتولونهم بالإضلال والإفساد والاصطدام مع أوامر الله وسننه في الحياة ، وإلى هذه الدرجة كانت الإشارة بأمثال قوله تعالى :

﴿ فَرِيقٌ لَّهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالُهُمْ فَهُمْ وِلِيُّهُمْ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (النحل : ٦٣) .

﴿ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ (الأعراف : ٢٧) .

وتحسن الإشارة - هنا - إلى الاستعمالات الخاطئة المضللة لمصطلح - الشيطان - بحيث لم يعد بمقدور المسلم العادي أن يتخذ موقفاً واقعياً محسوساً من الشياطين وأضاليلهم ، وصار محرجاً للمسلم المثقف أن يتطرق لمناقشة عمل الشياطين وأثاره ، لما يبرى في ذلك من إمكانية الوقوع في شرك الخرافة ، أو الاهتمام بالتفكير الخرافي .

فالقرآن والحديث يطلقان مصطلح - الشيطان - ليدل على المنشطن : أي المنحرف الضال عن قصد وإصرار^(١) . والشيطان - في القرآن والحديث - قسمان .. الأول : هو الشيطان الجني الذي لأيرى ولا يُسمع من البشر العاديين . والقرآن يذكر هذا النوع في معرض تعريفه بعناصر الوجود المحيط وتفاعل الإنسان معها ، ويخبر أن هذا الشيطان الجني ضعيف الكيد والتدبير .

والنوع الثاني : هو الشيطان الإنسان الذي ينشطن - أن ينحرف عن قصد وإصرار - عن منهج الله ، ويتبنى منهاجاً مضاداً في الفكر والسلوك ، ويجعل من الانحراف والضلال فكراً صائباً ، وعملاً صالحاً ، وإنجازاً حضارياً متقدماً ، ثم يكرس حياته وجهوده للدعوة إلى هذا الانحراف والضلال وإشاعتها . ففي معنى قوله تعالى :

﴿ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ ﴾ (الأنعام : ١٢١) .

يذكر الطبري في تفسيره أن الشياطين المشار إليهم في هذه الآية هم شياطين فارس من المجوس ، وأن أولياءهم هم المتمردون من مشركي قريش . فقد أرسلت فارس إلى أوليائها من قريش أن جادلوا محمداً وأصحابه ، حول أكل الميتة ، وكانوا يسمونها قتل الله . فقالوا : ماقتل الله لا تأكلونه ، وماقتلتم تأكلون . . وفي رواية قال المشركون للرسول صلى الله عليه وسلم : أخبرنا عن الشاة إذا ماتت من قتلها ؟ فقال : الله قتلها ، قالوا : فترعم أن ماقتلت أنت وأصحابك حلال ، وماقتله الله حرام ؟ فأنزل الله : ﴿ ولا تأكلوا ما لم يذكر اسم الله عليه ﴾ . وفي رواية أخرى ؛ قالوا : أماقتل الصقروالكلب فتأكلونه ، وأما قتل الله فلا تأكلونه ؟ فوقع في نفوس بعض المسلمين شيء ، فأنزل الله الآية ، ونزلت أيضاً آية : ﴿ شياطين الإنس يوحى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا ﴾ (الأنعام : ١١٦)^(٢) .

ورواية الطبري عن مناسبة الآية تبين بوضوح أن ظاهرة شياطين الفكر من المستعربين الذين يُثيرون الشبهات حول الإسلام ، وظاهرة أوليائهم من العرب - أو العملاء حسب لغة العصر الحديث - الذين يشيعون هذه الشبهات ، هي ظاهرة قديمة - حديثة ، فالعرب كانوا ومازالوا يتلقون القضايا الفكرية من شياطين الخارج . ففي الماضي كانوا يتلقون المعتقدات والشبهات من فارس والروم ، واليوم يتلقونها من الغرب والشرق ، ولا عاصم لهم إلا الإسلام .

والحديث النبوي يركز على التحذير من شياطين الإنس . من ذلك قوله صلى الله عليه وسلم : يا أبا ذر هل تعوذت بالله من شر شياطين الإنس والجن ؟ قال : قلت : يا رسول

(١) الطبري ؛ التفسير ، ح - ١ ، ص ٤٩ . ابن كثير ؛ تفسير سورة البقرة - آية ١٥ .

(٢) الطبري ، التفسير ، ح - ٨ ، ص ١٦ - ١٧ .

الله وهل للإنس من شياطين ؟ قال : نعم ، شر من شياطين الجن^(١) .

وهذا التصور الذي يقدمه القرآن والحديث يكون هناك شيطان الفكر ، وشيطان التربية ، وشيطان الثقافة ، وشيطان الآداب ، وشيطان الفنون ، وشيطان الإعلام ، وشيطان الإباحية ، وشيطان الأزياء . ومن أحب أحداً من هؤلاء الشياطين أو قلده ، فهو ولي لهم ، وهم أولياء له ، باعتبار أن لكل هؤلاء اهتمامات مشتركة تعمل في الاتجاه المضاد لصحة الأمة المسلمة وسلامة عناصرها في الإيمان والهجرة ، والجهاد ، والرسالة ، والإيواء ، والنصرة إن كانت قائمة ، أو يعمل على إعاقة إخراجها إن كانت في مرحلة التكوين أو النشأة والنمو .

وهكذا تتمركز - ولاية الشيطان - في قلب الاجتماع البشري ، وتحتل سلوكاً بشرياً متخلفاً وضاراً لأبد من مواجهته ودراسته . ولكن مؤسسات التربية الإسلامية ، حين خشيت في عصور الجمود والاستبداد ، شياطين السياسية والترف من الإنس ، انحرفت للغوص في الغيبات بحثاً عن شياطين الجن التي لا ترى ، وأشغلت تفكير الناس بذلك حتى انتهت بكثير منهم إلى الوسوسة والجنون . لذلك لا بد للتربية الإسلامية أن ترد لمصطلح الشيطان ، وولاية الشيطان ، محتوئهما الاجتماعي المتمركز في قلب الاجتماع البشري ، ولا بد لها أن تفتح ميادين جديدة في علم النفس للتعرف على العوامل والمؤثرات التي تنتهي بالإنسان الذكي إلى الشيطنة الفكرية ، والسياسية ، والاقتصادية ، والأخلاق ، والتعرف على مضاعفاتها ، وأساليب معالجتها ، وطرق الوقاية منها . فذلك هو الذي تدعو إليه الضرورات وتتطلبه التحديات ، ويركز عليه القرآن الكريم ، حين يتحدث عن شياطين البشر من القيادات الفكرية والسياسية وأثارهم السلبية في الجماهير التي تستجيب لسيطنتهم وتقتفي أفعالهم ، من ذلك قوله تعالى :

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ اسْتَضَعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَاداً وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (سبأ : ٣٣) .

ولقد روى الطبري عن المفسرين قولهم عن « مكر الليل والنهار » ، أي مكرهم أيها الرؤساء لنا بالليل والنهار - أي تدبيركم وتخطيطكم - حتى أزلتمونا عن عبادة الله والمنهج المستقيم في الحياة^(٢) .

والدرجة الثانية : ولاية الكافرين والمنافقين والعصاة بعضهم لبعض : وإلى هذه الدرجة كانت الإشارة بأمثال قوله تعالى :

(١) الطبري ، نفس المصدر ، ص ٥ .

(٢) الطبري ، التفسير ، ح ٢٢ ، ص ٩٧ - ٩٨ .

﴿ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ﴾ (الجاثية : ١٩) .
 ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ﴾ (الأنفال : ٧٣) .

فالكافرون والمنافقون والعصاة من القادة والموجهين ، يتولون الأتباع بالتوجيه والتدريب على الممارسة والتطبيق . بينما يتولى الأتباع القادة والموجهين بالاستجابة ، والاتباع ، والإيواء ، والنصرة . وهم جميعا يتعاونون لإقامة - أمة الكفر - والهيمنة في الأرض لنشر الفتنة ، والفساد الكبير .

٤ - التربية ورباط الولاية :

يبنه القرآن إلى ضرورة العلم بالنوعين من - الولاية - وقيام التربية بالتمييز بينها بغية اتقاء التداخل أو الاختلاط بين الأفكار والتطبيقات ، والروابط والولاء ، مما يضعف - ولاية الأمة المسلمة - ويبطل فاعليتها . وأبرز الظواهر التي تختلط فيها مفاهيم الولاية والرعاية ، هي - روابط العصبية والدم والمصالح الاقتصادية - ، ولذلك أخضعتها التربية الإسلامية لتوجهاتها ، وسمحت بها مادامت - صلة رحم - تدور في فلك - ولاية الإيمان - . أما إذا انقلبت عصبية جاهلية ، واصطدمت بولاية المؤمنين ، فعند ذلك لامكان لها في « أمة المؤمنين » . وإلى ذلك يشير أمثال قوله تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ ، وَمَنْ يَتَّخِذْ مِنْكُمْ مَثَلًا فَلْيُقْبَلْ مِنْ أَهْلِهِ مَقْبُوعًا . قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِينُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ، وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ (التوبة : ٢٣ - ٢٤) .

والرسول صلى الله عليه وسلم ، يخرج من بقي مواليروابط العصبية ، من دائرة الانتهاء لـ « الأمة المسلمة » ، وأنه ليس من هذه الأمة من دعا إلى عصبية ، أو قاتل على عصبية ، أو مات على عصبية^(١) .

وتبدو الحكمة من المفهوم الإسلامي لـ « الولاية » حين ننظر في العلاقة بين فاعلية الولاية وسعة دائرتها . فالأمة التي تمتد حدود (الولاية) فيها إلى الدائرة الإيمانية التي تتسع للإنسانية كلها ، تتفوق على الأمة التي ينتهي رباط الولاية فيها عند « الدائرة القومية » ، والأمة التي ينتهي رباط الولاية فيها عند « القوم » تتفوق على الأمة التي ينتهي فيها رباط الولاية عند دوائر « القلبية » . والسبب : أنه كلما اتسعت دائرة الولاء ، تطلبت إلى قدر أكبر من العمل الجماعي ، ومحتويات أوسع وأعمق لروابط الإيمان ، والهجرة ، والجهاد ،

(١) صحيح مسلم ، كتاب الإمارة .

والرسالة ، والإيواء ، والنصرة ، وإلى قدر أكبر من الوسائل وتكنولوجيا التنظيم . وهذا مايفسر تخلف مجتمعات العالم الثالث وتفوق مجتمعات أمريكا وأوروبا واليابان ، ذلك أن ولاء الفرد والجماعات في المجتمعات المتفوقة يمتد حتى دائرة « القوم » ، بينما ينتهي ولاء الفرد في مجتمعات العالم الثالث - ومنه العالم الإسلامي - عند دائرة « القبيلة » أو « الطائفة » ؛ ولذلك تتحدد جهوده ونشاطاته واهتماماته بحدود الدوائر القبلية والطائفية ، وبما يكفي احتياجاتها المحدودة ، مما يجعل أهدافه أصغر ، وطموحاته أدنى ، ونشاطاته ووسائله في المعرفة والعمل والإنتاج أقل .

السبب الثالث

صحة الأمة ومرضاها وموتها

الأمم بشكل عام كالأفراد ، تتنابح حالات الصحة والمرض والوفاة ، ولها أعمار وأجال .
وحين تمضي الأمم في مراحل الصحة والمرض والموت ، فإنها تسير طبقاً لقوانين محددة ومراحل
مقدرة تحكمها - الأسباب والنتائج - وتصاحبها - الأعراض والمضاعفات - حتى تنتهي الأمة
إلى أجلها ومصيرها المحتوم . وإلى هذه الحقيقة يشير قوله تعالى :
﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ (الاعراف :
٣٤) .

﴿ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ (يونس :
٤٩) .
﴿ وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَعْلُومٌ ، مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجْلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ ﴾
(الحجر : ٤ - ٥) .

والأسباب التي تؤدي إلى مرض الأمم وتسوقها إلى آجالها ، هي أيضاً أسباب مرض
الأفراد وآجالهم : أي هي أسباب طبيعية تتمثل في الهرم وانتهاء زمن الابتلاء المقدر في
الحياة ؛ وأسباب مرضية تتمثل في مخالفة قواعد صحة الأمم ، واقتراف أسباب المرض أو
الوفاة . والأسباب الطبيعية لاسيما إلى التحكم بها مثل انتهاء أجل الأمة التي أخرجت على
يد رسول الله صلى الله عليه وسلم والتي أشار إلى أجلها بقوله :
« إن لكل أمة أجلا ، وإن لأمتي مائة سنة ، فإذا مرت على أمتي مائة سنة أتاناها ما وعد
الله »^(١) .

أما الأسباب المرضية فيمكن التدخل بها إيجاباً وسلباً ، مثلما يمكن التدخل في أسباب
صحة الأفراد وأمراضهم ووفاتهم . ويحتاج العاملون في ميادين (إخراج الأمة) ورعايتها ،
إلى التمييز بين « أسباب مرض الأمم » و « أعراضه » و « مراحلها » . « فالأسباب »

(١) المتقي الهندي ، كثر العمال ، ح - ١٤ ، ص ١٩٣ نقلاً عن الطبراني في - المعجم الكبير - .

المرضية تكون « فكرية » أساسها مافي الأنفس ، من معتقدات وقيم وثقافات . . أما « الأعراض » فتكون سياسية واقتصادية واجتماعية . . وأما « المراحل » فتكون « سياسية » . والخلط بين الأسباب ، والأعراض ، والمراحل ، يتسبب في الاضطراب والارتباك في ميادين التربية والدعوة والمعالجة ، فيشتغل المعالجون بالأعراض بدل الأسباب . . أو يخطئون ترتيب الأسباب والمراحل ، أو يخطئون في استعمال وسائل العلاج وطرائقه ، أو يخطئون في توفير المؤسسات اللازمة لذلك ، وهكذا .

والرسول صلى الله عليه وسلم يوجه إلى أسباب مرض الأمم وموتها ، وإلى أعراض هذا المرض ومراحله في أحاديث كثيرة ومتنوعة مستهدفاً تحريك - إرادات - المسلمين لاستعمال - قدراتهم - العقلية والحسية للبحث في الأسباب ، وتشخيص الأعراض ، وتحديد وسائل العلاج .

ويتحدث صلى الله عليه وسلم عن مراحل صحة الأمة ومرضها ووفاتها فيقول : « إن هذا الأمر بدأ رحمة ونبوة ، ثم يكون رحمة وخلافة ، ثم كائن ملكاً عضواً ، ثم كائن عتواً وجبرية وفساداً في الأرض ، يستحلون الحرير والفروج والخمر ، ويرزقون على ذلك وينصرون ، حتى يلقوا الله عز وجل »^(١) .

أما تفاصيل المراحل الثلاث وما يرافقها من أسباب وأعراض ، ومضاعفات ونتائج ، فهي كما يلي :

(١) ابن كثير ، البداية والنهاية ، ح ٨ ، ص ٢٠ نقلاً عن الطبراني بإسناد جيد .

الفصل العاشر

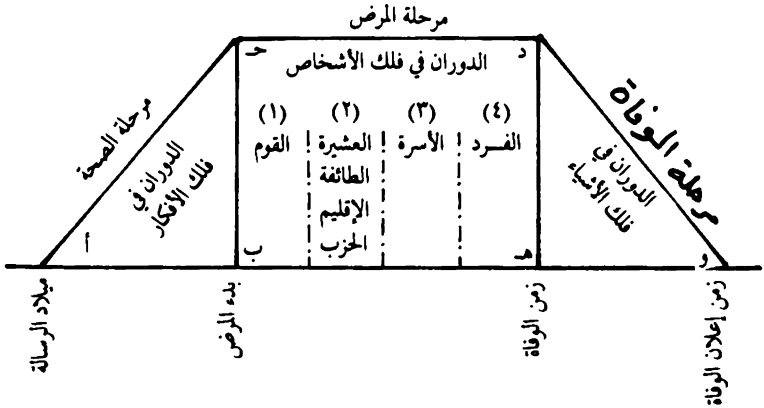
المرحلة الأولى : مرحلة صحة الأمة وعافيتها (مرحلة الدوران في فلك الأفكار)

يرمز إلى مرحلة صحة الأمة في الشكل رقم (١) بالمثلث أ ب ح ، حيث تبدأ بميلاد الرسالة عند المحطة الزمنية أ ، حتى إذا تم إخراج الأمة ، وبلغت درجة النضج ، كانت حقيقة « المثل الأعلى » الذي يوجه الحياة في الأمة هي :

= دوران « الأشخاص والأشياء » في فلك « أفكار » الرسالة وتطبيقاتها =

والنطبيق العملي للدوران المذكور ، هو أن يكون « الولاء » للرسالة هو محور الأنشطة التي تركز خلالها طاقات الأشخاص ومقدرات الأشياء في الأمة في سبيل تطبيق « أفكار » الرسالة في الداخل ، ونشرها في الخارج . وبذلك تصبح « أفكار » الرسالة هي غايات الحياة ، بينما يشكل جهاد الأشخاص وبذل الأشياء في هذا الجهاد ، دور الوسائل العامة لتحقيق هذه الغاية .

وبتعبير آخر : « يخلف أشخاص الأمة » الرسول في نصره « أفكار » الرسالة ، فتظهر - الخلافة - وتحدد مواقع الأفراد ووظائفهم طبقاً لدرجة قدرتهم على « خلافة » الرسول في



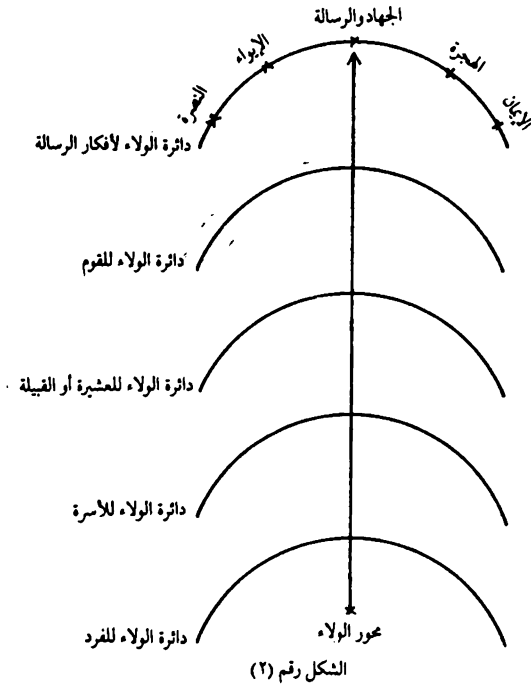
الشكل رقم (١)

مراحل صحة الأمة ومرضاها ووفاتها

« فقه » أفكار الرسالة وتطبيقاتها ، والإخلاص في حملها . . وتطابق مواقف « الخلفاء » مع نموذج الرسول في الفقه والتطبيق ، يؤهل خلافتهم لتوصف بأنها خلافة راشدة . وتتفاوت سعة « الخلافة » بتفاوت مسؤوليات الأفراد ابتداء من مسؤولية الفرد في أسرته أو متجره ، أو وظيفته ، حتى تبلغ قمته في - الخليفة الحاكم - الذي يدير السياسة ويصرف الأمور العامة . وهذا التجانس بين قمة الخلافة وقواعدها هو بعض ما يعنيه قوله صلى الله عليه وسلم : « كما تكونوا يُولَ عليكم » .^(١)

وفي حالة الصحة ، تستمد عناصر الأمة : أي عناصر الإيمان ، والهجرة ، والجهاد ، والإيواء ، والنصرة ، والولاية ، محتوياتها من « أفكار » الرسالة ، وتستثمر في سبيل تطبيقات الرسالة ونشرها .

ويصور الشكل رقم (٢) التكوين الذي تنتظم طبقا له عناصر الأمة في مرحلة الصحة المشار إليها :



(١) ابن تيمية ، الفتاوى ، كتاب قتال أهل البغي ، ح - ٣٥ ، ص ٢٠ .

ونتيجة لذلك تصبح معادلة تكوين الأمة كالتالي :

الأمة = أفكار الرسالة (أفراد مؤمنون + هجرة ومهجر + جهاد + إيواء + نصره)
= أفراد مؤمنون بالرسالة + هجرة ومهجر لأفكار الرسالة + جهاد في سبيل
الرسالة + إيواء حملة الرسالة + نصره الرسالة .

والنتيجة العملية لهذا التكوين هي : (الولاية أو الولاء للأمة) ، وهذا الولاء هو مظهر
صحة الأمة وعافيتها ، وتكون المظاهر والتطبيقات العملية لذلك كما يلي :

أ - رقي مستوى الخبرات الاجتماعية والكونية :

يرتقي مستوى - الخبرات الاجتماعية والكونية - تبعاً لارتقاء مستوى « المثل الأعلى » .
ولما كانت النشاطات التربوية والعلمية هي التطبيق العملي لرقى الخبرات المذكور ، فإن
- إنسان التربية - هنا « يقرأ باسم ربه » ، ويبتعد لتوفير الأهداف والوسائل التي تحقق
غايات هذه القراءة . ويكون من ثمار ذلك ثلاثة أمور : الأول ؛ ارتقاء مستوى المعرفة إلى
مستوى « العلم » : أي مستوى اكتشاف الحقائق الجديدة ، والصياغة الجديدة للمعارف
السابقة . والثاني ؛ اتساع دائرة المعرفة لتشمل قضايا الوجود كله في مراحل النشأة والحياة
والمصير دون حدود عرقية أو مكانية أو زمانية ، إلى أن يبرز قسمان متكاملان من العلوم :
علوم الغايات التي تدور حول فقه « أفكار الرسالة » وتطبيقاتها ، وعلوم الوسائل التي تدور
حول « تسخير » طاقات « الأشخاص » و « الأشياء » لتوفير الأدوات اللازمة لتجسيد
« غايات » الرسالة في حياة الأمة المسلمة في الداخل ، ثم حملها ونشرها بين الآخرين في
الخارج . والثالث ؛ نشاط الحركة المعرفية ، وشيوع روح الاجتهاد ، وتعشق البحث
العلمي ، والتنقيب في الخبرات البشرية الماضية والحاضرة ، وشيوع حب القراءة بين خاصة
الأمة وعامتها ، وازدهار التربية والعلوم ، ومؤسساتها وتطبيقاتها في مجالات الحياة
المختلفة ، وجذب العلماء من أي قطر كانوا ، وإلى أي عرق انتموا .

ب - رقي مستوى التفاعل مع الرسالة (رقي شبكة العلاقات الاجتماعية) :

يرتقي مستوى التفاعل مع الرسالة - أي ممارسة الحياة طبقاً لتوجيهاتها - ويتجسد هذا
- عملياً - في شبكة العلاقات الاجتماعية التي تنظم علاقات الأفراد والجماعات في الداخل ،
وعلاقات الأمة مع غيرها من الأمم ، حيث تتشكل هذه الشبكة كما يلي :

تصبح رابطة « الإيمان » بأفكار الرسالة هي المحدد « الجنسية » الأفراد ، و « ثقافة »
الأمة . ويصبح « المهجر » الذي يجمع المؤمنين بأفكار الرسالة ، هو الوطن الواحد الذي
لا يتجزأ ، والدار المفتوحة لأفراد المؤمنين جميعهم .

ويصبح « الجهاد » لتجسيد أفكار الرسالة في الداخل ، ونشرها في الخارج ، هو المجرى
العام الذي تصب فيه روافد جهود أفراد المؤمنين وجماعاتهم .

ويصبح « إيواء » الأفراد المؤمنين بتطبيقات الرسالة ، حقاً لكل من يحمل « جنسية » الإيمان ، ويتذوق « ثقافة » المؤمنين .

وتصبح « نصره » كل من يحمل جنسية المؤمنين ، ومن توجه أفكار الرسالة إلى نصرته من غير المؤمنين ، مسؤولية تقع على كاهل الأمة جميعها .

وتشكيل محتويات عناصر الأمة بالشكل المذكور ، يؤدي إلى قيام شبكة العلاقات الاجتماعية وتنظيم مؤسساتها كما يلي :

١ - يجري تطبيق توجيهات الرسالة بكامل معانيها ، حيث يتركز تطبيق « الأمر بالمعروف » حول التوافق مع سنن الله وأقداره وقوانينه ، ويتركز تطبيق « النهي عن المنكر » حول الحذر من الاصطدام بهذه السنن والأقدار والقوانين في جميع الأعمال والممارسات . ويتركز تطبيق « الإيمان بالله » حول وقاية الإنسان من مرض « الطغيان » ، وادعاء الألوهية في حالة القوة والغنى ، ومن مرض « الهوان » ، والرضى ببق « الأشخاص والأشياء » في حالات الضعف والفقر ، والتبعية .

٢ - ينتظم سلم القيم في الأمة حول محور « الفكرة توجه القوة » ، وهذا يعني تسلم فقهاء الرسالة وحكماؤها وخبرائها زمام القيادة في ميادين الحياة المختلفة . أي هم « أولو الأمر » الذين قرن القرآن طاعتهم بطاعة الله وطاعة رسوله . أما مؤسسات « القوة » ومافيهما من أمراء وقادة ورؤساء وحاكمين ، فهم - الأجهزة - التي تنفذ ما يشرعه « أولو الأمر » : العلماء والمفكرون .

والمصادر الإسلامية واضحة جلية في تحديد مسؤوليات « العلماء » و « الرؤساء » وتصنيفها . ففي تفسير الطبري عن ابن عباس وغيره أن « أولى الأمر » هم : أهل الفقه في الدين والعلم والعقل^(١) . وعند الرازي أن غالبية العلماء ترى أن « أولى الأمر » هم العلماء ، وآخرون يرون أنهم العلماء والأمراء^(٢) وعند ابن تيمية أنهم : العلماء والأمراء أو أهل الكتاب وأهل الحديد^(٣) .

ولقد تجسدت « ولاية الأمر » لأهل الفقه والعلم والدين والعقل ، في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم ، وعهد خلفائه الراشدين رضي الله عنهم .

٣ - يتركز إنتاج « الأشياء » واستعمالها ، فيما يحقق غايات الرسالة ، ويجسد « مثلها الأعلى » في تحقيق المنفعة لأمة الرسالة ، وشيوع العدل ، وتكافؤ الفرص ، وهيمنة السلام .

(١) الطبري ، التفسير ، ح ٥ ، ص ١٤٨ - ١٤٩ .

(٢) الرازي ، التفسير الكبير ، ح ١٠ ، ص ١٤٤ - ١٥٠ .

(٣) ابن تيمية ، الفتاوى ، كتاب السلوك ، ح ١٠ ، ص ٣٥٤ .

ابن تيمية ، الفتاوى ، مجمل اعتقاد السلف ، ح ٣ ، ص ٤٢٣ .

٤ - تستمد نظم الإدارة والسياسة والاقتصاد والعسكرية محتوياتها من « أفكار الرسالة » ،
وتحدد وظائف الأفراد ومسؤولياتهم ، طبقاً لدرجة ولائهم لأفكار الرسالة ، ودرجة قدراتهم
العلمية والجسدية ، ومهاراتهم التنفيذية ، دون اعتبار لمقاييس النسب ، والمولد ،
والقوة ، والعلاقات الشخصية المختلفة .

ج - رقي مستوى القدرات العقلية :

في بيئة الولاء لـ « أفكار » الرسالة تشيع حريات التفكير والتعبير والعمل والاختيار ،
ويتفاعل أصحاب القدرات العقلية بعضهم مع بعض ؛ الأمر الذي يساعد على نمو هذه
القدرات وبلوغها أقصى مداها ، ابتداء من القدرة على الحفظ ، ومروراً بقدرات الفهم ،
والتحليل ، والتركيب ، والتأليف ، والتطبيق ، والتقويم ، حتى القدرة على العمل
والنشر .

واستثمار جميع المقدرات الفكرية والبشرية والثقافية والمادية بهذا التجرد والتناسق
والتكامل ، يمنح الأمة الناشئة عافية وقدرات هائلة : فهو - أولاً - يرفع درجة « القدرات
التسخيرية » عند الأفراد ، ويبعث « إراداتهم العازمة » . وهو - ثانياً - يشيع في الأمة
التجانس الثقافي في القيم والعادات والأخلاق والممارسات الاجتماعية والثقافية والفنية ونماذج
التعبير والتطبيق بما يتفق مع - محور الولاء - الذي يتغذى من دائرة « أفكار » الرسالة ، الأمر
الذي يمنح الأمة الناشئة عافية وقدرات تقودانها إلى نجاحات حاسمة ، وانتصارات
كاسحة ، تدفع بالمجتمعات المعاصرة لأمة الرسالة إلى فتح قلوبها لبعوث الرسالة ، والإقبال
على دراستها ، والتفاعل معها ، واعتناق عقيدتها وتطبيقاتها .

الفصل الحادي عشر

مرحلة مرض الأمة (مرحلة الدوران في فلك الأشخاص)

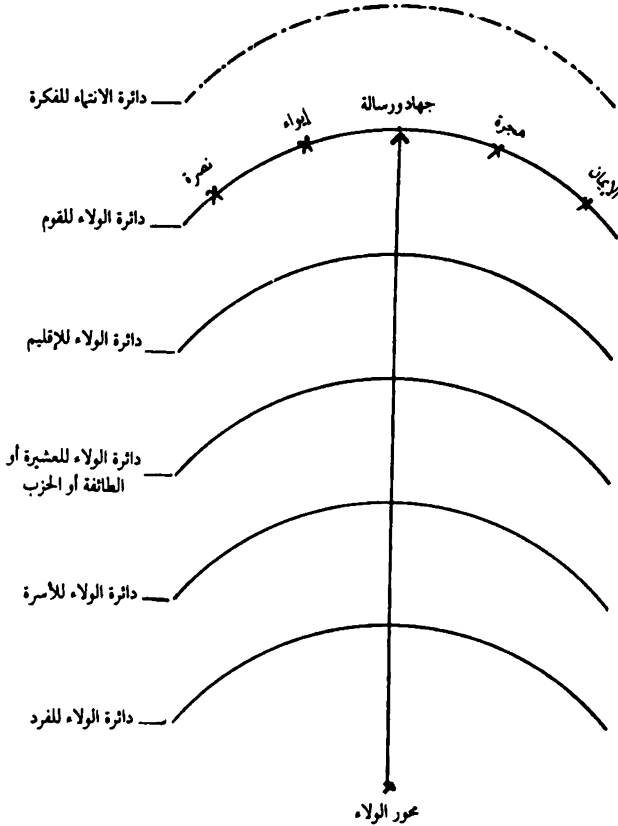
يرمز إلى مرحلة مرض الأمة في الشكل رقم (١) بالمستطيل ب ح د هـ . وتتحول الأمة إلى هذه المرحلة حين تصبح حقيقة « المثل الأعلى » الذي يوجه الحياة فيها هي :
= دوران « الأفكار والأشياء » في فلك « الأشخاص » =

ويبدأ الدوران المذكور حين يتغير مفهوم حمل « أفكار » الرسالة ، فيصبح « مكاسب » يسعى « أشخاص » العصبية القوية إلى « إجبار » الآخرين على الاعتراف لهم بـ « ملكيتها » ، والتمتع بثمارها في الجاه والمال والنفوذ بعد أن كانت « مسؤولة » ، و « أمانة » ، « يخلف » أفراد الأمة الرسول في حملها ونشرها . والمحصلة النهائية لهذا التبدل في القيم الاجتماعية ، هي اختفاء « الخلافة الراشدة » ، وظهور ما يسميه الرسول صلى الله عليه وسلم بـ « الملك الجبري » الذي يلغي الشورى وحرية الاختيار ، ويجبر الأمة على المنهج الذي يضمن مصالح « أشخاص » العصبية في الحكم والتملك . وتتفاوت دوائر « الملك الجبري » في الأمة بتفاوت سعتها ومقدارها ، فتبدأ من الأسرة أو المتجر أو الوظيفة ، حتى تبلغ أقصى سعتها في صلاحيات الحاكم . وهذا التجانس بين قمة - الملك الجبري - وقواعده ، يندرج كذلك تحت قوله صلى الله عليه وسلم : « كما تكونوا يؤول عليكم » .

ونجاح « أشخاص الملك الجبري » في توجيه سُلّم القيم في الأمة عند المحطة الزمنية (ب) في الشكل رقم (١) ، يهبط إلى انحسار عناصر الأمة ، أي عناصر : الإيمان ، والهجرة ، والجهاد ، والإيواء ، والنصرة ، والولاية ، من دائرة « الأفكار » إلى دائرة الولاء لـ « الأشخاص » ، واستبدال محتوياتها الفكرية بمحتويات « شخصية » .. وتكون المحصلة النهائية لتفاعلاتها هي - الولاء للأشخاص - . وبذلك يتغير تكوين الأمة لتصبح معادلته كما يلي :

الأمة = الولاء للأشخاص (إيمان + هجرة ومهجر + جهاد ورسالة + إيواء + نصره)
= إيمان بالأشخاص + هجرة للأشخاص + جهاد للأشخاص + إيواء للأشخاص + نصره للأشخاص .

والولاء لـ « الأشخاص » له دوائر بعضها أضيق من بعض . فهناك الولاء للقوم ، والولاء للإقليم ، ثم الولاء للعشيرة ، أو الطائفة ، أو الحزب ، ثم الولاء للأسرة ، ثم ولاء الفرد لنفسه .
ويصور الشكل رقم (٣) أولى دوائر الولاءات المشار إليها : أي دائرة الولاء للقوم ، أو الطور الأول من أطوار مرض الأمة .



الشكل رقم (٣)

الطور الأول : طور الولاء للقوم

حقيقة « المثل الأعلى » الوجه لحياة الأمة في هذا الطور هي :

- دوران « الأفكار والأشياء » في فلك « أشخاص » القوم -

واتصاف المثل الأعلى بهذه الصفة ، يؤدي إلى انحسار عناصر الأمة أي عناصر : الإيمان ، والهجرة ، والجهاد ، والإيواء ، والنصرة ، من دائرة « أفكار الرسالة » إلى دائرة « أشخاص القوم » ، واستبدال مضامينها الفكرية بمضامين قومية . وتكون المحصلة النهائية لتفاعلها هي - الولاء للقوم - وبذلك يتغير تكوين الأمة لتصبح معادلته كما يلي :
الأمة = الولاء للقوم (إيمان + هجرة ومهجر + جهاد ورسالة + إيواء + نصره)
= أفراد يؤمنون بالقوم + هجرة قومية + جهاد ورسالة قومية + إيواء قومي + نصره قومية .

أما دائرة « أفكار » الرسالة ، فتتحول صلة الأمة بها إلى صلة « نفاق » ، لاصلة ولاء . أي تتحول إلى أفكار مخزونة « تنفق » عند الحاجة من أجل نصره محور الولاء لـ « أشخاص القوم » ، وقد يبقى في الأمة أفراد أو جماعات تدور في فلك « أفكار » الرسالة ، ولكن دورانهم هذا يضعهم في « غربة » عمّن حولهم ، ولا يخرجون في كل تفاعل اجتماعي إلا بالخبرات السلبية ومشاعر الإحباط والأسى والعدمية .

وفي هذا الطور ، تتعدد - محاور الولاء - تبعاً لتعدد الأقوام المكونة لأمة الرسالة ، بدل الولاء للأمة الواحدة ، وتنشأ عن ذلك مضاعفات مرضية في الخبرات الاجتماعية ، والكونية ، ومستوى القدرات العقلية المتفاعلة في الأمة ، تتمثل فيما يلي :

أ - مضاعفات المرض في مستوى الخبرات الاجتماعية والكونية : ينحسر مستوى التفاعل مع الخبرات الاجتماعية والكونية في هذا الطور ، تبعاً لانحسار « المثل الأعلى » . ويكون التجسيد العملي لهذا الانحسار في ميدان التربية والعلم ، فتتغير فلسفة التربية وأهدافها ، إذ « يقرأ » إنسان التربية في هذا الطور « باسم قومه » ، أي لرفعتهم ، وتمكينهم في المهيمنة والتملك ، وكذلك يفعل « العالم » . . . ويكون لهذا التغير نتائج هي :

النتيجة الأولى ؛ هبوط مستوى المعرفة من دائرة الأفكار إلى دائرة الأشخاص ، ومن اكتشاف الحقائق الجديدة إلى مجرد « الإخبار » بما أنتجه السلف السابقون .

والنتيجة الثانية ؛ ضيق دائرة المعرفة عن سابقتها ، لتحدد في « فقه » مرحلة الحياة ، تاركة قضايا النشأة والمصير للمتزهدين المنسحجين من الحياة ، بانتظار العدل الأخروي ، ومن الدائرة الإنسانية التي تعالج قضايا الإنسان خارج حدود الزمان والمكان ، إلى الدائرة القومية التي تحدد المعرفة داخل الحدود العرقية والتاريخية .

والنتيجة الثالثة ؛ دحر فقهاء « أفكار » الرسالة ومربيهها ومؤسساتها من مركز الاجتماع البشري إلى هوامشه ، ومن مواقع الحياة القائمة إلى غيبيات لاصلة لها بمسيرة الإنسان في مراحل النشأة والحياة والمصير .

والنتيجة الرابعة ؛ ظهور « فقهاء أقوياء القوم » المتربعين في مراكز النفوذ . وحلول هذا النوع من الفقهاء محل « فقهاء الرسالة » ، يشكل تحولاً جذرياً في التربية والفكر ، فهو يحل « فقه النزعات القومية » محل « الفقه السنني » . والفرق بين النوعين هو أن « الفقه السنني » يستنير بآيات الوحي في الكتاب ، « ليقراً » سنن الاجتماع البشري وقوانين الخلق في الأفاق والأنفس . أما « فقه النزعات القومية » فهو يؤول آيات الكتاب ويحرفها عن مواضعها ، لتبرر إرادات أصحاب القوة والنفوذ ، دون نظر في آيات الأفاق والأنفس . وإلى هذا التغيير والزوغان يشير قوله تعالى :

﴿ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ ﴾ (الصف : ٥) .

﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ﴾ (آل عمران : ٧) .

أي فلما زاغوا - أي تحولوا - عن الدوران في فلك « أفكار » الرسالة ، عملت سنن الله عملها في تحويل قدرات العقل والإرادة في قلوبهم ، فصارت تتحرى المتشابه من آيات القرآن لتأويله ، وتبرير الدوران في فلك « الأشخاص » ومصالحهم . ومن هذا الزيف كان تحذير الرسول صلى الله عليه وسلم من أن القرآن والسلطان سيفترقان ، وأن على المسلم أن يدور مع القرآن حيث دار ، كما مر في حديث سابق . وحدث هذا الزيف يفضي إلي نتائج خطيرة هي :

١ - يتجزأ « الفقه » ، ويُقضى على وحدته . فيكون هناك « فقه » للحياة كما تودها إرادات أصحاب القوة ، و « فقه » ينحسر إلى ميادين النشأة والمصير دون مرور في محطة الحياة . وينمو « فقه » المظهر الديني للعبادة ، وينحسر « فقه » المظهر الاجتماعي ، لأن إرادة الجالسين في مراكز النفوذ تتطلع للبقاء طليقة من أي « فقه » يقيدها في التصرف بشؤون الحياة والاجتماع . وانحسار « فقه » المظهر الاجتماعي للعبادة ، ينعكس على « فقه » المظهر الكوني ، فبدل أن يكون بحثاً عن آيات الله في الأفاق والأنفس ، يصبح تطويراً لوسائل الهيمنة على البشر ، وبدل أن يكون « تسخيراً » للمخلوقات لخدمة الإنسان ، يصبح « تسخيراً » للإنسان والمخلوقات سواء ، لإرادات أصحاب القوة والنفوذ .

٢ - تفضي النتيجة الأولى إلى نتيجة ثانية ، وهي وقوع الانشقاق بين « أهداف الحياة » التي توفرها العلوم الدينية ، وبين « الوسائل » التي توفرها العلوم الطبيعية ، وينقسم المشتغلون بالعلوم إلى قسمين : أناس يشتغلون بأهداف بلا وسائل ، وأناس يشتغلون بوسائل لا أهداف لها . وتمتد هذه الانشقاقات إلى مناهج الفهم ، حيث يجري تأويل الأفكار والمبادئ تأويلات شتى طبقاً « للولاءات البشرية » ، وبذلك تشتغل المؤسسات التربوية بمنجزات الأشخاص ، وتنمية الولاءات لهم ، وتثور الخصومات الجدلية التي تثيرها الولاءات . وإلى هذه الانشقاقات يشير قوله تعالى :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ ﴾ (الأنعام : ١٥٩) .

ب - مضاعفات المرض على « القدرات العقلية » و « الإرادة العازمة » و « القدرة التخيرية » :

تفضي مضاعفات الدوران في فلك « الأشخاص » ، إلى النيل من حرية « القدرات العقلية » عند كل من - إنسان التربية والعالم - وإعاقتها عن النمو السليم ، مما يتسبب في ضمور القدرات العقلية العليا ، كالتحليل ، والتركيب ، والتقويم ، والانتصار على قدرات الحفظ والاستظهار ، والفهم والتأويل ، ويكون من نتائج ذلك ظاهرتان رئيستان : الأولى ؛ نقص في الإرادة العازمة ، والقدرة التخيرية عن مستوَاهما في مرحلة صحة الأمة ، وولادتها بصورة غير عازمة ولاتسخيرية ، وبالتالي لاينجبان - العمل الصالح - بالدرجة التي كان عليها في مرحلة - صحة الأمة - أي أن مؤسسات التربية تتوقف عن إخراج الإنسان الصالح بالصورة التي كان عليها في مرحلة - صحة الأمة - .

والظاهرة الثانية ؛ هبوط مستوى الحماس للمعرفة والبحث ، ولذلك يبدأ التقاعس ، والميل إلى التقليد ، وعدم التجديد ؛ والحري وراء الألقاب واليافطات ، أكثر من الأعمال والمنجزات . ويكون من نتائج ذلك : توقف المؤسسات التربوية والعلمية عن « الهجرات » العقلية والنفسية . أي تتوقف عن التجديد في الفهم ، وتتخلف عن مواكبة الشؤون المتجددة التي يطرحها الله في الخلق الجديد المتجدد ، وتبذر بذور الأباتية ، وتضعف الجاذبية الحضارية ، فتتوقف - هجرات العقول الرافدة - المنشوقة للمشاركة في حمل الرسالة ، وتتوقف تجديد شباب الأمة ومواردها البشرية ، ويتحول « المهجر » إلى « وطن » مغلق راكد الحركة ، سوى مايكون من تنافس « الأقسام » وتناطحها بسبب الولاءات القومية المتباينة .

ج - اضطراب مستوى التفاعل مع الرسالة (اضطراب شبكة العلاقات الاجتماعية) :
في هذا الطور المرضي ، يصيب الخلل التفاعل مع الرسالة ، أي ممارسة الحياة طبقاً لنموذجها ، بالقدر الذي أصاب الخلل « المثل الأعلى » في الأمة ، ويظهر هذا الخلل في

اضطراب شبكة العلاقات الاجتماعية في الداخل والخارج ، وبذلك تتشكل هذه الشبكة كما يلي :

- تصبح رابطة « الإيمان بالولاء للقوم » ، هي المصدر الذي يحدد « جنسيات » الأفراد ، و « ثقافتهم » .

- يتحول « المهجر » إلى « وطن » مغلق ، يقتصر على المؤمنين برباط الولاء للقوم .

- يتحول « الجهاد » إلى بذل أشكال الجهد لرفعة القوم ، وتفوقهم على بقية الأقوام في الداخل والخارج .

- يقتصر « الإيواء » على من يدورون في فلك الولاء للقوم ، الذين يتسلمون زمام القيادة ، ويتفوقون على غيرهم من الأقوام المكونة للأمة .

- تتحول « النصر » إلى نخوة قومية ، هدفها نصره من يدورون في فلك الولاء للقوم .

- تتحول « الولاية » من الاهتمام بشؤون أمة المؤمنين ، إلى الاهتمام بشؤون القوم .

وتشكيل محتويات عناصر الأمة بهذا الشكل ، يؤدي إلى قيام مؤسسات وتشكيل شبكة

علاقات اجتماعية توجه النشاطات كما يلي :

١ - في البيئة الجديدة - بيئة الدوران في فلك أشخاص القوم - تنحسر معاني الرسالة ، فيحذف من « الأمر بالمعروف » كل ما ينال من إطلاق أيد « أشخاص القوم » الأقوياء - الأثرياء ، ويضيق معنى « النهي عن المنكر » ليسقط منه كل ما ينال من أخطاء « أشخاص القوم » الأقوياء . ويضيق معنى « الإيمان بالله » ليقصر على المظهر الديني للعبادة دون المظهر الاجتماعي الذي يسوي « أشخاص القوم » الأقوياء مع نظائرهم غير الأقوياء والضعفاء .

٢ - يتبدل سلم القيم في الأمة ، ليصبح محوره : « القوة فوق الفكرة » ، الأمر الذي يجعل - أولو الأمر - هم أهل القوة بدل أهل الفكر ، وتصبح وظيفة « مؤسسات النصر » : تطبيق الحدود الشرعية لتنفيذ إرادات أهل القوة بدل قيم الرسالة .

٣ - تنقسم الأمة - من الناحية العملية - إلى عدة أمم قومية أو شعوبية ، تتنافس من أجل الهيمنة والاستئثار بمظاهر « الإيواء » ، وبذلك تنقسم الأمة إلى سادة ، يهيمنون على منافع « الإيواء » ، وموالي « مجاهدون » من أجل المشاركة في هذه المنافع .

٤ - تبرز قومية « الجنسية » و « الثقافة » ، بما فيها القيم ، والعادات ، واللغات ، والفنون ، وغير ذلك ، مما يبيء لظهور حركات الانفصال والتزعات الإقليمية ، ويضغط على حدود « المهجر » الواحد لتفجيره إلى عدد من الأوطان .

٥ - تتحدد مكانة الأفراد في الأمة ، ومسؤولياتهم طبقاً لأصولهم القومية ، ومكانتهم الاجتماعية ، ومواقعهم على دوائر الولاء للقوم ، أو الإقليم ، أو العشيرة ، أو الأسرة ،

دون اعتبار لمقاييس الفكر والقدرات الفكرية ، والولاءات الإسلامية ، إلا بمقدار ما تمليه
الضرورة في تأمين الولاء لأشخاص القيادة ، واستقرار نفوذهم .

٦ - تهتم مكانة العدل في الأمة ، وتبذر بذور الظلم ، وتفقد قيم الرسالة فاعليتها وتأثيرها ،
وتتحول إلى قيم مخزونة في مخازن التراث ، « ينفقها » الأقوياء لتبرير هيمنتهم واحتكارهم .
و « ينفقها » المستضعفون لاستجداء - أشيائهم - ، مما يمهّد إلى ظهور « قيم كفر
الترف » ، و « قيم النفاق » ، و « قيم كفر الحرمان » ، التي تفرس المظلومين من أذكياء
الأمة ومحرميها^(١) .

٧ - يتحول « ولاء » عامة الأمة وحبهم وطاعتهم ، إلى « الأشخاص » الأقوياء ، الذين
يحتكرون « الأشياء » ، ويتحكمون بمصائر « الأشخاص » الأتباع . وبذلك يتحول
الناس من تآليه الله مصدر الرسالة - أي حبه وطاعته - إلى تآليه - الأشخاص الأقوياء -
وتتحرك إراداتهم إلى المدى الذي يحدده هذا التآليه . وبذلك تنتقل الأمة من صفاء
التوحيد ، إلى شرك الصنمية : صنمية الأشخاص التي أطلق القرآن عليها اسم - صنمية
الأنداد - وتبتكر رموزاً جديدة للصنمية تتلاءم مع روح العصر وثقافته واتجاهاته . وبذلك
تتحول الأمة من « أمة رسالة » إلى « أمة سدنة » . والفرق بين النوعين من الأمة ، أن
الأولى تضحي بالأموال والنفوس في سبيل الرسالة ، بينما « تنفق » أمة السدنة أفكار الرسالة
لتنال السلطان ، وتجمع المال وترفع النفوس ، ويتحول فيها العلماء ورجال الفكر ومؤسسات
التربية إلى التعلق برسوم العلم ومظاهره ، ويشغلون بـ « فقه » الأشكال بدل « فقه »
الأعمال .

الطور الثاني ؛ طور الولاء للعشيرة ونظرائها (كالطائفة ، أو الحزب أو الإقليم) :

وتحول الأمة إلى وحدات قومية متنافسة ، ينقل عدوى التنافس داخل كل قومية ، أي بين
قبائلها وطوائفها ؛ الأمر الذي يؤدي إلى انحسار - محور الولاء - من دائرة القوم إلى دائرة
العشيرة أو الطائفة أو الإقليم أو المذهب أو الحزب ، مما يهيء إلى انحسار « المثل الأعلى »
الموجه للحياة لتصبح حقيقته هي :

- دوران « الأفكار والأشياء » في فلك « أشخاص » العشيرة أو الطائفة أو الحزب أو
الإقليم أو المذهب .

واتصاف - المثل الأعلى - بهذه الصفة يؤدي إلى انحسار عناصر الأمة ، أي عناصر
الإيمان ، والهجرة ، والجهاد والرسالة ، والإيواء ، والنصرة من دائرة القوم إلى دائرة

(١) للوقوف على تفاصيل الأنواع الثلاثة من - القيم - راجع كتاب - فلسفة التربية الإسلامية - للمؤلف .

العشيرة أو نظائرها ، واستبدال مضامينها القومية بمضامين عشائرية ، أو طائفية ، أو إقليمية ، أو مذهبية ، أو حزبية ، ثم تكون نتيجة هذا الانحسار هي تغير تركيب الأمة لتصبح معادلته كالتالي :

الأمة = الولاء للعشيرة (إيمان + هجرة ومهجر + جهاد ورسالة + إيواء + نصره)
= حمية عشائرية + هجرة عشائرية + جهاد ومصالح عشائرية + إيواء عشائري + نصره عشائرية .

ومثلها معادلات الطائفة ، أو الإقليم ، أو الحزب ، أو المذهب .

وفي طور الولاء للعشيرة (أو الطائفية أو الإقليم أو الحزب) تتعدد محاور الولاء في الأمة ، طبقاً لتعدد العشائر أو الطوائف أو الإقليم أو الأحزاب المكونة للأمة . أي أن « الأمم القومية » المتجمعة في « بالون » الأمة ، تمارس مزيداً من الانقسامات ، فتتحول إلى أمم عشائرية أو طائفية تتنافس داخل إطار « بالون أمة الرسالة » وتضغط عليه لتمزقه . ولذلك تحدث مضاعفات مرضية في التربية والاجتماع .

الطور الثالث : طور الولاء للأسرة :

تنتقل الأمة إلى هذا الطور ، حين يُصاب « المثل الأعلى » الذي يوجه حياة الأمة وعلاقتها بمزيد من الانحسار وتصبح حقيقته هي :

- دوران « الأفكار والأشياء » في فلك « أشخاص الأسرة » -

واتصاف المثل الأعلى بهذه الصفة يؤدي إلى انحسار محور الولاء من دائرة العشيرة أو الطائفية إلى دائرة الأسرة مما يهيء أيضاً لانحسار عناصر : الإيمان ، والهجرة ، والجهاد ، والإيواء ، والنصرة ، إلى دائرة الأسرة لتستمد مضامينها منها وتتفاعل معها ، وتكون المحصلة النهائية لهذا الانحسار كله هي تغير محتويات عناصر الأمة لتصبح معادلتها كالتالي :

الأمة = الولاء الأسري (إيمان + هجرة + جهاد ورسالة + إيواء + نصره)
= تعصب أسري + هجرة أسرية + كد أسري + نصره أسرية .

حيث ينحسر - محور الولاء - من دائرة « أشخاص العشيرة » أو الطائفة ، أو الإقليم ، أو الحزب ، إلى دائرة الولاء لـ « أشخاص الأسرة » ، ويصبح الطابع العام لـ « المثل الأعلى » الذي يوجه الحياة العامة هو :

- دوران « الأفكار والأشياء » في فلك « أشخاص الأسرة » -

أما دائرة العشيرة ، أو الطائفة ، أو الحزب ، أو الإقليم ، فتتحول إلى صلة « بفاق »

ومجاملات لاصلة ولاء : أي تنضم إلى مخزون أرصدة « الأفكار والقوم » لـ « تنفق » مثلها عند الحاجة من أجل - محور الولاء للأسرة - بينما تحول دائرتها - أي دائرة العشيرة ونظائرها - إلى منطقة جفاف اجتماعي لا يعود الذين يقعون على الولاء لها ، إلا بالخبرات السلبية ، والإجباطات ، ومشاعر الخيبة ، والعدمية .

وفي هذا الطور تتفاعل مضاعفات مرض الأمة ، وتؤدي إلى مزيد من المضاعفات المرضية في مستوى التفاعل مع الخبرات الاجتماعية والكونية ، وفي القدرات العقلية ، وفي مستوى التفاعل مع أفكار الرسالة .

الطور الرابع : طور ولاء الفرد لنفسه :

أبرز ملامح هذا الطور هو تدني « المثل الأعلى » الموجه للحياة في الأمة لتصبح حقيقته هي :

- دوران « الأفكار والأشياء » في فلك « شخص الفرد » نفسه -

واتصاف المثل الأعلى بهذه الصفة يؤدي إلى انحسار - محور الولاء - من دائرة الأسرة إلى دائرة الفرد نفسه ، مما يهيء إلى انحسار عناصر الأمة : الإيمان ، والهجرة ، والجهاد والرسالة ، والإيواء ، والنصرة ، وانكماشها في بؤرة الأنانية الفردية ؛ وتكون المحصلة النهائية لهذا الانكماش هي تغير محتويات عناصر الأمة لتصبح معادلتها كالتالي :

الأمة = ولاء الفرد لنفسه (الإيمان + هجرة + جهاد ورسالة + إيواء + نصرة)

= أفراد أنانيون + هجرة فردية + جهاد فردي + إيواء فردي + نصرة فردية .

حيث ينحسر محور الولاء إلى « شخص » الفرد نفسه ويصبح الطابع العام هو :

- دوران « الأفكار والأشياء » حول « شخص » الفرد نفسه -

أما دائرة الأسرة فتتحول إلى صلة « نفاق » لاصلة ولاء ، أي هي تنضم إلى مخزون أرصدة الأفكار والقوم والعشيرة لـ « تنفق » عند الحاجة من أجل مصالح الفرد الخاصة .

وفي هذا الطور تتفاعل مضاعفات المرض وتدفع بالأمة إلى حالة النزاع الذي تتمثل مظاهره فيما يلي :

أ - ضالة التفاعل مع الخبرات الاجتماعية والكونية : يتفاقم انحسار التفاعل مع الخبرات الاجتماعية والكونية ، تبعاً لتفاقم انحسار « المثل الأعلى » في الأمة . ويكون التجسيد العملي لهذا التفاقم في ميدان التربية ، حيث « يقرأ الفرد باسم نفسه » دونما أية فلسفة تربوية أو أهداف ، وإنما يتدرب على - المعلومات والمهارات - التي تسوّقه في

أي مجتمع ونحت أي لواء . ولذلك يتحول إلى مواطن مرتزق يجوب الأرض للعمل تحت أي لواء ، ويمنح لكل جهة ولاء .

ب - تفاقم انحسار مستوى التفاعل مع الرسالة :

في هذا الطور تصبح رسالة الفرد في الحياة أن يعيش طبقاً لما يقتضيه محور ولائه لنفسه ، وتصبح شبكة العلاقات الاجتماعية كما يلي :

يصبح محتوى « الإيمان » بشهوات الفرد وتأمينها محمداً لـ « جنسيته وثقافته » ، فهو قابل للذوبان في أية جنسية وفي أية ثقافة .

ويصبح المكان الذي يجد الفرد فيه قضاء مصالحه ، هو « المهجر » الذي يشد إليه رحاله . . ويصبح العمل لتأمين المصالح المذكورة هو مظهر « الجهاد » الذي يفرغ الفرد فيه طاقاته العقلية والنفسية والجسدية .

ويتحدد مفهوم « الإيواء » في : توفير الإقامة المريحة الزاخرة بمصالح الفرد نفسه .

ويتحدد مفهوم « النصر » في : منافحة الفرد عن مصالحه الخاصة دون سواها .

ويتحدد مفهوم « الولاية » في : الأناية الفردية ، وتقديهما على أي شيء آخر .

ويلوغ الأمة - هذا الطور - معناه تمزق شبكة العلاقات الاجتماعية ، وتعطل الفاعلية الاجتماعية لعناصر الإيمان ، والهجرة ، والجهاد والرسالة ، والإيواء ، والنصرة ، والولاية ، وأبرز مظاهر هذا التعطل هو انفجار الأسرة ، آخر الوحدات الاجتماعية في الأمة ، وانصراف كل عضو فيها لشؤونه الخاصة دون سواه . ويلوغ الأمة هذه الحالة ، يحولها إلى أكوام بشرية لاعلاقة بينها ؛ ومعنى هذه الحالة الدخول في المرحلة الثالثة : مرحلة الوفاة !!

وأخيراً لا بد من الانتباه إلى الملاحظات التالية :

الملاحظة الأولى ؛ إن سلسلة الانحسارات المتوالية التي تمر بها الأمة ، تتم بدرجة متفاوتة عند أفراد الأمة وجماعاتها ، فقد يكون أناس على دائرة الولاء للأفكار ، في الوقت الذي يكون آخرون على دائرة الولاء للقوم ، وتتناثر الأكثرية على دوائر الولاء للعشيرة ، والعائلة ، والطائفة ، والفرد . وفي هذه الحالة ، يعاني الذين يعيشون على الدوائر الواسعة ، من « الاغتراب » الفكري والاجتماعي ، ولا يكون لهم أثر في الأحداث أو إيقاف السرطانات الاجتماعية التي تؤدي بالأمة إلى الوفاة !!

والملاحظة الثانية ؛ ليس حتمياً أن تتوالى الانحسارات حتى تنتهي بالأمة إلى الوفاة ، فقد تقوم حركات مراجعة و « توبة » إصلاحية ، ترد للأمة قسطاً من العافية ، أو تمنع زيادة الانحسار لمدة ، وتنقلها من المرض إلى الصحة .

والملاحظة الثالثة ؛ يمكن المحافظة على عافية الأمة وصحتها ، إذا كان هناك رقابة
و « توبة » دورية ، وترميم لظواهر الاختلال ، أو مقدمات المرض ، والقيام بهذه
المهمة يحتاج إلى مؤسسات متخصصة تضم عدداً كافياً من الخبراء المختصين يتناسب
عددهم مع عدد الأمة .

ولعله من الموضوعية أن نقول : إن الأمم الغربية المعاصرة قد انتبهت إلى الملاحظة
الثالثة ، وأقامت المؤسسات المتخصصة التي تفحص نشاطات الأمة بمختلف الوسائل
العلمية ، كالبيانات الاستطلاعية ، والدراسات الإحصائية ، والاستفتاءات ،
والتنقيب في ثمار الخطط ، وتقويم المشروعات ، وفي جميع هذه الوسائل ، توفر لها
حرية النقد ، والتعبير ، والتشخيص ، لأنه بدون هذه الحرية لا يمكن أن يكون هناك
تقويم وتصحيح .

الفصل الثاني عشر

مرحلة وفاة الأمة (مرحلة الدوران في فلك الأشياء)

يرمز إلى هذه المرحلة في الشكل رقم (١) بالمثلث د هـ . وحيث تبدأ بوفاة الأمة عند المحطة الزمنية (هـ) وتنتهي عند إعلان الوفاة ، والقيام بالدفن عند المحطة الزمنية (و) . وتنتهي الأمة إلى حالة الوفاة حين تصبح حقيقة « المثل الأعلى » الذي يوجه الحياة فيها هي :
- دوران « الأفكار والأشخاص » في فلك « الأشياء » -

والتجسيد العملي لهذا الدوران هو تمركز شهوات الحياة وتمتعها في محور نظام القيم السائدة ، وتكريس المقدرات الفكرية والبشرية لتوفير هذه الشهوات والمتع ، ونسيان ما عداها من قضايا النشأة والحياة والمصير . وإلى هذا النسيان يشير قوله تعالى :
﴿ نَسُوا اللَّهَ فَنَسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ ﴾ (الحشر : ١٩) .

والمحصلة النهائية لهذا التبدل في القيم هي بروز « إنسان » أناني ، تدور اهتماماته حول « ملكية الأشياء » ، والعض عليها بكل الأنياب المادية والنفسية كقوة السلاح ، والتأمر ، والغش ، والظلم ، والاعتصاب دون اعتبار للآخرين ومصائرهم . ويطلق الرسول صلى الله عليه وسلم على هذا النظام القيمي اسم - الملك العضوض - أي الذي يعرض عليه أهله بقوة السلاح ويغتصبونه بالقتل والفتن ، ويحرسونه بالإرهاب .

وتتفاوت سعة دوائر شهوة - الملك العضوض - بتفاوت دوائر الممالك في الأمة . فهي تبدأ من - ملك الفرد - العادي للأشياء ، حتى تبلغ أقصى سعتها في الملكية المطلقة للحاكم . وهذا التجانس بين قمة - الملك العضوض - والقواعد الشعبية العضوية يندرج أيضا تحت قوله صلى الله عليه وسلم : « كما تكونوا يُولَ عليكم » . وتفصل الأحاديث النبوية في تشخيص هذا اللون من قيم - الملك العضوض - ومظاهره ومضاعفاته ، من ذلك قوله صلى الله عليه وسلم :

« سيأتي على الناس زمان ، لأينال الملك فيه إلا بالقتل والتجبر ، ولا الغنى إلا بالغصب والمخل ، ولا المحبة إلا باستخراج الدين ، واتباع الهوى ، فمن أدرك ذلك الزمان فصبر على الفقر وهو يقدر على الغنى ، وصبر على البغضة وهو يقدر على المحبة ، وصبر على الذل وهو يقدر على العز ، أتاه الله ثواب خمسين صديقاً ممن صدق بي »^(١) .
وفي حديث آخر :

« يأتي على الناس زمان همتهم بطونهم ، وشرفهم متاعهم ، وقبلتهم نساؤهم ، ودينهم دراهمهم ودنانيرهم ، أولئك شر الخلق لا خلاق لهم عند الله »^(٢) .

أولاً - أعراض الأمة الميتة :

تبقى الأمة الميتة - بعد حدوث الوفاة - فترة من الزمن ، تكون خلالها كالعمارة الضخمة المتصدعة ، التي تظل قائمة مادامت لم تهب الرياح التي تقوض أركانها ، أو لم تعمل فيها آلات الهدم التي تهدم حيطانها . ويقدم القرآن للأمة الميتة مثلاً من جثة سليمان عليه السلام ، التي ظلت زمناً بعد وفاته تخيف العاملين تحت إمرته ، فلما أكلت دابة الأرض المنسأة - أو العصاة - التي تستند إليها الجنة ، وخرت إلى الأرض ، قال العاملون تحت إمرته من الجن والإنس : لو كنا نعلم وفاته ما لبثنا زمناً طويلاً في عذاب العجل ، وتنفيذ الأوامر . وكذلك أنظمت الحكم الجائرة . . والأمة حين تموت ، تبقى زمناً تنكس على منسأتها من أجهزة الأمن ، بحيث يخجل للرازيين تحت ظلمها أنها حية قائمة ، حتى يبعث الله عناصر انقلابية من الداخل ، أو قوة غازية من الخارج ، فتأكل المنسأة ، وتخمر الأمة ، وتعلن الوفاة . وحينئذ يتبين الرازحون تحت ظلمها ، أن لو كانوا يعلمون الغيب ، ما لبثوا زمناً في العذاب المهين .

والرسول صلى الله عليه وسلم يحدد للأمة الميتة أعراضاً مجملة رئيسة يندرج تحت كل عرض تفاصيل دقيقة ، يستطيع أولو الأبواب من خلال هذه الأعراض التحقق من وفاة الأمة ونظام الحكم فيها ، فيقون الناس مضاعفات الانهيار ، ويبدأون محاولات بعث الأمة من جديد . ومن الأحاديث التي تقدم مجمل هذه الأعراض ما يلي :

« إذا رأيت شحاً مطاعاً ، وهوى متبعاً ، ودنيا مؤثرة ، وإعجاب كل ذي رأي برأيه ، فعليك بخاصة نفسك ، ودعك من أمر العامة »^(٣) .

(١) عز الدين بليق ، منهاج الصالحين ، (بيروت : دار الفتح ، ١٣٩٨ / ١٩٧٨ ، ص ٩٣٨ .

(٢) نفس المصدر ، ص ٩٣٧ نقلاً عن الديلمي .

(٣) الترمذي ، السنن ، ح ٨ (كتاب التفسير : تفسير سورة المائدة ، ص ٢٢٢ ، رقم ٣٠٦٠ .

ومثله : سنن أبي داود ، ح ٤ ، كتاب الملاحم .

و : سنن ابن ماجه ، كتاب الفتن ، ح ٢ ، ص ١٣٣١ رقم ٤٠١٤ .

فالشح المطاع ، والهوى المتبع ، والدنيا المؤثرة ، وإعجاب كل ذي رأي برأيه ؛ كلها أعراض رئيسة للأمة الميتة ، يتفرع عن كل منها عشرات المضاعفات والتفاصيل . وهذه الأعراض تبدو جلية واضحة في الفترة الواقعة بين حدوث الوفاة ، وبين إعلانها ، وإجراءات الدفن التي مر الحديث عنها .

أما تفاصيل هذه الأعراض فهي كما يلي :

١ - شيوع « الشح المطاع » : والشح في اللغة معناه : أشد البخل . . وقيل : البخل يكون في المال ، أما الشح فيكون بالمال والمعروف^(١) . . وقيل : إنه الإفراط في الحرص على الشيء^(٢) . ولقد عرفه الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما بأنه : أن ترى ما أنفقته تلتفأ^(٣) . أي خسارة .

ولقد ورد ذكر الشح في القرآن الكريم في خمسة مواضع ، تتكامل جميعها لتدل على أمور ثلاثة : الأول ؛ أن من يبخل بالشح ، يتصف بعدم الإنفاق في سبيل الله ، والبخل بعمل الخير والسلوك الحسن ، والتردد في مساعدة الناس ، والنكوص عن الجهاد ، والحين أمام الأعداء ، وسلاطة اللسان على الأصدقاء ، والغياب عن التضحية والبذل ، والحضور عند الطمع والغنيمة :

﴿ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ، وَلَا يَأْتُونَ النَّاسَ إِلَّا قَلِيلًا . أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ، فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْتَبَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ ، فَإِذَا زَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِالنِّسَةِ جَدَادٍ ، أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُولَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا . يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا ، وَإِنْ يَأْتِ الْأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُمْ بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ ، يَسْأَلُونَ عَنْ أَنْبَائِكُمْ ، وَلَوْ كَانُوا فِيكُمْ مَا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا ﴾ (الأحزاب : ١٨ - ٢٠) .

والأمر الثاني ؛ أن من برىء من الشح ، يتصف بالسخاء ، والبذل ، وإيثار المصلحة العامة ، ومساعدة الناس على الاستقرار ، ومحبة القادمين الغرباء كمحبة المقيمين الأقرباء ، وتيسير أمورهم :

﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا ، وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ، وَمَنْ يُوقِ شَحْنًا فَاوْلَيْكَ هُمْ الْمَقْلُوحُونَ ﴾ (الحشر : ٩) .

(١) محمد خليل الخطيب ، تحف الأنام بخطب رسول الإسلام ، ص ١١٥ .
 (٢) الطبري ، التفسير ، ج ٥ ، ص ٣٢٠ (تفسير آية ١٢٨ من سورة النساء) .
 (٣) محمد خليل الخطيب ، تحف الأنام بخطب رسول الإسلام ، ص ١٨٩ .

﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَأَسْمِعُوا وَأَطِيعُوا ، وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لِّأَنْفُسِكُمْ ، وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (التغبان : ١٦) .

والأمر الثالث ؛ أن الشح ورد في آية أخرى ليشير إلى المرأة العجوز ، التي تضن بجزء من حقها لضررتها الشابة ، وهذا إشارة إلى أن الشح يشمل التشبث بمنافع ، لم تعد الحاجة شديد إليها ، وعدم التفضل بها لمن هو أكثر حاجة :

﴿ وَإِنَّ امْرَأَةً خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا ، وَالصُّلْحُ خَيْرٌ ، وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ ، وَإِنْ تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ (النساء : ١٢٨) .

فالشح في حقيقته نقيض لعنصر الولاية في الأمة . أي أن محوره اختفاء الشعور بالصالح العام ، وباطال لفاعلية شبكة العلاقات الاجتماعية التي توفرها عناصر الأمة ، أي عناصر : الإيمان ، والهجرة ، والرسالة والجهاد ، والإيواء ، والنصرة ، التي مرت تفاصيلها في فصول سابقة . وبذلك تكون الأمة التي تصاب بالشح كالجسد الميت الذي تتوقف فيه الدورة الدموية ، فلا تعود أجهزته تزود بالغذاء اللازم لاستمرار عافيتها ، وأداء وظائفها ، مما يهدد لتفسخها وانبعاث نبتها . ومن تحليل الآيات والأحاديث التي عالجت - الشح - يتضح أن الشح يتمثل فيما يلي :

أ - الشح بيسر الحياة ، وشحنها بالضنك والعسر ، كتضييق الحكومات على الحريات ، وإثقال كاهل الرعية بالضرائب والغرامات ، واستغلال رجال الاقتصاد للأزمات وأوقات الشدة وظروف الحرب والقحط ، وندرة السلع لممارسة الاحتكار ، ورفع الأسعار والإيجار ، بغية الحصول على الأرباح الوفيرة ، دون اكتراث بما يسببه ذلك من عنت وإرهاق للآخرين .

ب - الشح بإنجاز الواجبات ، وبذل الجهد ، وشيوع العجز ، والشح بالمعاملة الحسنة ، وشيوع الفظاظة والغلظة في ميادين الحياة ومؤسساتها المختلفة .

ج - الشح بالتكافل وانقطاع التواصل والتراحم ، وعدم البذل والتبرع ، وانتشار الفردية والأنانية مع الإسراف في الإنفاق على ملذات النفس وشهواتها .

د - الشح بالمظهر الاجتماعي للعبادة ، وشيوع الشكلية في التدين ، والاقتصار على تدين « الأشكال » دون « الأعمال » ، والتركيز على حركات العبادات دون إقامة معانيها في الحياة ، والتوقف عن الزكاة والجهاد ، ومنع كل « ماعون » يعين المسلم على إقامة روح الدين وفضائله . وهو ما يشير إليه قوله تعالى : ﴿ قَوْلٌ لِلْمُصَلِّينَ . الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ . الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ ﴾ (الماعون : ٤ - ٧) أي يراءون بالصلاة ، بينما هم يمنعون كل « ماعون » يعين الناس على يسر الحياة ، وعدم الاشتغال بها

اشتغالاً يلهمهم عن دينهم ، أو يدفعهم دفعا لمخالفته ، ومخالفة تعاليمه .

هـ - الشح بالعدل ، وشيوع « التطفيف » في المعاملات . والتطفيف مشتق من قوله تعالى : ﴿ وَبَلَى لَلْمُطَفِّفِينَ ، الَّذِينَ إِذَا أَكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ، وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وُزِنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴾ (المطففين : ١ - ٣) والتطفيف في العمل أو الوظيفة ، أن يرهق أصحاب العمل العمال والموظفين بالواجبات ، ويشقلون عليهم في المسؤوليات ، في الوقت الذي يدفعون لهم أجورا أو رواتب أقل من غيرهم ، ويغتنمون كل فرصة « ليخسروهم » ، أي يخصمون من أجورهم أو رواتبهم . . أما التطفيف في التجارة فهو المبالغة في الاستيفاء عند الشراء ، وإنقاص الوزن أو المكيال عند البيع . وهكذا في جميع أنواع المعاملات ، وعلاقات العمل ، والخدمة والوظيفة .

و - الشح بالنفس والأبناء والقدرات ، والجبن أمام الأخطار الخارجية ، أو الأعداء الخارجين ، وإيثار السلامة بالمال والنفس ، مع القسوة على الأخوة أو الرعايا في الداخل ، وهذا ما أشار إليه الحسن بن علي بن أبي طالب حين عرف - الجبن - بأنه : الجرأة على الصديق ، والنكول عن العدو^(١) .

ولقد خص الرسول صلى الله عليه وسلم مظاهر الشح التي تقدمت عند قوله : « إياكم والشح ، فإنما هلك من قبلكم بالشح : أمرهم بالقطيعة فقطعوا ، وأمرهم بالبخل فبخلوا ، وأمرهم بالفجور ففجروا »^(٢) .

٢ - اتباع الهوى : المحور الذي يدور حول - الهوى - هو مجانبة العدل في السلوك ، والتفكير ، والشعور . ثم الانطلاق في ذلك كله من الحمية العصبية ، والشهوات النفسية . ويذكر الرازي في تفسيره ، أن الله وضع الهوى في مقابل العدل عند قوله تعالى : ﴿ فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا ﴾ (النساء : ١٣٥) . ثم يعلق على ذلك فيقول : « المعنى اتركوا متابعة الهوى ، حتى تصيروا موصوفين بالعدل . . وتحقيق الكلام ، أن العدل عبارة عن ترك الهوى ، ومن ترك أحد النقيضين فقد حصل له الآخر . فتقدير الآية : فلا تتبعوا الهوى لأجل أن تعدلوا »^(٣) .
ومن تحليل الآيات والأحاديث التي عاجلت - الهوى الصفة الثانية للأمة الميتة - يتضح أنه يتمثل فيما يلي :

(١) محمد خليل الخطيب ، تحف الأنام ، ص ١٨٩ .

(٢) نفس المصدر ، ص ١١٥ نقلا عن الحاكم ، ومثله ابو داود ، والمنذري في الترغيب والترهيب : ح ٣ ، ص ١٥٨ .

(٣) الرازي ، التفسير ، ح ١١ ، ص ٧٤ (تفسير آية ١٣٥ - سورة النساء) .

أ - الظلم : فالذين يمارسون الظلم ، إنما يقرّفونه بسبب الهوى ، تلبية لحمية عصبية ، أو شهوة نفسية ، كما أن المظلومين الذين يمنعون أمام الظالم ، ويرضون بظلمه ، إنما يفعلون ذلك بسبب الهوى ، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم : « إذا رأيت أمي لا يقولون للظالم منهم أنت الظالم فقد تودع منها »^(١) .

فالأمة الميتة ، تسكت أمام سياسات الظلم ، وتطبيقاته في الاجتماع والاقتصاد والسياسة والثقافة والفنون والتربية ، وتتسابق لتملق الظالم ، طلباً لما عنده من شهوات ، أو لما تربطهم به من عصبيات ، فالتاجر في الأمة الميتة يخشى على تجارته ، والموظف يخشى على وظيفته ، والعامل يخشى على عمله ، وصاحب الشهوة يخشى فقدان شهوته ، وهكذا .

ولا يعني هذا أن الأمة الميتة تخلو من العناصر الصالحة ، وإنما معناه أنها تفتقر إلى العناصر (الصالحة - المصلحة) التي تقف أمام الظلم ، وتحول دون انتشاره واستشراء مضاعفاته . والتمييز بين الفريقين واضح تمام الوضوح في القرآن الكريم والحديث الشريف . فالقرآن يؤكد على أن العناصر (الصالحة - المصلحة) هي الضمان الواقعي للأمة من الهلاك ومن العقوبات الإلهية . من ذلك قوله تعالى :

﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقَرْيَةَ بِظُلْمٍ وَأَهْلِهَا مُصْلِحُونَ ﴾ (هود : ١١٧) .

أما العناصر الصالحة غير المصلحة فهذه لا تنجو من الدمار الذي ينزل بالأمم المعذبة : ﴿ وَقَطَعْنَاَهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَّمَاتَهُمُ الْمُصَالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ ﴾ (الأعراف : ١٦٨) .
 وبنه الرسول صلى الله عليه وسلم إلى أن مساعدة الظالم على ظلمه ، تخرج من الإسلام : « ألا إنه سيكون بعدي أمراء يظلمون ويكذبون ، فمن صدقهم بكذبهم ، ومالاهم على ظلمهم ، فليس مني ، ولا أئامته ، ومن لم يصدقهم بكذبهم ، ومن لم يمالئهم على ظلمهم فهو مني وأنا منه »^(٢) .

والسكوت على الظلم ينتهي بالأمة إلى الكوارث والعقوبات الإلهية :

- « إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعقاب »^(٣) .
 - « لتأمرن بالمعروف ، ولتنهون عن المنكر ، ولتأخذن على يدي الظالم ، ولتأطرنه على الحق أطراً ، ولتقصرنه على الحق قصراً ، أو ليضربن الله بقلوب بعضكم على بعض ثم يلعنكم »^(٤) .

ب - انطفاء العلم وشيوع الجهل : ولا يعني ذلك شيوع الأمية وإغلاق معاهد العلم ؛

(١) مسند أحمد ، (تصنيف الساعاتي) ، ح ١٩ ، ص ١٧٥ .

(٢) محمد خليل الخطيب ، تحف الأنام ، ص ٢٣ نقلاً عن مسند أحمد (رواية النعمان بن بشير) .

(٣) سنن أبي داود ، ح ٤ ، كتاب الفتن والملاحم ، ص ١٢٢ ، رقم ٤٣٣٨ .

(٤) سنن أبي داود ، نفس الجزء والصفحة ، رقم ٤٣٣٦ - ٤٣٣٧ .

وإنما المقصود تعطل فاعلية العلم الناتج عن التربية والتعليم ، اللذين يوجهها الهوى بحيث يصبح وجود العلم شبيهاً بالجهل ، لأن أصحاب الأهواء يستثمرون العلم والمعرفة استثماراً يجعل فقدمها أنفع من ضررها ، وهم يتخذون من العلم حلية اجتماعية ، يتناولون بها على الناس ، ويظلمونهم ، بدل مساعدتهم وإنصافهم . وإلى هذا يشير قوله تعالى : ﴿ وَلَئِنْ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ (البقرة : ١٤٥) .

ج - انطفاء فاعلية الحقيقة : وشيوع الهوى معناه : الاحتكام إلى النزعات والحمية والشهوات ، مما يبطل فاعلية الحقيقة ، رغم وقوف الناس عليها . وإلى ذلك يشير قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ ﴾ (المائدة : ٤٨) .

د - انطفاء الخير والصلاح وشيوع الشر والفساد : في الأمة الميتة التي يشيع فيها الهوى ، يتحول الناس إلى أكوام بشرية تتصارع من أجل الشهوات والعصبيات ، والحصول على المنافع والمكاسب ، فتذهب الأخلاق ، وينعدم النظام ، ويفشو الفساد في السلوك والمعاملات ، وتتعدم روح المسؤولية ، وتدب الفوضى ، ويشيع الغش والخيانة والرشوة ، والوان الخداع والكذب . . . وما إلى ذلك . وإلى كل هذه المضاعفات يشير قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ اتَّبَعَ أَحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ ﴾ (المؤمنون : ٧١) .

هـ - شيوع الصنمية واختفاء التوحيد : ويكون من نتائج ذلك شيوع الرق النفسي والفكري ، واختفاء حريات التفكير والتعبير والعمل والاختيار ، وتلغى شخصية الإنسان ، فيصبح متقلبا حسب المواقف التي تقررها الرغبة أو الرهبة ، والخوف ، أو الطمع ، أو الحرص . وإلى هذا يشير قوله تعالى :

﴿ أَرَأَيْتَ مَنْ أَخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا . أَمْ مَحْسَبُ أَنْ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ، إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ (الفرقان : ٤٣ - ٤٤) .

و - شيوع الفرقة وتحطيم الوحدة : وإلى ذلك يشير قوله صلى الله عليه وسلم : « إلا إن من كان قبلكم من أهل الكتاب افترقوا على اثنتين وسبعين ملة ، وأن هذه الأمة ستفترق على ثلاث وسبعين فرقة ، اثنتان وسبعون في النار ، وواحدة في الجنة وهي الجماعة ، وسيخرج من أمي أقوام تتجارى بهم الأهواء كما يتجارى الكلب بصاحبه ، لا يبقى منه عرق ولا مفصل إلا دخله »^(١) .

(١) محمد خليل الخطيب ، تحف الأيام ، ص ١٢١ - ١٢٢ . نقل عن سنن أبي داود وسنن ابن ماجه ، ج ٢ ، ص ٢٤٩ .

ز - في الأمة الميتة التي يتبع فيها الهوى ، تشيع الدناءة والصغار ، وينعدم الطموح والترفع ، وإلى ذلك يشير قوله تعالى :

﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا ، وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ ﴾ (الأعراف : ١٧٦).

ح - في الأمة الميتة التي يتبع فيها الهوى ، يشيع الخطأ في الأحكام ، والقرارات ، والسياسات ، والمواقف ، وإلى هذا يشير قوله تعالى :

﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ ﴾ (القصص : ٥٠) .

ط - في الأمة الميتة التي يتبع فيها الهوى ، يشيع الحمق ، والقصور العقلي ، وقلة الحكمة ، وعدم الاستفادة من الخبرات الاجتماعية والكونية التي يقرأها الناس ، أو يمرون بها ، أو تراها أعينهم ، أو تسمعها آذانهم ، وإلى ذلك يشير قوله تعالى :

﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ﴾ (محمد : ١٦) .

٣ - إيثار الدنيا :

وهذه هي الصفة الرئيسة الثالثة للأمة الميتة . ومحورها الوقوف عند العناية بنعيم الدنيا وشهواتها ، دون اهتمام بأمور النشأة والمصير . فهي إذن توقف عن مسيرة الإنسان نحو الخلود والرقى . ويتكرر الحديث عن - إيثار الدنيا - في مئات المواضع في القرآن والحديث . ومن تحليل الآيات والأحاديث التي عاجلت - إيثار الدنيا - يتضح أنه يتمثل فيما يلي :

أ - شيوخ صنمية المال : وهذه الصنمية هي محور إيثار الدنيا ؛ إذ لما كان المال هو الوسيلة الموصلة إلى نعيم الدنيا وشهواتها ، فإن الأمة الميتة تنصب من المال صنماً تقترب للملكية بالعبادة : أي بالطاعة الكاملة بسبب الرغبة الكاملة به ، والرغبة الكاملة من فقدانه . وإلى هذه الصنمية يشير قوله صلى الله عليه وسلم : « إن لكل أمة فتنة ، وفتنة أمتي المال »^(١) . وقوله أيضاً :

« تعس عبد الدينار ، تعس عبد الدرهم ، تعس عبد القطيفة ، تعس عبد الخميصة ، تعس وانتكس ، وإذا شيك فلا انتقش ، إن أعطي منها رضي ، وإن منع سخط »^(٢) . فهو عبد الدينار والدرهم لأن « ولاءه » يدور في فلكهما ، إن أعطي منها رضي . وإن مُنِع عنه العطاء سخط . والقطيفة هي التي يجلس عليها ، أو هي رمز للأثاث ، فهو عبد الأثاث ، لأنه دائم التفكير به ، مشغول بالبحث عنه ، سواء أكان تاجراً أو مستهلكاً . . والخيصة هي اللباس الذي يرتديه الإنسان ، فهو عبد اللباس ، لأنه دائم التفكير به ،

(١) الطبراني ، المعجم الكبير ، ح - ١٩ ، ص ١٧٩ ، رقم ٤٠٤ .

(٢) البخاري ، الصحيح ، كتاب الجهاد ، وكتاب الرقاق .

والفتيش عن أزيائه وأشكاله ، والنظر في منشورات الدعاية له ، والربط بين الدينار والدرهم من ناحية الأثاث واللباس من ناحية أخرى لأنها كلها مرتبطة بعضها ببعض ، لا يتوصل عابدها إلى شيء منها إلا بالحصول على الأخرى . وليحصل عابدها عليها ، لا بد أن يطبع مالكها ومعطيها والمتسبب بالحصول عليها طاعة كاملة ، ويرهبهم رهبة كاملة ، ويرغب بهم رغبة كاملة ؛ فهي أصنام متعددة ، وأرباب متنوعة ، لكنها مترابطة يوصل بعضها إلى بعض .

ولذلك قال بعض السلف : إلبس من الثياب ما يخدمك ، ولا تلبس منها ما أنت تحمده ، واقتن البساط الذي تجلس عليه ، لا الذي يجلس عليك .^(١) .
 والتربية المعاصرة ، والثقافة المعاصرة - تربية وثقافة الإنتاج والاستهلاك - تفرز إنساناً تجلس « الأشياء » فوق عقله وقلبه وجسده ، وتنام وتصحو معه ، دون أن تدع له « الأفكار » وشبكة العلاقات الاجتماعية متسعاً ، ويظل ينوء تحت الأشياء كلها أثناء الليل والنهار حتى تصبح دينه ودينه .

ب - فساد القيادة وانتهاك القيم والحرمات : ذلك أن الأمة الميتة التي تؤثر الدنيا على الآخرة ، تدفع إلى مراكز القيادة فيها العناصر المترفة - أي أهل النعمة والبطر والاستكبار^(٢) لأنها تتوهم فهم القدرة والخبرة للحصول على الدنيا التي تؤثرها . ولكن المترفين - بحكم إصابتهم بنفس الداء - يتحولون إلى قيادات ظالمة مستغلة ، تتركز سياساتها حول الاستئثار بمزيد من الدنيا ، وأسباب البطر والاستكبار ؛ فيختفي العدل ، ويفشو الظلم ، وتنتهك الحرمات ، ويتحلل من المسؤوليات ، ويختفي الأمن والاستقرار . وإلى هذه الحالة يشير قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاَهَا تَدْمِيرًا ﴾ (الإسراء : ١٦) .

والفسق المشار إليه في الآية نوعان : فسق القيادات ، أي انحرافها عن المنهاج القويم في الحكم والإدارة ، واستعبادها للناس وكبت الحريات . . وفسق الشعوب ؛ وهو سكوتها على انحراف القيادة المترفة ، وتغلقها وتبرير ممارساتها . ولذلك أذان الله فرعون وقومه سواء ، لأنهم سمحوا له أن يستخف بهم فأطاعوه ، ونفذوا سياساته ، وشكلوا جنده وحراسه :

﴿ فَاسْتَخَفُّ قَوْمَهُ فَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴾ (الزخرف : ٥٤) .

ج - الانغماس في الشهوات وانتشار روح المنافسة والصراع : في الأمة الميتة التي تتصف بإيثار الدنيا ، ينحسر عنصر الجهاد والنصرة ، في الصراع من أجل حطام الدنيا ،

(١) ابن تيمية ، الفتاوي ، كتاب السلوك ، ح ١٠ ، ص ٥٩٧ .

(٢) الطبري ، التفسير ، ح ١٨ ، ص ٣٦ .

والانغماس في شهواتها . وإلى هذا يشير قوله صلى الله عليه وسلم : « فوالله ما الفقر أخشى عليكم ، ولكنني أخشى عليكم أن تبسط الدنيا عليكم ، كما بسطت على من كان قبلكم ، فتنافسوها كما تنافسوها ، فهلككم كما أهلكتهم » (١) .

وفي حديث آخر يقول ؛

« سيأتي بعدكم قوم يأكلون أطياب الدنيا وألوانها ، ويركبون فرس الخيل وألوانها ، ويلبسون أجمل الثياب وألوانها . . لهم بطون من القليل لا تشبع ، وأنفس بالكثير لا تقنع ، عاكفين على الدنيا ، يغدون ويروحون إليها ، اتخذوها آله من دون إلههم ، ورباً دون ربهم ، إلى أمرها ينتهون ، ولها يتبعون ، فعزيمة من محمد بن عبد الله ، لمن أدرك ذلك الزمان من عقب عقبكم ، وخلف خلفكم ، أن لا يُسلم عليهم ، ولا يعود مرضاهم ، ولا يتبع جنازتهم ، ولا يوقر كبيرهم ، فمن فعل ذلك فقد أعان على هدم الإسلام » (٢) .
ومن الطبيعي أن الرسول صلى الله عليه وسلم لا يحرم الطيبات التي أحل الله لعباده ، ولكنه يشير إلى ظاهرة من مظاهر الأمة الميتة حين تنحسر فيها عناصر الإيمان ، والهجرة ، والجهاد والرسالة ، والإيواء ، والنصرة ، والولاية ، لتدور في فلك « أشياء » الدنيا وطيباتها .

د - سطحية التدين : وتتخذ هذه السطحية مظهرين : سطحية العامة ، حيث يتحول الدين إلى طقوس ، وأعياد ومناسبات ، وأن يصبح رمضان شهر المطاعم ، والملاهي ، والتسويق ، والشراء ، والفوازير ؛ ويصبح الحج موسماً للتجارة ، والزهرة ، والايجار ، والاستئجار . وإلى ذلك يشير قوله تعالى :

﴿ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لُحُوبًا وَلَعِبًا وَّغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ﴾ (الأعراف : ٥١) .

وسطحية العلماء والمتدينين ، حيث يجري التركيز على « الطقوس والأشكال » بدل « الروح والأعمال » . وهذه السطحية قديمة ، صاحبت الإسلام منذ نشأته ، فحذر الرسول صلى الله عليه وسلم من مستقبلها ، ونبه إلى روادها . من ذلك ما رواه أبو سعيد الخدري رضي الله عنه ، حين قال : بعث علي بن أبي طالب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من اليمن بذهبة في أديم مقروظ لم تحصل من ترابها ، قال ، فقسهما بين أربعة نفر : بين عيينة بن حصن ، والأقرع بن حابس ، وزيد الخليل ، والرابع إما علقمة بن علاثة وإما عامر بن الطفيل . فقال رجل من أصحابه : كنا نحن أحق بهذا من هؤلاء ، قال فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم فقال : ألا تأمنوني وأنا أمين من في السماء ، يأتيني خبر السماء صباحاً ومساءً ؟ قال فقام رجل غائر العينين ، مشرف الوجنتين ، ناشر الجبهة ، كث

(١) ابن ماجه ، السنن ، كتاب الفتن ، ص ١٣٢٥ رقم ٣٩٩٧ .

(٢) محمد خليل الخطيب ، اتحاد الأنام ، ص ٢٣٦ .

اللحية ، مخلوق الرأس ، مشمر الإزار ، فقال : يا رسول الله ! اتق الله ! فقال : ويلك أولست أحق أهل الأرض أن يتقي الله ؟ قال ثم ولى الرجل . فقال خالد بن الوليد : يا رسول الله ألا أضرب عنقه ؟ فقال : لا لعله أن يكون يصلي ، فقال خالد : وكم من مصلي يقول بلسانه ما ليس في قلبه ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أني لم أومر أن أنقب عن قلوب الناس ، ولا أشق بطونهم . قال ثم نظر إليه وهو مقف فقال : إنه يخرج من ظظظي هذا قوم يتلون كتاب الله رطبا لا يجاوز حناجرهم ، يرقون من الدين كما يبرق السهم من الرمية . قال أظنه قال : لئن أدركتهم لأقتلنهم قتل ثمود .^(١)

هذا هو رائد التدين السطحي ، وسنة « الأشكال » : رجل « كت اللحية » ، « مخلوق الرأس » ، « مشمر الإزار » . وهو ظظظي - أي أصل - فئات يتبعون سنته ، ويتلون كتاب الله رطبا - أي سهلا لكثرة حفظهم - ولكنهم إذا لاحت لهم شهوة من شهوات الدنيا تجردوا من الذوق ، والأخلاق ، وقفزوا عليها ومرقوا من الدين كما يبرق السهم من الرمية ، ثم انحدر التاريخ الإسلامي ، وشاهد نماذج من هؤلاء أولوهم بأنهم - الخوارج - . . والحقيقة أن الظاهرة لا تقتصر على فرقة معينة في زمن معين ، وإنما هي ظاهرة متكررة كلما مرضت الأمة وانتهت إلى الوفاة ، حيث يبرز من يشعل المعارك حول الأشكال والمظاهر ، ومن يفتعل الورع حول الخروج والدخول ، ومن إذا صلى إلى جانبك أشغلك عن صلاتك ، وإن منهم من يتلون القرآن رطبا ، ويقيمون لحفظه المسابقات ، ثم هم بعد ذلك يرقون من الدين مروق السهم من الرمية في شؤون المال والمعاملات الجارية .

هـ - سطحية العلم والتربية : في الأمة الميتة ، تنحسر ميادين المعرفة من ميادين النشأة والمصير ، وسنن الحياة والكون ، لتقتصر على البحث في ميدان « الأشياء » الدنيوية ، وإعداد الناس للحصول عليها ، وإنتاجها ، ثم استهلاكها ، ودوران جميع النشاطات والمناهج التربوية والعلمية في فلك هذه الدائرة . وإلى هذه الظاهرة يشير قوله تعالى : ﴿ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ ﴾ (الروم : ٧) .
والشجرة العامة للنشاطات التربوية والعلمية ، هي بروز « ثقافة الاستهلاك » التي تلون أنماط الفهم والتفكير ، وتحيل كل فقه ، حتى فقه القرآن نفسه ، إلى أداة لإنتاج « الأشياء » وتسويقها ، والإعلان عنها والتبشير بها وتبرير - بل تمجيد - القائمين على إنتاجها وتسويقها .
أما « الأفكار » فيكون النوع السائد منها هو أفكار « اللغو » ، أي أدنى مستويات المعرفة التي يسميها القرآن الكريم - هو الحديث - مثل الأشعار الغزلية ، والأدب الوجداني ، والقصص الجنسي ، وبرامج التسلية والترفيه ، وما إلى ذلك .

(١) صحيح مسلم (شرح النووي) ح - ٧ ، كتاب الزكاة ، ص ١٦٢ - ١٦٣ .

وتتصاعد مضاعفات - إثارة الدنيا - وتفرز نتائج سلبية في الفكر والسلوك والثقافة ، حتى تبلغ قمتها في بروز ظاهرة الكفر والاستخفاف بالإيمان . . والكفر في جوهره فراغ نفسي وفكري ، سببه انحسار الاهتمامات بالدنيا وحدها . وغالبا ما يتخذ هذا الكفر مظهرين اثنين : المظهر الأول : كفر ضحايا قيم الحرمان ، أي الذين أحبوا الدنيا وسيطرت على اهتماماتهم دون سواها ، ولكنهم فشلوا في دوامة الصراع الجاري حول جمع المال والتنعم بالأشياء ، فيدفعهم الفقر والفشل والحرمان إلى الكفر ، خاصة إذا لم ينهض علماء الدين ، إلى تبني قضاياهم ، والتصدي للظلم الذي ينزل بهم ، والدعوة إلى إنصافهم ، والعناية بهم .

المظهر الثاني : كفر ضحايا قيم الترف ، أي الذين أبطروهم الانتصار في حلبة الصراع على الدنيا ، وأفرحهم احتكار النعيم والثروة والقوة ، فيدفعهم ذلك إلى أن هذا النصر مرده علمهم ومهاراتهم في الكسب والإنتاج ، ويسخرون من الدين ، ويتجرون على الفساد ، والتحلل من المسؤولية الأخروية ، وإلى هذا يشير قوله تعالى : ﴿ زَيْنٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ، وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾ (البقرة : ٢١٢) .

٤ - إعجاب كل ذي رأي برأيه :

ومحور هذه الصفة الأخيرة من صفات الأمة ، الميتة هو تعطل روح الجماعة ، والعمل الجماعي ، وتوقف تبادل الخبرات والمشورة . وينتج عن ذلك بروز ظواهر التعصب للرأي ، والعجب والكبر والتعالم ، وإملاء الرأي وفرضه على الآخرين في جميع دوائر الحياة الاجتماعية ، ابتداء من القواعد الدنيا في الأسرة ، والمتجر ، والمصنع ، ودائرة الوظيفة ، حتى أعلى دوائر المجتمع في رئاسة الحكومة ، وقيادة الدولة ، حيث زعامات الحكم المطلق ، والقيادات الدكتاتورية المتنافرة المتناحرة . ويكون من نتائج ذلك بروز مجتمعات الكراهية ، وفقدان الثقة ، وشيوع الحسد ، وانعدام التعاون والوحدة ، وتفرق الكلمة ، والتستر على الأخطاء والنواقص والعيوب ، ورفض النقد الذاتي ، وتبرير الهزائم والنكسات والأزمات ، وفشل اللجان والمؤتمرات ، وعمق التخطيط واللقاءات والاجتماعات ، وانعدام التعاون بين الهيئات والجماعات وغير ذلك .

والمحصلة النهائية لذلك كله ، هي تحطم روح الجماعة ، والعمل الجماعي ، وإغلاق قنوات الاتصال والتفاهم ، فلا تحمل المشكلات إلا بالخصومة ، والفتن ، والتأمر ، والقتل .

وإلى هذا المصير يشير قوله تعالى :

﴿ قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبَسَكُمْ شِيْعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ ﴾ (الأنعام : ٦٥) .

ولقد فسر ابن عباس قوله تعالى : ﴿ من فوقكم ﴾ : من أمرائكم . . و ﴿ من تحت

أرجلكم ﴿ : من سفلتكم .. ﴿ يلبسكم شيعة ﴾ : الأهواء والاختلاق .. ﴿ يذيق بعضكم بأس بعض ﴾ : يقتل بعضكم بعضاً .^(١)

والواقع أن معاني الآيات المشار إليها لا تقتصر على ما استقاه ابن عباس من خبرات زمانه ، بل هي تتدفق طبقاً لما يحدته الخلق الجديد (التطور) في الأزمنة والأمكنة والتكنولوجيا . فقد يكون من مظاهر ﴿ من فوقكم ﴾ : الطائرات ، والقذائف الصاروخية المدمرة ، وقد يكون من مظاهر ﴿ من تحت أرجلكم ﴾ : الألغام والمتفجرات الناسفة ، وقد يكون من مظاهر ﴿ أو يلبسكم شيعة ﴾ : الأحزاب والمنظمات المتحاربة من أجل غايات مختلطة يحوطها اللبس والغموض والدسائس الخفية . فمظاهر العذاب تتطور بتطور أدواته ، أما القوانين والسنن ، فهي خالدة مترابطة ، وأقدار - أي قوانين - متتالية يفضي بعضها إلى بعض ، حين تنفق الأمم عن الصراط المستقيم ، دون أن توقفها أهواء ، أو تحذ من هولها وعواصفها عصبية ونزعات .

ثم أن هذه الأعراض الأربعة الرئيسة للأمة الميتة : أعراض الشح المطاع ، والهوى المتبع ، والدنيا المؤثرة ، وإعجاب كل ذي رأي برأيه ، تتبادل التأثير السلبي وتتضافر في إفراز مضاعفاتها الأخلاقية ، والاقتصادية ، والاجتماعية ، والسياسية ، والعسكرية في واقع الأمة الميتة ، ولقد فصل الرسول صلى الله عليه وسلم في ذكر هذه المضاعفات في أحاديث كثيرة منها :

« يامعشر المهاجرين ! خمس إذا ابتليتكم بهن ، وأعوذ بالله أن تدركنهن ؛ لم تظهر الفاحشة في قوم قط حتى يعلنوا بها ، إلا فشا فيهم الطاعون والأوجاع التي لم تكن مضت في أسلافهم الذين مضوا . ولم ينقصوا المكيال والميزان ، إلا أخذوا بالسنين ، وشدة المؤونة ، وجور السلطان عليهم . ولم يمنعوا زكاة أموالهم إلا منعوا القطر من السماء ، ولولا البهائم لم يمطروا ، ولم ينقصوا عهد الله وعهد رسوله ، إلا سلط عليهم عدواً من غيرهم ، فأخذوا بعض ما في أيديهم ، وما لم تحكم أئمتهم بكتاب الله ، ويتخيروا مما أنزل الله ، إلا جعل بأسهم بينهم »^(٢) .

وفي حديث آخر :

« إذا فعلت أمتي خمس عشرة خصلة حل بها البلاء ، فقيل وماهن يارسول الله ؟ قال ؛ إذا كان المغنم دولا ، والأمانة مغنياً ، والزكاة مغرمًا ، وتعلم لغير الدين ، وأطاع الرجل زوجته ، وعق أمه . وبرّ صديقه ، وجفا أباه ، وارتفعت الأصوات في المساجد ، وكان زعيم القوم أرذلهم ، وأكرم الرجل مخافة شره ، وشربت الخمر ، ولبس الحرير ، واتخذت

(١) الطبري ، التفسير ، ح - ٧ ، ص ٢٢٠ - ٢٢١ .

(٢) ابن ماجه ، السنن ، ح - ٢ ، ص ١٣٣٢ - ١٣٣٣ ، رقم ٤٠١٩ .

القينات والمعازف ، ولعن آخر هذه الأمة أولها ، فليرتقبوا عند ذلك ريحاً حمراء ، أو خسفاً ، أو مسخاً»^(١) .

ثانياً - إعلان الوفاة وإجراءات الدفن :

وخلال الصراعات الدائرة ، وتفاعل الفتن ، والمضاعفات السلبية في الداخل ، تعمد الفئات المهزومة ، أوتلك التي فيها بقية صلاح إلى الهجرت المعاكسة ، والهروب من أرض المهرج والقتل والفتن ، إلى حيث الأمن والاستقرار وسيادة القانون .

أما الخردة البشرية ، فتستمر في أتون الصراعات الدموية ، ومستنقع الانحرافات الاجتماعية إلى أن تتمزق الأمة وتتناثر مرقها ، تمزقاً سياسياً ، وتفسخاً أخلاقياً ، وهزائم ، ونكبات ، ومجاعات ، تصحح حديث المحافل الدولية ، ووسائل الإعلام العالمية . وإلى هذا الوضع المأساوي يشير قوله تعالى :

﴿ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ ﴾ (سبأ : ١٩) .

ويلوغ الأمة هذه الحالة ، يجعلها كالجيفة التي تنفجر أحشاؤها ويتشترنتها ، فتجذب روائحها الكريمة برابرة الشعوب ، والغزاة الطامعين من خارج ، ليقوموا بإعلان الوفاة وإجراءات الدفن .

وغالبا ما يتمثل إعلان الوفاة بالانهيار العسكري السريع أمام الغزاة . والواقع أن ما يبدو انتصاراً ساحقاً وهزيمة مروعة ، هو في حقيقته إعلان لوفاة أمة ، لفظت أنفاسها من قبل ، ولكنها ظلت زمناً تنكئ على أجهزتها المخبراتية والأمنية ، وتوهم المرعوبين من جماهيرها أنها حية قائمة كما ظلت جثة سليمان المنكئ على منسأة زمن ترعب العاملين تحت إمرته من الإنس والجن حتى أكلت دابة الأرض تلك المنسأة - أي العصاة - فلما خرت الجثة ، قالوا : لو كنا نعلم الغيب ما لبثنا زمناً في العذاب المهين .

وأما عن إجراءات الدفن ، فتتمثل بحل جيش النظام الظالم ، وبوليسه ، ومخبراته ، وإداراته ، وانهيار الثقافة التي مكنت للظلم والفساد ، وتوزيع الميراث الممثل باقتسام الغنائم ومناطق النفوذ . وإلى هذه النهاية يشير قوله صلى الله عليه وسلم : « يوشك أن تداعى عليكم الأمم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها . فقال قائل : أو من قلة نحن يومئذ يارسول الله ؟ قال : بل أنتم كثير ولكنكم غثاء كغثاء السيل . وليتزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم ، وليقذفن الله في قلوبكم الوهن . فقال قائل : يارسول الله ، وما الوهن ؟ قال : حب الدنيا وكراهية الموت »^(٢) .

(١) الترمذي ، السنن ، كتاب الفتن ، ح ٤ ، ص ٤٩٤ ، رقم ٢٢١٠ .

(٢) ابو داود ، السنن ، كتاب الملاحم .

مسند أحمد ، ح ٥ ، ص ٢٧٨ .

والقرآن يدرج تداعي الأمم الغازية ، وما يرافق زحفها من إعلان لوفاة الأمة الميتة ،
تحت اسم « الصيحة » التي تنتهي بالأمة الميتة إلى - نفس النهاية - نهاية الغناء :
﴿ فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ عُثَاءً قَبْعَدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ (المؤمنون :
٤١) .

و « الحق » الذي جرت الصيحة طبقا له ، هو إشارة إلى السنن والأقدار ، التي تحدد مسارات الأمم ومصائرهما . و « الغناء » في اللغة معناه : القذى ، والوسخ ، والقش . وفي الحديث هنا ، يشير إلى نفايات البشرية من بقايا الأمة الميتة ، التي تنسحب من تيار الحياة البشرية لتتكلس على ضفافه . و « نزع المهابة » من صدور الأعداء ، و « كذف الوهن » في قلوب المستضعفين الأذلاء ، نتائج عمل سنن الله وقوانينه في الاجتماع البشري ، تعبر عنها الآية المشار إليها بصيغة « فبعدا للقوم الظالمين » أي إبعادا لأنظمة الظلم ، وإداراته ، ومؤسساته ، وقادته ، ورعاياه ، وجيوشه وبوليسه ، وأجهزة مخابراته ، وجميع ممارساته ، فالأمة التي تجبن أن تقول للظالم يا ظالم ، ولا تصلح آثار الظلم ، يبعث الله عليها « الصيحة » ، أو هدير الغزاة وآلتهم الحربية ، ليقوموا بما وهنت الأمة عن القيام به . إنها عمليات جراحية إلهية تستهدف فك « الأغلال » السياسية ، و « الأصار » الاجتماعية والثقافية التي مكنت للظلم ، وسمحت للظالمين بإحكام قبضتهم إحكاما لا فكاك منه .

الفصل الثالث عشر

مصير الأمة المتوفاة

- لاتتوقف السنن والأقدار عند « إعلان وفاة الأمة ودفنها » ، وإنما تستمر في عملها خطوات أخرى ، يصفها القرآن الكريم بـ « التقطيع في الأرض » ، و « الابتلاء بالحسنات والسيئات » ، و « الرجوع » ، و « الاستبدال » . وإلى هذه الخطوات يشير قوله تعالى :
- ﴿ وَقَطَعْنَهُمْ فِي الْأَرْضِ أَمَّا مِنْهُمْ الضَّالِّحُونَ وَمِنْهُمْ ذُنُوبٌ ذَلِكَ ، وَبَلَّوْنَهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لِيَعْلَمَهُم بِرَجْعَتِهِمْ ﴾ (الأعراف : ١٦٨) .
- ﴿ ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرُونًا آخَرِينَ ﴾ (المؤمنون : ٤٢) .
- ﴿ وَإِنْ تَوَلَّوْا يَسْتَبَدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ ﴾ (محمد : ٣٨) .

أما تفاصيل هذه الخطوات وتتابعها فهي كما يلي :

- ١ - التقطيع والتجزئة : و « التقطيع » المشار إليه هنا ، هو تفكيك عناصر الأمة المتوفاة ، وانهيار مؤسساتها ، وبعثتها إلى أقليات متناثرة هنا وهناك . . . وحقيقة هذا التقطيع أنه معالجة لـ « الصالحين » ومن هم « دون ذلك » ممن نرحوا هاربين خلال إعلان الوفاة والدفن . ذلك أن إنسان ما بعد دفن الأمة الميتة هو إنسان مثقل بـ « الأغلال » السياسية ، و « الأصار » الثقافية والاجتماعية ، التي تراكمت خلال فترات الجمود والأباتية ، وأدت إلى وقوعه في أسر صنمية « الأشخاص والأشياء » ، فصار يعاني من مرضين : الأول : عدم وضوح الرؤية الفكرية ، ولذا يعجز عن النظر الصائب في (آيات الكتاب) أي مصادر الرسالة ، ويعجز عن النظر في (آيات الأفاق والآنفس) أي أحداث الاجتماع البشري والكون ، وإنما يراها ملونة بتراث مراحل الجمود والأباتية ، تماما كما ترى العين الفضاء الواسع والأشياء المتناثرة فيه ملونة بلون النظارة التي تعلقو العين . والمرض الثاني : موت الإرادة العازمة ، والعجز عن التحرك إلا نحو الحاجات الدنيا ، المتمثلة في الغذاء والكساء والجنس ، دون التطلع إلى الحاجات العليا المتمثلة في التقدير وتحقيق الذات . ولذلك فهو إنسان غير صالح للرسالة بحالته القائمة ، إلا إذا أعيد تشكيل شخصيته ، وقام بتقد ذاتي جسور (أوتوية نصوح) من آثار التقليد والأباتية والعجز ، وهذا ما يوفره التحرر من أسر مجتمع الولاء لـ « الأشياء » ، والعيش في بيئة « التقطيع » .

٢ - الابتلاء بالحسنات والسيئات : وهذه خطوة مكملة لسابقتها ، إذ هي تمرير لإنسان مابعد الأمة المتوفاة في سلسلة من الخبرات الإيجابية والسلبية التي تدربه على نصرته الحق ، والتزام الخير والجمال ، ومحاربة الباطل والشر والقيح . فالابتلاء هنا هو إعادة امتحان بزيئة الحياة الدنيا ومصائبها ، ليتدرب على التحرر من قيودها ، وعلى حمل الرسالة من جديد ، وهو فرصة لإعادة النظر في الموروثات الثقافية والاجتماعية ، لبلورة نموذج مثل أعلى جديد ، ونظام تربوي جديد ، وتنظيم صفوف « شظايا » الأمة ، وتنمية قدراتها على تسخير إمكاناتها البشرية والمادية ، لإعادة بعث الأمة الكبيرة الموحدة من جديد .

والنجاح في هاتين الخطوتين - التقطيع والابتلاء - يؤهل الإنسان المبطل للقيام بعملية « الرجوع » إلى إخراج الأمة المسلمة من جديد ، وهو ما يشير إليه جزء الآية القائل :
« لعلمهم يرجعون » .

٣ - فقه الرجوع إلى إخراج الأمة المسلمة من جديد : والمشكلة هنا : في فقه « الرجوع » ، وطبيعته ، ومظاهره ، وطرقه ، ووسائله ، وأدواته ، واستراتيجياته ، فهو أيضاً محكمه السنن والقوانين ، ويحتاج إلى فقهاء وعلماء مختصين ، ويحتاج إلى مؤسسات فكرية وتربوية ، ودوائر بحوث ودراسات ، ويحتاج إلى ابتكار علوم جديدة ذات أصول إسلامية ، تعي مايجري في قرية الكرة الأرضية ، وتسترشد بالتوجيهات النبوية ، من أمثال ما أورده المناوي في كتابه - فيض القدير - عن قوله صلى الله عليه وسلم :

« رحم الله من حفظ لسانه ، وعرف زمانه ، واستقامت طريقته »^(١) : فمعرفة الزمان ، وتفتيق العلوم اللازمة لمعرفة الزمان وحاجاته وتحدياته ، شرط لصوابية طرق التخطيط والتنفيذ في استراتيجية « الرجوع » إلى إخراج الأمة المسلمة من جديد .

ومع أن مؤسسات التربية والفكر والدعوة ، تحتاج أن تفرز علومها جديدة ، لفهم السنن والقوانين ، التي توجه إخراج الأمة ، والمحافظة على عافيتها ، وكيفية تحويل هذه العلوم إلى تطبيقات عملية في ميادين التربية والإدارة ، وفي أخلاق العاملين فيها ، ومؤهلاتهم ، وعلاقاتهم ، إلا أنه يمكن القول : إن الوقوف على السنن والقوانين التي توجه « فقه الرجوع إلى الإسلام » ، يستدعي مراعاة الأمور التالية :

أولاً : انسحاب الطليعة الواعية المثقفة التي تحس بمأساة (الأمة الميتة) من صفوف المجتمع الميت ، والتوقف عن الاشتغال بالقضايا العامة ، بغية التفرغ للقيام بـ « توبة » شاملة تبدأ في نفوس المنسحبين ويكون من ثمارها الانتقال من حالة (الحس) إلى حالة (الوعي) بأسباب الوفاة ، وبالاستراتيجية اللازمة لإخراج أمة مسلمة جديدة . ويحدد الرسول صلى الله عليه وسلم زمن هذا الانسحاب وغايته ، فيقول :

(١) المناوي ، فيض القدير شرح الجامع الصغير ، ح ٤ (القاهرة : دار الفكر ، ١٣٩١/١٩٧٢)
ص ٢٩ ، رقم ٤٤٤٠ .

- « إذ رأيت شحامطاعاً ، وهوى متبعاً ، ودنيا مؤثرة ، وإعجاب كل ذي رأي برأيه ، فعليك بخاصة نفسك ، ودعك من أمر العامة »^(١) .

والشح المطاع ، والهوى المتبع ، وإيثار الدنيا ، والإعجاب بالرأي الشخصي - كما مر - كلها إشارات إلى صفات الأمة الميتة . فالشح المطاع ، دلالة على جفاف « المثل الأعلى » ، والهوى المتبع ، دلالة موت « القدرات العقلية » التي تميز بين « المثل الأعلى » و « المثل السوء » ، وإيثار الدنيا ، دلالة العجز عن حمل « الرسالة » ومتطلباتها في « الإيواء والنصرة » ، والإعجاب بالرأي الشخصي ، دلالة الانغلاق وجفاف « الخبرات الاجتماعية والكونية » وعدم الاستفادة منها في تسخير سنن الكون لتطوير « وسائل » تحقيق « المثل الأعلى » . والتوقف عن الاشتغال بـ « أمر العامة » عند ظهور المضاعفات المذكورة ، ضرورة لها أهميتها الكبرى . فهو (أولاً) يوفر للمنسحب القيام بـ « توبة » شاملة تحوّر آثار المضاعفات السلبية ، التي ضربت « خاصة نفس » المنسحب ، طالما نشأ وترعرع في بيئات الأمة الميتة ، وتسلم منها موروثاتها الثقافية والاجتماعية ، وأنماط التفكير فيها . وثمة أهمية (ثانية) : إن الانسحاب عامل أساسي في تحقيق عنصرَي الإخلاص والإصابة لدى العاملين في ميادين التربية والدعوة والإصلاح ، فالعمل في هذه الميادين قبل الانسحاب والعودة ، يتحول - في الغالب - إلى استشارات عقائدية وسياسية هدفها مصلحة الأفراد العاملين في ميادين الإصلاح للوصول إلى الجاه والمال والنفوذ لأنفسهم أو أسرهم وعشائرتهم .

ويراعى خلال فترة الانسحاب أن يركز المنسحب على تشخيص نفسه لتحري الأمور التالية :

أ (« محور الولاء » عنده ، إن كان يدور في فلك الأفكار ، أم الأشخاص ، أم الأشياء ، ثم العمل على تزكية هذا الولاء ، وجعله يدور في فلك « أفكار » الرسالة ، لأن حقيقة الدوران في فلك « الأفكار » توحيد ، وفي فلك « الأشخاص » شرك ، وفي فلك « الأشياء » وثنية .

ب (تزكية « المثل الأعلى » لديه ، وذلك بمراجعة عناصر : الإيمان ، والهجرة ، والجهاد ، والإيواء ، والنصرة عنده ، لتستقر على دائرة « الولاء لأفكار الرسالة » ، وتستمد محتوياتها منها .

ج (تزكية « الخبرات الاجتماعية والكونية » ، وذلك بمراجعة ماتسلمه منها من بيئته المحيطة ، أو انحدر إليه من تراث الآباء ، مراجعة تستهدف تصويب الخطأء ،

(١) الترمذي ؛ السنن ، ح ٨ ، كتاب التفسير ، تفسير سورة المائدة (تحقيق عزت عبيد الدباس) ص ٢٢٢ رقم ٣٠٦٠ .

ومثله : سنن أبي داود ، ح ٤ ، كتاب الملاحم .

و : سنن ابن ماجه : كتاب الفتن ، ح ٢ ، ص ١٣٣١ ، رقم ٤٠١٤ .

واستبعاد الميت الذي مضى زمنه ، والتعرف على الجديد الذي قامت الحاجة إليه ، واسترجاع النافع الذي لفه النسيان .

د) تزكية « القدرات العقلية » ، وتحريرها من صنمية « الأشخاص » ، و « الأشياء » ، وإعدادها للنمو والعمل في فلك « أفكار » الرسالة ، دون خوف من « شخص » أو طمع « بشيء » .

هـ) تزكية « الإرادات » ، وذلك بتحريرها من التوجه إلى « مثل السوء » ، لتكون « نبيلة » ، وتنميتها إلى أقصى مراتبها ، لتصبح « عازمة » .

و) تزكية « القدرة التخيرية » ، لتكون قادرة على شهود قوانين الله في الآفاق والأنفس ، وتحويلها إلى تطبيقات فاعلة ، ووسائل تسهم في تحقيق غايات الحياة ومقاصدها العليا .

ولتكون هذه التزكية - أو المراجعة - فاعلة مؤثرة ، لا بد من البحث الراسخ المحيط في مصدرين اثنين : الأول : في آيات الوحي في الكتاب والسنة ، بغية فقه عناصر الأمة الستة ، أي عناصر : الإيمان ، والهجرة ، والرسالة ، والجهاد ، والإيواء ، والنصرة ، والولاية ، فقهًا جديدًا يلبي حاجات المرحلة زمانًا ومكانًا . والمصدر الثاني : في آيات الآفاق والأنفس بغية تشخيص « المثل السوء » الذي أدى إلى انحراف مؤسسات التربية والفكر والدعوة في الماضي ، وأسهم في مرض الأمة ووفاتها ، ثم بلورة « المثل الأعلى » الجديد ، و « الوسائل » اللازمة لتجسيده ، وإخراج الأمة من جديد .

ومن البحث في هذين المصدرين ، يبدأ المنسحبون في بناء فلسفة جديدة للتربية والاجتماع البشري ، وإبراز أهداف جديدة ، ومناهج جديدة ، ومربين جددًا ، ومؤسسات جديدة تسهم كلها في إخراج إنسان جديد ، وبناء شبكة علاقات اجتماعية جديدة ، تعلن ميلاد أمة مسلمة جديدة .

ثانيًا : عودة المنسحبين إلى - المجتمع - بغية العمل على « توبة » الآخرين ، وتحقيق أمرين اثنين : الأول : استبدال « المثل السوء » الذي أدى إلى مرض الأمة ووفاتها ، واستبدال « الخبرات الاجتماعية والكونية » الخاطئة ، وتحرير « القدرات العقلية » المكبلة بأغلال الصنمية السائدة ، وأصار الأبائية المستحكمة . والأمر الثاني : إخراج الأمة المسلمة الجديدة حسب النموذج الذي « فقهه » المنسحبون - العائدون خلال فترة الانسحاب .

ويراعى في إخراج الأمة الجديدة ، التدرج في هذا الإخراج حسب التفاصيل التي مرت عند تعريف الأمة في الفصل الأول من هذا البحث . وهذا يعني أن تعمد الجماعات والمجموعات الإسلامية المتناثرة هنا وهناك ، في حارات الكرة الأرضية ، إلى تكوين « أمم صغرى » في مهاجرها الموقوتة ، تتكون كل أمة من عناصر : الأفراد المؤمنين ، والهجرة ، والرسالة والجهاد ، والإيواء ، والنصرة ، والولاية ، حسب المفاهيم والمضامين التي مرت في هذا البحث ، على أن تكون مقدمة لتجميع هذه « الأمم الصغرى » في « أمة إسلامية كبرى » يكون مهجرها النهائي الدائم هو الأرض التي رسم حدودها إبراهيم عليه السلام ،

والرسل من ذريته منذ موسى عليه السلام حتى محمد صلى الله عليه وسلم ، وأقاموا مؤسساتها التي صار محورها المسجد الحرام ، والحرم النبوي ، والمسجد الأقصى .

ثالثاً : توجيه « الأمة المسلمة الكبرى » لحمل - الرسالة الإسلامية - ونشر نموذج « المثل الأعلى » الإسلامي بين الأمم الأخرى ، بعد أن تعيش الأمة المثل المذكور واقعاً قائماً ، وتجعل منه « جنسية » حية ، و « ثقافة » فاعلة متحركة ، يستطيع بنو البشر تذوقها وتعشقها حالما تقع أبصارهم على أفراد الأمة « المجاهدين » في سبيل نشرها .
وهذا المنهج - في الانسحاب والعودة - هو ماوجه إليه الله سبحانه رسوله الكريم ، حين انسحب من مجتمع مكة قبيل الرسالة ، ليتفكر ويتحنن في - غار حراء - إلى أن عاد إلى الإنسانية بتصور جديد لوجودها ، ومراجعة شاملة لموروثاتها الدينية ، والاجتماعية والكونية .

ولقد اقتضى أثر الرسول صلى الله عليه وسلم في الانسحاب والعودة ، مصلحون كثيرون ، من أبرزهم حركة الإصلاح التي بدأها أبو حامد الغزالي ، وطبق منهجه عملياً طليعة كبيرة كان لهم الدور الأكبر في إخراج جيل صلاح الدين ، وعودة القدس^(١) . ولكن أولئك المنسحبين ركزوا في « توتهم » على « المثل الأعلى » دون « الخبرات الاجتماعية والكونية » ، ولذلك اقتصر نجاحاتهم على تحقيق عنصر « الإخلاص » دون « الإصابة » ، أو نقول نجحوا في تنمية « الأمانة » دون « التمكين » . ولذلك نجح - جيل صلاح الدين الذي أخرجه - في ميدان الجهاد العسكري وتحرير المقدسات ، ولكنه لم ينجح في تطوير النظم والمؤسسات التي تضمن استمرارية الحضارة الإسلامية وفعاليتها ، فخلفهم خلف عادوا للموروثات الخاطئة في الإدارة والحكم ، والذي وحده جيل صلاح الدين ، عاد - جيل أبنائه - وقسموه ميراثاً بين أولئك الأبناء . وكذلك أصاب الخلل حركات الإصلاح نفسها ، التي ضربها الانشقاق المذهبي ، والأبائية ، وانتهت إلى موروثات الدروشة والطرق الصوفية .

هذه خطوط عريضة أولية في « فقه الرجوع إلى الإسلام » ، وإذا لم تراخ هذه الخطوط ، فسوف يكون « رجوعاً » سطحياً ، متسجناً ، أو خنووعاً ينتهي إلى العصبية المذهبية ، والحزبية ، أو الدروشة الطرقية ، وسوف يقتصر « الرجوع » على ما يظن أنه « أشكال

(١) للتعرف على كيفية إخراج جيل صلاح الدين راجع كتاب - هكذا ظهر جيل صلاح الدين وهكذا عادت القدس - للمؤلف .

صالحه « بدل « الأعمال الصالحة » ، أو ما يظن أنه « سنة الرسول » بينما هو « سنة
الحمس »^(١) .

٤ - استبدال الأمة المتوفاة : ولكن ، قد تخطى الجماعات « المقطعة » في الأرض
استراتيجية « الرجوع إلى الإسلام » ، وإخراج الأمة المسلمة من جديد ، ثم يكون من
نتائج هذا الخطأ أن لا تحسن فقه « الابتلاء بالحسنات والسيئات » ، و « الخبرات »
الإيجابية والسلبية التي تمر بها في بيئات « التقطيع » ، وبالتالي لا تحسن إخراج الأمة المسلمة
من جديد ، حتى تصل إلى حالة « الفناء » . والفناء نهاية مأساوية يشير إليها قوله تعالى :
﴿ فَأَخَذْتُمُ الصُّبْحَةَ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً فَبَعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ . ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنْ
بَعْدِهِمْ قُرُونًا آخَرِينَ . مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجْلَهَا وَمَا يَسْتَجِرُونَ ﴾ (المؤمنون : ٤١ -
٤٣) .

ف « الغناء » ، بقايا ونفايات بشرية خاوية ، تعيش على هامش مجرى الاجتماع
الإنساني ، كدويلات وأقليات متناثرة ، وثقافات هامشية تراثية - آثارية . وليس فيها قابلية
البعث من جديد ، والإسهام في حمل الرسالة ، فلا هي مستعدة للتضحية ، ولا قادرة على
التحرر من رق الشهوات الفردية ، والولاءات العصبية ، وأبرز صفاتها هو - الوهن - أي
حب الدنيا وكرهية الموت والتضحية ، حسب تعريف رسول الله صلى الله عليه وسلم ،
فهي تخاف من تكاليف الحرية ، وتجنب عن مجابهة الظلم ، في الداخل ، وصد الغزاة من
الخارج ؛ بل إن هذا الجبن يصبح عند « الغثائين » مرادفاً للحكمة والتعقل . ولذلك
ترحل - الرسالة - لتزكية خامات بشرية جديدة مازالت تحتفظ بفضتها المعافاة من
« الوهن » . وحين تكمل تزكية هذه العناصر الجديدة ، تبدأ دورة أخرى في بناء أمة
جديدة ، تتسلم إمامة الإرشاد في الأرض ، وتبدأ دورة الإصلاح من جديد بقوة ونشاط ،

(١) الحُمس : اسم أطلقته قريش على نفسها وعلى أحلافها في الجاهلية . ومعناه : أهل الحرم . وكان يجرم
على الزوار الذين يفتنون للحج والعمرة أن يأكلوا من طعامهم إلى جاءوا به لإطعام الحُمس ، ولا يطوفوا
بالكعبة إلا في ثياب يشترونها من الحُمس ، فإن لم يستطيعوا شراء ثياب الحُمس أو استجارها عليهم أن
يطوفوا عراة ، وفي هذه الحالة يستر النساء عوراتهن بقطعة قماش خفيفة ثم يظفن وهن يرددن :

اليوم يبدو بعضه أو كله وما يبدأ منه فلا أحله
الطبرن ، التفسير ، ٨٥ ، ص ١٦٥ - (٦) .

و — ، — ، ٢٥ ، ص ٢٩٢ - ٢٩٣ ، — سيرة ابن هشام .
واليوم يخرج على المسلمين - حمس جدد - ليقولوا إن السنة هي أن يلبس المسلمون أثوابهم ، ويقتدوا
بأشكالهم ويمارسوا عاداتهم .

يتطابقان مع مستوى « المثل الأعلى » الذي تطرحه المؤسسات التربوية ، التي أسهمت في تربية الأمة الجديدة . وإخراج هذه الأمة الجديدة لتحل محل الأمة الميتة هو ما يشير إليه قوله تعالى :

﴿ إِنَّا تَنفِرُوا يُعَذِّبُكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلُ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ﴾ (التوبة : ٣٩) .

ولعله من المناسب أن نقول : إن هذه السنن والقوانين في التعذيب والاستبدال هي التي وجهت تعاقب الأمم الإسلامية من العرب المسلمين ، والفرس المسلمين ، والسلاجقة ، والزنكيين ، والأيوبيين ، والمماليك ، ثم الأتراك العثمانيين . فقد رحلت الرسالة الإسلامية من الأمة السابقة إلى اللاحقة ، واستمرت في كل أمة من هذه الأمم ، مادامت تقوم بتكاليف الرسالة ، حتى إذا اثاقلت إلى الأرض ، استبدلها الله بالتي تليها .

الفصل الرابع عشر

توصيات

ويخلص البحث إلى التوصيات التالية :

التوصية الأولى : إيجاد مؤسسات تشمل المدارس والمعاهد والجامعات ومؤسسات البحث العلمي ، لتقوم بأسلمة التربية والعلوم من خلال النشاطات التالية :

١ - القيام بمراجعة ، أو « توبة » تربوية جريئة ، مستقلة من التأثيرات الأبائية والأجنبية ، هدفها تمحيص التراث المتحدر من الآباء ، أو تلك الوافدة من عند الغرباء ، بغية التعرف على ما كان أصيلاً يتفق مع مفهوم الأمة المسلمة في القرآن والسنة في الحالة الأولى ، وما كان متافراً مع القرآن والسنة في الحالة الثانية ، وما كان - في الحالتين - يحمل في طياته عوامل الخطأ ، والضعف ، والجمود .

والقيام بهذه المراجعة - أو التوبة - يضع الأمة على الصراط المستقيم ، الذي يتوافق مع سنن الحياة وقوانينها ، ويتفق مع قوانين التغيير القرآنية ، التي تقرر أن الله لا يغير ما بقوم من أزمات سياسية أو اجتماعية أو اقتصادية ، إلا إذا غيروا ما بأنفسهم من محتويات فكرية ، وثقافية ، وقيم ، وعادات ، وتقاليد ، تتعلق بمبادئ الأزمات المذكورة .

٢ - ممارسة الاجتهاد الذي يؤدي إلى ظهور علوم سياسية وإدارية واقتصادية واجتماعية ، تبلور مفهوم الأمة المسلمة ، ومحتويات عناصرها في الإيمان ، والهجرة ، والجهاد ، والرسالة ، والإبواء ، والنصرة ، والولاية ، حسب ماتوجه إليه أصولها في القرآن والسنة ، وتتطلب حاجات الأزمنة والأمكنة ، والتحديات في الداخل والخارج .

٣ - تحويل نهار الاجتهاد المقترح ، إلى خطط ومناهج وطرق تربوية ، يستطيع (إنسان التربية الإسلامية) من خلالها أن يعيش مضامين العناصر المكونة للأمة المسلمة فكراً وعملاً ، ويكون من ثمارها النهائية تنمية الولاء للأمة المسلمة وحدها ، والعمل على إخراجها من جديد ، والقضاء على الولاءات العصبية ، التي تتعارض مع هذا الولاء وتضعفه .

٤ - تقويم الاجتهادات النظرية ، والتطبيقات العملية الخاصة بمفهوم الأمة المسلمة ، تقويماً مستمراً في ضوء الحاجات المتجددة ، والتغيرات الحاصلة في الزمان والمكان .

والتوصية الثانية : تطوير المؤسسات اللازمة للقيام بمسؤولية تنفيذ المشروعات المقترحة في التوصية الأولى ، وتزويد هذه المؤسسات بأعلى المؤهلات ، وأدق الأجهزة والأدوات ، ومتابعة جهودها بالتقويم المستمر . ويراعى تنوع هذه المؤسسات إلى أقسام تتطابق مع

مسؤوليات الأمة المسلمة ، كأن تكون كما يلي :

أ - مؤسسات تمارس الاجتهاد والنظر في آيات الوحي ، بغية بلورة نموذج « المثل الأعلى » الذي تتطلبه حاجات الزمان والمكان .

ب - مؤسسات تنظر في « الخبرات الاجتماعية والكونية » في العالم كله ، بما في ذلك دراسة الثقافات العالمية المختلفة ، وأنماط التفكير السائدة فيه ، لبلورة « وسائل » تحقيق المثل الأعلى .

ج - مؤسسات وظيفتها رسم الاستراتيجيات اللازمة للتفاعل مع المجتمعات العالمية في ضوء معطيات « المثل الأعلى » ، الذي تفرزه المؤسسات رقم (أ) ، ونتائج شهود « الخبرات الاجتماعية والكونية » التي تفرزها المؤسسات رقم (ب) .

والواقع أن - الأزمة الرئيسة في العمل الإسلامي ، وفي الحضارة الإسلامية - خلال التاريخ الإسلامي كله ، هي عدم تقدير دور - المؤسسات - وعدم إعطائها ماتستحقه من عناية - خاصة في ميدان السياسة والاقتصاد - وترك المشروعات والإدارات للجهود والمبادرات الفردية ، وتوقع قيام الفرد القائد بدور النبي المرسل ، المؤيد بوحى السماء ، ونصرته ، سواء على مستوى الدول أو الجماعات . لذلك كانت - وما زالت - حركات اليقظة ، ومشروعات الإصلاح ، حركات فردية موقوتة ، تعتمد على كفاءات الفرد القائد ، أو الفرد المصلح ، وعلى قدراته الشخصية خلال حياته . . وغياب الفرد عن مسرح الحياة ، يشكل نكسة حاسمة في اليقظات والمشروعات ، قد ترد الأمة إلى نقطة الصفر ، أو تحولها للسبيل في الاتجاه المعاكس . وهذا القول ينطبق على جميع حركات الإصلاح ، التي قادها مصلحون دينيون ، أو سياسيون في الماضي والحاضر .

والتوصية الثالثة : ضرورة تكامل « التعليم ومؤسساته مع التنظيم ومؤسساته » ، أو نقول : تكامل عمل المدارس والجامعات ، مع الأحزاب والمؤسسات والجماعات . فلقد دأبت الحركات الإسلامية العاملة للإصلاح والوحدة - منذ مطلع هذا القرن - على اعتماد الوعظ الجماهيري ، بدل التعليم المنظم ، تاركة « التعليم والتربية » للمدارس والمعاهد والجامعات التقليدية ، التي انحدرت من عصور الجمود والانحطاط ، أو تلك التي أنشأتها

البعثات التبشيرية ، أو تلك التي أنشأتها الحكومات الرسمية بتوجيه خبراء التعليم الأجنب . ولقد كان لهذه الظاهرة آثارها السلبية القاتلة ، إذ أن المؤسسات التربوية المشار إليها كانت - وما زالت - ترفد المجتمعات الإسلامية ، والحركات ، والأحزاب ، بخليط متنافر التفكير والثقافات ، كل يحمل معه بصمات المدرسة أو المعهد أو الجامعة التي تخرج منها . ولذلك ضمت الحركات الإسلامية أفراداً يؤمنون بمثل عليا مختلفة متنافرة ، بينما يقفون تحت شعارات وعموميات ضبابية غامضة ، دون أن يكون لديهم استراتيجيات صائبة للتعليم أو التنظيم .

ولعله من الموضوعية والرجوع إلى الحق أن أنبه - هنا - إلى ماورد في كتابي - هكذا ظهر جيل صلاح الدين وهكذا عادت القدس - في الصفحات ٢٨٨ - ٢٩٥ ، حول اعتبار الأحزاب والجماعات استراتيجية ضارة خاسرة . والواقع أنني بعد تحليل الظاهرة بعمق وشمول أكثر ، أقرر أن الأسباب العشرة التي دلت بها على ضرر الجماعات والأحزاب هي - في الحقيقة - أسباب لعدم التكامل بين المؤسسات التعليمية والفكرية ، التي تمثلها المدارس والجامعات ، والمؤسسات التنظيمية التي تمثلها الأحزاب والجماعات . ذلك أن ترك التعليم في أيدي مؤسسات أجنبية ، ومحلية بنت فلسفاتها وأهدافها ، ونظمت مناهجها وتطبيقاتها ، حول قيم العصبية القبلية ، والطائفية ، والأقليمية ، والآبائية ، أفرز أحزاباً وجماعات متأثرة بهذه القيم ، مما أشاع التنافر في علاقاتها ، وجعلها في ولاءاتها ، قبائل من لا قبيلة له ، أو طوائف من لا طائفة له .

والتوصية الرابعة: تنظيم علاقات « الأفراد المؤمنين » الذين تخرجهم مؤسسات التعليم ، وينتمون إلى مؤسسات التنظيم في شبكة علاقات اجتماعية ، يكون العامود الفقري فيها هو عناصر الأمة الستة ؛ أي عناصر : الإيمان ، والهجرة ، والجهاد والرسالة ، والإيواء ، والنصرة ، والولاية ، حسب التفصيلات التي مرت في هذا البحث .

ويراعى أن يتم بناء هذه الشبكة على مستويين اثنين : المستوى المحلي : الذي ينظم علاقات « الأمة الصغرى » ، أي أفراد الجماعة أو الحزب أو الأقلية الإسلامية . ثم المستوى العالمي : الذي ينسق نشاطات الأشكال المحلية من الجماعات والأحزاب والأقليات ، في تنظيم عالمي فعال ، غايته النهائية « إخراج الأمة المسلمة الكبرى » في أرض ماحول الأقصى ، والمسجد الحرام ، التي أرادها الله قاعدة للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والإيمان بالله ، والتي خطط حدودها إبراهيم عليه السلام ، واكتملت وظيفتها في انطلاقة محمد صلى الله عليه وسلم ، وخلفائه ، كما مر في فصل سابق .

فإذا اكتمل إخراج هذه « الأمة الكبرى » ، أصبح فرضاً على « الأمم المسلمة »

الصغرى الموقوتة ، من الأحزاب والجماعات والأقليات ، أن تهاجر هجرتها المادية إلى أرض « الأمة المسلمة الكبرى » ، لتلاحم وتتحد متظافرة متوالية لاستئناف حمل رسالة الإسلام إلى العالم كله .

والتوصية الخامسة : بلورة مفهوم « رسالة إسلامية » عالمية ، يحل محل « الشيوعية » التي انهار معسكرها ، وأعاد الإنسان « المستضعف » إلى حالة اليتيم واليأس والقيود ، وفسح المجال أمام الإنسان « المترف » للعريضة في الأرض ، وتكرار قوله فرعون : أنا ربكم الأعلى ! أنا القوة العظمى «Super Power» التي لا تقهر !
ولتملأ الحركة الإسلامية الحديدية الفراغ الشيوعي ، على المستوى العالمي ، لا بد أن تدرس نقاط القوة ونقاط الضعف في الحركة الشيوعية دراسة إسلامية علمية يتوفر فيها عنصر الإحاطة والرسوخ ، ويكون هدفها الاستفادة من جوانب القوة ، وتجنب جوانب الضعف .

إن جانب القوة الذي جعل من - الشيوعية - قوة عظمى حوالي - نصف قرن - هو التمحور حول المظهر الاجتماعي للإصلاح - أولاً - فهذا المظهر هو الجانب المقابل لـ « المظهر الاجتماعي للعبادة في الإسلام »^(١) الذي أهمله المسلمون ، واكتفوا منذ قرون بالحدوث عن الجانب الديني . ثم التوسع - ثانياً - في تطبيق المظهر الاجتماعي ، ليشمل العالم كله ، دون التزام بجنس من الاجناس ، أو قومية من القوميات . فهذا المظهر هو المقابل لـ - الأخوة الإنسانية - الذي نسبته الحركة الإسلامية الحديثة ، وانحرفت لتدافع عن « قابلية الاستعمار » في العرب والباكستانيين والإيرانيين والمسلمين الأفارقة ، التي تغازل « الاستعمار » وتغريه ، وتوقظ غرائزه ، وتثير شهيته كلما أتعبته مغامرات الغزو والتسلط . ولكن يجب الانتباه إلى - جوانب الضعف - في الشيوعية ، التي تمثل فروقا حاسمة بين الإسلام والشيوعية . وتمثل هذه الجوانب في أمور ، منها :

الجانب الأول : هو النظر إلى « موقع الإنسان في سلم الوجود » . فال مفهوم الماركسي لهذا الموقع ، هيا لمقتل كبير من مقاتل الشيوعية نفسها ، حينما جعلت الإنسان في الموقع الأول في الوجود ، وأنكرت - الخالق - كرد فعل لوقوف الكنيسة إلى جانب معسكر « المترفين » ، وليس كنتيجة من نتائج البحث العلمي والنظر الموضوعي في الوجود .
وفي دراستنا لهذا الجانب ، لا يجوز التسارعة إلى القول : بأن إنبيار المعسكر الشيوعي يعني فشل الشيوعية وانتصار الرأسمالية ، كما يشاع الآن ، بل لا بد من فحص المكونات الرئيسة للشيوعية وهي : الماركسية - واللينينية - والستالينية ، وتحديد مقدار المسؤولية التي تقع على

(١) للوقوف على تفاصيل - المظهر الاجتماعي للعبادة - راجع كتاب - فلسفة التربية الإسلامية - للمؤلف .

عاتق كل عنصر من هذه العناصر الثلاثة ؛ ذلك أن الماركسية - من الناحية الاقتصادية - دعت إلى الإشتراكية ، ومن الناحية السياسية دعت إلى حكم العمال .
أما اللينينية ، فقد شابهت الماركسية في تبني الإشتراكية ، واختلفت عنها في الدعوة إلى حكم الحزب الشيوعي .

وأما الستالينية ، فقد شابهت الماركسية واللينينية في تبني الإشتراكية ، واختلفت عن الاثنتين في الدعوة - أو تبني - حكم الفرد الزعيم .

وهناك فرق شاسع في التطبيق الإشتراكي الذي يشرف عليه العمال ، أو ذاك الذي يشرف عليه الحزب ، أو ذاك الذي يشرف عليه الفرد الزعيم . فالحالة الأولى ، لم تطبق في تاريخ الشيوعية . . والحالة الثانية ، اسندت القيادة إلى أقلية تنتسب للعمال ، ولا تشاركهم عملهم ، ولا طبقتهم . . والحالة الثالثة ، اسندت القيادة إلى فرد واحد تربيع على رأس الهرم البشري كله ليقول كذلك : أنا ربكم الأعلى !!

والفرضية المطروحة هنا هي : أن انهيار المعسكر الشيوعي أمام المعسكر الرأسمالي يتحدد في التطبيقات السياسية والإدارية أكثر من المفاهيم الاقتصادية .

ونقطة الضعف الثانية ، هي : مفهوم الشيوعية عن « طبيعة الإنسان » الذي نقلته عن « الدارونية الاجتماعية » ، والتي نقلها - دارون بطريقة غير مباشرة - عن الخطيئة الأصلية في المسيحية . فهذه الفكرة أصلت الشر في طبيعة الإنسان ، وبررت نظرية الصراع الطبقي ، التي طرحتها الماركسية ، ووضعت الإنسان في المركز الأول ، وليس - المركز الوسط - حينما تنكرت لوجود الخالق وتبنت الإلحاد ، فكان من ثمرة ذلك أن جعلت الإنسان « العامل » عرضة لقبالية مرض - الطغيان - . فعندما تراءى للحزب الشيوعي - اللينيني أنه استغنى ، طغى وانقلب إلى أقلية أرستقراطية أبشع من أرستقراطية المعسكر الرأسمالي . وحين تراءى للفرد الستاليني أنه استغنى ، انقلب إلى رأسمالي مركز ، فتأله ، وقال : أنا ربكم الأعلى ! وتنكر - من الناحية العملية - لقيم الماركسية ومبادئها مبرهنًا قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُفٍ ﴾ ، ان رءاه أستغنى ﴿ العلق : ٦ - ٧ » .

إذن ! المطلوب من الحركة الإسلامية الجديدة ، المرشحة لملء الفراغ العالمي الذي خلفه انهيار الشيوعية ، أن تراعي الاختلافات الحاسمة ، التي تميز الإسلام عن الشيوعية ، والإيجابيات الفعالة التي مكنت للشيوعية مقدار نصف قريبًا تقريبًا . . أما عن الاختلافات الحاسمة فأبرزها :

- النظر إلى « هوية الإنسان وطبيعته » . ولقد استعرضنا مفهوم - الهوية - في فصل - الأفراد المؤمنين- . أما عن طبيعة الإنسان ، فلا بد من الانطلاق من المبدأ الإسلامي الذي يقرر أن « الإنسان خير في الأصل » ، والشر طارئ عليه ، وليس العكس كما قررت الشيوعية والرأسمالية .

وأهمية هذا التصور ، أن الحركة الإسلامية الجديدة سوف لا تقف إلى جانب طرف ضد الطرف الآخر ، كما فعلت الماركسية ، ولن يكون هدفها قهر طرف من أجل هيمنة الطرف الآخر ، وإنما سوف تعمل على إنقاذ الطرفين من مضاعفات مرض الانقطاع عن الله والإسراف في حب الدنيا . فهذا المرض هو الذي أصاب « المترفين » بسرطان « الطغيان » حين أبطرتهم القوة والثروة ، وتحولوا إلى مترفين متسلطين ، فتخطوا حدود-الوسطية-التي تحقق العافية والتوازن في الاجتماع البشري ، وألحقوا الضرر بغيرهم حين سلبوهم حقوقهم في العيش الكريم والحرية ، وألحقوا الضرر بأنفسهم حين سلبوها الأمن ، ومحبة الله والناس من حولهم . كذلك أصاب المرض المذكور « المستضعفين » بسرطان « الهوان » حين أيأسهم فقدان القوة والثروة ، وتحولوا إلى كافرين بالخير والدين ، والأخلاق والإنسان . وتبني الحركة الإسلامية الجديدة هذا التصور ، يجعل هدف -إخراج الأمة المسلمة- ان تكون « المرشد الأعظم Supreme Guide وليس القوة العظمى Super Power » . وهذا هو المنصب الذي ترمز إليه قصة ذي القرنين في سورة الكهف من القرآن الكريم ، فإذا توجهت - الأمة المسلمة - شرقاً ، ووجدت شعوباً معرضة لهجمات همجية ياجوجية ومأجوجية ، لاستغل ضعف هذه الشعوب ، ولاتجعل منها سوقاً دولية للسلاح . وإذا توجهت غرباً ، ووجدت شعوباً جاهلة متخلفة ، لاستغل تخلفها وجهلها لابتزاز ثرواتها ومصادر عيشها ، وإنما تدافع عن المعتدى عليه ، وتأخذ بيد الضال ، قاتلة لكلا الطرفين إذا عرضوا عليها أجراً : « مامكني فيه ربي خير ! »

وهذا النموذج للأمة المسلمة المنشودة ، هو الذي يحدد-صورة المثل الأعلى الجديد-الذي يجب أن تطرحه الحركة الإسلامية للعالم كله ، ليكون علاجاً حاسماً لمرض « الطغيان » و « الاستضعاف » ، ووقاية للبشرية من « النظام العالمي الجديد » ، الذي يعمل-المترفون-المنتصرون على إخراجه ، بعد سقوط المعسكر الشيوعي ، للانفراد بمصادر العيش ، وحرق أيتام « المستضعفين » في أتون الحروب الإقليمية المفتعلة ، بعد أن تحل قادة المعسكر الشيوعي عنهم ، وأعلنوا الانضمام إلى نادي « المترفين » العالميين !!

وانتشار عقلية-الطغيان-التي تنسى الله الخالق ، وتغفل عن سنته في التاريخ والاجتماع البشري - وتضع « الإنسان المترف » في المقام الأول في الوجود ، عقلية خطيرة مدمرة ، تحمل في تلافيفها مقتل صاحبها ؛ بقوة الله القيوم قائمة في التاريخ ، فاعلة مهممة في الاجتماع البشري ، وسوف نرى عملها فلا تستعجلوه !! وعلى الحركة الإسلامية الجديدة أن تقنع العالم بالبينه ، وسلطان البرهان ، والعلم ، أن سنن الله لا يعلو عليها « الإنسان المترف » الذي يظني ، أن رآه استغنى ، فإن إلى ربنا الرجعى !!

والتوصية السادسة : أن الحركة الإسلامية الجديدة ، تحتاج أن تضع في قمة أساليبها : بناء « مؤسسات القراءة » ، والانطلاق من-القراءة-في كل عمل أو نشاط . .

والمقصود بالقراءة ، قراءة كل ما يتعلق بالأمم التي تسكن قرية الكرة الأرضية ، ونشاطاتها ، وثقافتها ، وأنماط تفكيرها . ولا بد من توفير وسائل القراءة التي تبتكرها تكنولوجيا العصر ، وتيسر الإحاطة بكل لغات العصر ، وفلسفات العصر ، وشؤون العصر . ولا بد من توفير « القراءة » المتخصصة المتفرغين ، الذين يتوزعون ويتكاملون حسب موضوعات القراءة وميادينها ووسائلها ، لأن « القراءة » المطلوبة يجب أن « تحيط » بكل ما يجري في قرية الكرة الأرضية ، و« ترسخ » في التفاصيل الدقيقة قبل أن تقدم على أي تخطيط أو تنفيذ . وهذا هو اللائق بالامة التي تنهض للعمل باسم دين بدأ الوحي فيه بكلمة « اقرأ » ، ولم يبدأ بـ «جاهد» ، أو « صل » ، أو « حج » ، أو « زك » أو-- أو-- لأن كل جهاد ، وصلاة ، وحج ، وزكاة ، أو عمل لاتسبغه قراءة راسخة محيططة بأهداف العمل وميادينه ، ومناهجه ، وطرقه ، ووسائله ، وأدواته ، وطبيعة عصره ، سوف يكون عملاً فاشلاً خاسراً .

إن آفة - المسلم التقليدي - أنه يناصر ويخاصم بدون قراءة ، وهو إن قرأ فقراءته سطحية ، لاتنصف بالإحاطة والرسوخ . يناصر الإسلام ولا يقرأه ، أو هو يقرأ أشعارات عامة وملصقات ذهنية غائمة . ويخاصم الشيوعية أو الرأسمالية ، ولا يقرأ كتبها الأصلية ، وأصولها الفكرية ، إلا ما قرأه في الصحف أو سمعه من إذاعات العسكريين اللذين كانا يتسابقان لقولبة الأذهان وتبثه المشاعر ، وتشكيل الاتجاهات لصالحهما ، وضد بعضهما بعضاً ، ولذلك يقع المسلم التقليدي في أخطاء قاتلة وينتهي إلى إحباطات مدمرة .

والتوصية السابعة : أن الحركة الإسلامية الجديدة ، تحتاج إلى شجاعة ، ووعي ، لفك الارتباط القائم بين « العمل الإسلامي » ، و« أزمات العصبية القبلية والإقليمية » المتتالية في « مزق » الأمة الإسلامية . أي هي بحاجة أن لاتضع العمل الإسلامي لمعالجة المضاعفات التي يتسبب بها « حران » العربي المعاصر ، والباكستاني المعاصر ، والإيراني المعاصر ، ونظائرهم وأقرانهم في العالم الإسلامي ، عن دخول عصر التكتلات العالمية التي تلغي الحدود الإقليمية ، وتطلق الولاءات العصبية ، وترتقي إلى دائرة الولاء - « الأفكار » الإسلامية العالمية ، وولاءاتها .

فسرطان المسلم التقليدي الذي سوف يقتله ، ويشطبه من الوجود ، هو هذا « الحران » العنيد الذي مارسه منذ عهد بعيد ، وما زال يمارسه ويرفض الانتقال إلى طور « الأمة العالمية » الدائرة في فلك « الأفكار الإسلامية » ، ويصر على البقاء في طور العصبية الإقليمية ، ويتحائل على دائرة الانتهاة الإسلامي بمنظمات صورية ، تكون بمثابة المقابر التي تدفن فيها مشكلات « مزق » الأمة الإسلامية المتوفاة !! الأمر الذي خرج به عن صراط الإيمان والإسلام ، وأركسه في تعرجات النفاق ، الذي بدأ صغيراً ثم تطور إلى نفاق أكبر ، أركسه في الدرك الأسفل من هوان الدنيا ، ويؤهله للدرك الأسفل من نار الآخرة .

ولا يقتصر هذا الحران العنيد ، ورفض الانتقال من « ثقافة العصبية القبلية » وتطبيقاتها على الأنظمة السياسية والإدارية القائمة في « مرق » الأمة الإسلامية المتوفاة !! بل أن الحركات الإسلامية القائمة لم « تنزك » من ثقافة العصبية القبلية ، وإنما بقيت غارقة في حمايتها حتى الأذن . فالمرشد العام للجماعة ، « أو المراقب العام » ، أو الأمين العام للجماعة ، أو الحزب ، يبقى مرشداً « راشداً » ، وأميناً « أميناً » مدى الحياة ، مخاطب « العصمة » التي تحيط بشيخ القبيلة ، ولا يطوله النقد الذي طال الخليفة عمر بن الخطاب - رضي الله عنه ، وحين يموت يرثه في منصب المرشد ، أو المراقب ، أو الأمين العام ، أو المجلس النيابي ، ولده والمجموعة المتعاونة معه ، لا يجري اختيارها طبقاً لمقاييس الدوران في فلك « أفكار » الجماعة ، أو الحزب ، وإنما طبقاً للدوران في فلك « أشخاص » القربى والمصاهرة ، والشراكة التجارية ، والصدقات الشخصية ، أو طبقاً لمستوى امتلاكهم لـ « الأشياء » الدنيوية ، أو طبقاً للانتفاء « الإقليمي » ، وأمثاله .

والدعوة ليس لها استراتيجية ولا خطط ولا مؤسسات ، وإنما هي ارتجال وردود فعل لما تطرحه مؤسسات الإعلام المحلية والعالمية ، واستجابات إشرافية منفعة كاستجابات الحمية القبلية .

وأساليب الدعوة تقتصر على - الخطابة والموعظة غير الحسنة - القائمة على الانفعال والارتجال ، الجاهلة بالنفس البشرية ومفاتيحها . وليس هناك مؤسسات لإخراج من يدعو بـ « الحكمة » وإعداد الموازين لمتطلبات العصر . وليس هناك مؤسسات لإعداد المفكرين المختصين بـ « الجدال الأحسن » الذين يخاطبون الفكر الإنساني كله بـ « أحسن » مما عنده . وليس هناك مؤسسات لـ « شهود » ما يجري في قرية الكرة الأرضية ، و « قراءته » قراءة راسخة محيطة تمهد لـ « حكمة » التخطيط والتنفيذ .

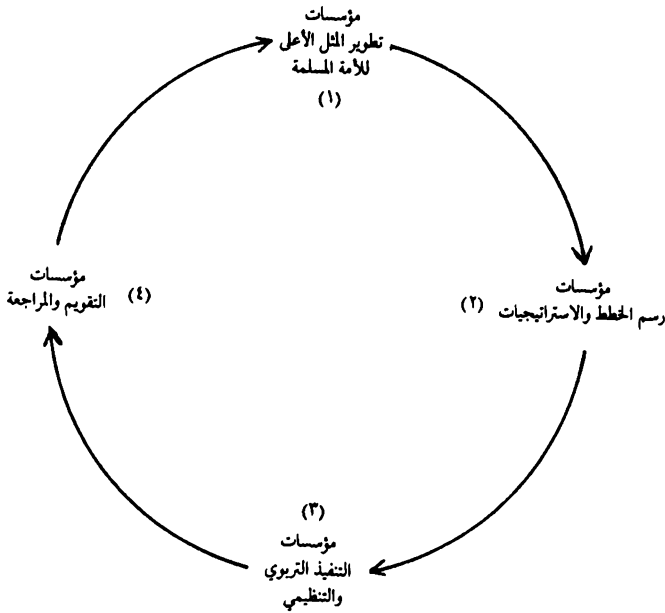
ليس هناك شيء من هذه المؤسسات والاستراتيجيات ، بل الأمر متروك للكر والفر الفكري - الخطابي ، وللجهود الفردية . فإذا أفرزت الصدفة مفكراً فرداً فظهر أمره وشاع ، استثمرت الجماعة أو الحزب أفكاره ومجهوداته - ما دامت توصف بالصواب ، وتحظى بالقبول - ، وإذا تناول النقد أفكار الفرد المذكور ، أو أصاب النطرف تطبيقاتها ، تبرات الجماعة من المفكر وأفكاره ، وألقت المسؤولية عليه وحده .

والتوصية الأخيرة ؛ أن يتم التنسيق بين كافة المؤسسات المقترحة لتكون دائرة عمل فاعلة - متجددة بتجدد الحياة واستمرارها . ومثلما كان الطائر والسمة هما النموذج الذي اهتدى به مصمموا الطائفة والسفينة ، فكذلك يجب أن يكون جسد الإنسان هو النموذج الذي يهتدى به تنسيق العمل الإسلامي ودائرة التنظيم المقترحة . فكما تحتل غدغ الإفراز الموجهة - كالقلب والدماغ والرئتين والكلى والبنكرياس - أحسن المواقع في الجسد ،

وأخفاها حتى عن بصر صاحب الجسد نفسه ، وتقوم بوظائف بعث الحياة في الجسد ، وتوجيه أنشطته ، وتنقيته مما يؤذيه ، كذلك يجب أن يحل العلم الإسلامي - علماءه ومفكره ، أو « أولو الأمر » فيه - أحسن المواقع وأخفاها حتى عن عناصر العمل الإسلامي نفسه ليقوموا في مواقعهم الحصينة ، بوظائف ثلاث : الأولى : تطوير - المثل الأعلى - اللازم لكل جيل من أجيال العاملين لإخراج الأمة المسلمة وعافيتها .

والثانية ؛ رسم الخطط والاستراتيجيات . . والثالثة ؛ التقييم والمراجعات والتركية من المعوقات . . فالعمل الإسلامي لديه الخبرة الكافية - إن كان يعقل - عن سياسات « حكماء مترفي قرية الكرة الأرضية » إزاء الرؤوس المفكرة المسلمة ، وإبطال فاعلية العمل الإسلامي ، وإيقاف حركته أو إفساد مسيرته .

ويمكن أن تمثل لدائرة التنظيم المقترحة بالرسم التالي :



هذه بعض التوصيات التي لا تعدو أن تكون مثيرات ومنبهات للذين سوف يرشحهم الله لإخراج - الأمة المسلمة - من جديد ، فلعلها تساعدهم على أداء فرض الله في « العمل الجماعي » وتجسيد قوله صلى الله عليه وسلم « يد الله مع الجماعة » .

الفهرس

الصفحة

الموضوع

٧	تقديم بقلم الأستاذ عمر عبيد حسنة
١٣	مقدمة المؤلف
١٧	الباب الأول- الأمة المسلمة : مفهومها ونشأتها وأهميتها :
١٧	الفصل الأول : مفهوم الأمة المسلمة
٢٣	الفصل الثاني : بدء ظاهرة الأمة المسلمة
٢٩	الفصل الثالث : أهمية إخراج الأمة المسلمة
٣٣	الباب الثاني- مكونات الأمة المسلمة :
٣٣	الفصل الرابع : العنصر الأول : الأفراد المؤمنون
٣٤	أولا : أهمية الأفراد المؤمنين كعنصر من عناصر الأمة :
٣٨	ثانيا : أهمية « الهوية » و « الجنسية » و « الثقافة » الإيمانية في العالم المعاصر
٤٥	الفصل الخامس : العنصر الثاني : الهجرة والمهجر
٤٥	١ - معنى الهجرة
٤٨	٢ - أهمية الهجرة
٥٠	٣ - دور التربية في بلورة عنصر الهجرة
٥٢	الفصل السادس : العنصر الثالث : الجهاد والرسالة
٥٢	١ - معنى الجهاد
٥٤	٢ - مظاهر الجهاد
٥٨	٣ - معنى الرسالة
٥٩	٤ - أهمية الرسالة في وجود الأمة
٦١	٥ - دور التربية في تعزيز الرسالة

٦٣ : العنصر الرابع : الإيواء	الفصل السابع
٦٣ ١ - معنى الإيواء	
٦٤ ٢ - مظاهر الإيواء	
٨٢ ٣ - أهمية الإيواء	
٨٢ ٤ - مسؤولية التربية إزاء عنصر الإيواء	
٨٤ : العنصر الخامس : النصر	الفصل الثامن
٨٤ ١ - معنى النصر	
٨٥ ٢ - مظاهر النصر	
١٠٣ : العنصر السادس : الولاية	الفصل التاسع
١٠٣ ١ - معنى الولاية	
١٠٥ ٢ - درجات الولاية الإيمانية	
١٠٦ ٣ - درجات ولاية غير المؤمنين	
١٠٩ ٤ - التربية ورباط الولاية	
١١١ : صحة الأمة ومرضها وموتها :	الباب الثالث
 : المرحلة الأولى : مرحلة صحة الأمة وعافيتها .	الفصل العاشر
١١٣ (مرحلة الدوران في فلك الأفكار)	
 : المرحلة الثانية : مرحلة مرض الأمة .	الفصل الحادي عشر
١١٨ (مرحلة الدوران في فلك الأشخاص)	
١٢٠ : طور الولاء للقوم	الطور الأول
١٢٤ : طور الولاء للعشيرة أو الطائفة أو الاقليم	الطور الثاني
١٢٥ : طور الولاء للأسرة	الطور الثالث
١٢٦ : طور ولاء الفرد لنفسه	الطور الرابع
 : المرحلة الثالثة : مرحلة وفاة الأمة .	الفصل الثاني عشر
١٢٩ (مرحلة الدوران في فلك الأشياء)	
١٤٤ : مصير الأمة المتوفاة	الفصل الثالث عشر
١٥١ توصيات	الفصل الرابع عشر

وكلاء التوزيع

عنوانه	رقم الهاتف	إسم الوكيل	البلد
ص . ب ٨١٥٠ الدوحة	٤١٤١٨٢	□ دار الثقافة	قطر
ص . ب ٤٦٩٥ أبو ظبي	٣٤٤٨٣٠	□ مكتبة دار الامان	الإمارات
ص . ب ١٥٥٤٠ العين	٦٥٥٦٢٢	□ المكتبة الحديثية	
ص . ب ٤٦٦٣ دبي	٦٦٥٦٥٤	□ جمعية الإصلاح والتوجيه الاجتماعي	
ص . ب ٢٨٧ البحرين	٢٣١٠٦٢	□ مكتبة الأدب	البحرين
جلدة ص . ب ٩٤٠٩	٦٦٩٥٠٠٠	□ شركة تهامة للتوزيع	السعودية
٢١٤١٣			
الرياض	٤٠٥٤٤٤٠		
مكة	٥٤٥٠٥٤٥		
ص . ب ١٨٦٨٢ ظفار -	٢٩٢٩٣٤	□ مكتبة الثقافة الإسلامية	عمان
صلاله - سلطنة عمان			
حولى شارع المنى	٢٦١٥٠٤٥	□ مكتبة دار المنار الإسلامية	الكويت
ص . ب ٤٣٠٩٩			
رمز بريدي ٢٣٠٤٥			
عمان ص . ب ٩٦٠٦٥٤	٦٠١٥٠١	□ مؤسسة الفريد للنشر والتوزيع	الأردن
صنعاء ص . ب ٥٤٤	٧٨٠٤٠	□ مكتبة الجيل الجديد	اليمن
ص . ب ٣٥٨ الخرطوم	٧٩٤٦٠	□ دار التوزيع	السودان
ص . ب ٧ القاهرة	٧٤٨٨٤٤	□ مؤسسة توزيع الأبحار	مصر
ص . ب 70-13008 زنقة	٢٤٩٢٠٠	□ الشركة العربية الافريقية للتوزيع « سيريس »	المغرب
سجلماسة - الدار البيضاء 5			
MUSLIM WELFARE	2725170	□ دار الرعاية الإسلامية	انكلترا
HOUSE 233, SEVEN	2633071		
SISTERS ROAD			
LONDON, N4, 2DA			
UNITED KINGDOM			

ثمن النسخة

٥٠٠ فلس	الأردن
٥ دراهم	الإمارات
٥٠٠ فلس	البحرين
دينار واحد	تونس
٥ ريالات	السعودية
جنيه واحد	السودان
٥٠٠ بيعة	عمان
٥ ريالات	قطر
٥٠٠ فلس	الكويت
جنيه واحد	مصر
٨ دراهم	المغرب
١٢ ريالاً	اليمن الشمالي
٥ الأمريكان وأوروبا وأستراليا ونيوزيلندا	
آسيا وأفريقيا دولار ونصف أمريكي	
أو ما يعادله ..	



كتاب الأمة

مركز البحوث والمعلومات

هاتف : ٤٦٦٢٢٢

تلکس : ٥١١٥ شرعية دح

فاکس : ٤١٢٦٧٠

برقيا : الأمة الدوحة

ص . ب : ٨٩٣ الدوحة - قطر



المهتدين

رقم الايداع بدار الكتب القطرية
٣٤٦ لسنة ١٩٩١